نهاد الموسى

اللغة العربية في العصر الحديث

قيم الثبوت وقوى التحول



نهاد الموسى

اللغة العربية في العصر الحديث

قيم الثبوت وقوى التحول

1428 هـ -2007 م

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(2006/9/2658)

410
الموسى، نهاد
اللغة العربية: في العصر الحديث: قيم الثبوت وقوى
التحول/ نهاد محمد الموسى.- عمان: دار الشروق، 2006
(204) ص
ر. إ. 2006/9/2658
الواصفات: اللغة العربية//العصر الحديث/

• تم إعداد بيانات الفهرسة الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

(ردمك) ISBN 9957 - 00 - 286-4

(رقم الإجازة المتسلسل) 2006/9/3235

- اللغة العربية في العصر الحديث- قيم الثبوت وقوى التحول .
- الدكتور نهاد الموسى .
- الطبعة العربية الأولى : الإصدار الأول 2007 .

دار الشروق للنشر والتوزيع
هاتف 4618190 / 4618191 / 4624321 فاكس 4610065
ص.ب : 926463 الرمز البريدي : 11110 عمان – الاردن

دار الشروق للنشر والتوزيع
رام الله شارع مستشفى رام الله – مقابل دائرة الطابو
هاتف 2975632 - 2991614 - 2975633 فاكس 02/2965319
غزة الرمال الجنوبي قرب جامعة الازهر هاتف 07/2847003

■ الاخراج الداخلي وتصميم الغلاف وفرز الألوان والأفلام :
دائرة الإنتاج / دار الشروق للنشر والتوزيع
هاتف 4618190/1 فاكس 4610065 / ص.ب 926463 عمان (11110) الأردن

Email : shorokjo@nol.com.jo

إلى لطيفة أُمّي وياسين أبي رمزاً للحضور في الغياب

وإلى الطائر العربي (العنقاء)[1] رمزاً للانبعاث المتجدد

وإلى هند الكبرى وهند الصغرى رمزاً للسيرورة المتصلة

---

1) طائر عربي أسطوري . عبده قدماء المصريين ، فريد من نوعه ، كان يحترق (أو يحرق نفسه) كل خمسمئة سنة ، ثم ينهض من رماده متجدد الشباب والفعالية . وقد غدا رمزاً سيميائياً لكل شيء يتجدد بذاته أو بعوروته .

Chamber's Twentieth Century Dictionary - Phoenix

ثَبَت المحتويات

عِرْفان

أشكر للجامعة الأردنية إذ مَنَحَتْني إجازةَ تفرُّغٍ علْميٍّ للعام الجامعي2006/2005 لإنجاز هذا البحث .

وأشكر للزميلين : الأستاذ الدكتور محمد شاهين الذي أسعدني ببصائره عامة ومصادره حول أمر الترجمة خاصة ، والدكتور وليد العناتي الذي رَفَدَني بِفَيْض من بحوثه ومصادره النادرة ومُسْتَخْرَجاته من موادِّ الإنترنت حول أمر العولمة وغيرها ، كما أشكر للدكتور عيسى برهومة والدكتور هيثم سرحان والآنسة فاطمة العمري وكلِّ مَنْ فاتَ الذاكرةَ استدعاؤهم من "صحبة" العلم ما نَهَدوا لإمدادي به من مواد ذات علاقة بالبحث .

وأذكر لهند وروان وفَهْم صُحْبتَهم العذبة التي منحتني أياما من الصفو لفرز معطيات البحث على "نهج" مضى بها على طريق "اللحاق" بغايته المنشودة ، وإني لأستعيد رَجْعَ تلك الصحبة بفيض من التَّحْنان والامتنان .

وأحتفي بأن أقرر أنني استقرأت هذا البحث في مسوداته النهائية نخبة من أهل الرأي ذوي تخصصات أكاديمية متنوعة هم الأستاذ الدكتور موسى الناظر والأستاذ الدكتور محمد شاهين والدكتور إبراهيم أبو هشهش والدكتور وليد العناتي والدكتور إياس الموسى ، فأضاؤوا جوانب منه بمحاورات متبصرة ورفدوه بتعليقات إضافية أفدت منها وأنبأت عن كثير منها في حواشي البحث ومتنه ما أَطَقْتُ ، فلهم منّي شكر لا يَنْفَد .

وقد تحرّيت تصحيح الطباعة في صورتها الأولى غاية وُسْعي وأشكر في هذا المقام خاصة للآنسة فيروز تَخَلُّقَ صبرها الجميل في هذا الشأن ، ولكنني أعلم كما يعلم كثير من الناس أن المؤلف قد يَرْكَن إلى ما في ذهنه فَيَضِلّ عنه بعض فوائت الطباعة ، فحملت على الدكتور محمد

رباع والدكتور وليد العناتي أن يتصفحا البحث في صورته تلك تلافياً لهذه الثغرة وقد استجابا لهذا المطلب بإسماح حقيق بالتذكار . فلما اتخذ الكتاب سمته على الصورة المعدة للنشر وجدت فيها اختلافاً كبيراً وكان عليّ أن أستأنف التصحيح من أوله إلى آخره بل كشف لي التصحيح المستأنف فوائت من أخطاء الطباعة في التصحيح الأول . وقد اجتهدت في استدراك ذلك طلباً للتمام المأمول .

ولكنني أحترس ، من قبل ومن بعد ، بأن هاجس هذا البحث ومرماه ، وتشكيله في محتواه ومبناه ومنحاه - بكل ما ينطوي عليه ذلك من محاذير ومآخذ حتى فوائت الطباعة - يظل مسؤوليتي وحدي .

هذا البحث

يبتغيّا هذا البحث أنْ يَرْصُد واقع العربية في الفضاء العربيّ و "الكوني" هذه الأيام ؛ ويَتحَرّى ، لهذه الغاية ، وَصْفَ تجلّيات العربية في وجوه التداول ، ويستقري ما يكتنفها من الشروط ذات العلاقة بسيرورتها وصيرورتها وصورتها ، وما يتجاذبها من عوامل البقاء والاستمرار والانتشار . وعوامل النكوص والتنقّص والتحوّل والانحسار .

وهو يتناول ، على التعيين ، وجوه علاقتها بالنصّ المقدّس بما هَيّأ لها أن تكون لغة مُقَعّدة معتمدة بل لغة مشتركة (Lingua-Franca) في العالم القديم ، وبما كان لها مرجعاً تعتصم به وتفيء إليه عند ارتكاسات الأمّة وفي مواجهة الاستلاب ، ويتوقف إلى الأقوال المرسلة في وجوه هذه العلاقة بفحص مُسْتَأْنَف . كما يتناول وجوه امتدادها في التراث وبالتراث ، متجاوزاً عن التعميم "المتداول" في فرادتها من هذه الجهة ومتوقفا إلى ما تقتضيه هذه المزيّة من مراجعة تتحرّى "الأصلح" وتتخذ للتواصل مع التراث سبيلاً أمثل .

ثم يتناول علاقة العربية بهوية الأمّة من حيث هي "رمز" وما عرض لهذه العلاقة من مدّ وجزر في تحوّلات الزمان العربي الحديث .

ثم يُدارس طائفة من الظواهر الماثلة والعوامل المتفاعلة في تَداوُل العربيّة ، ووجوه تأثيرها في حياة العربية وأحوالها إيجاباً وسلباً .

أمّا الظواهر فأبرزها الازدواجية بمستوياتها (الفصحى ، والفصيحة بالفعل ، والفصيحة بالقوة وهي المكتوبة غير المشكولة غالباً ، وشبه الفصيحة ، والوسطى ، والعاميّة) ، والثنائية (العربية والإنجليزية أو الفرنسية) ، والهجين في أطراف الخليج وحواشي المحيط .

وأما العوامل فأهمّها التعليم والترجمة وأوسعها الإعلام والإعلان ، وأخطرها الاقتصاد والعولمة .

وهو يطمح إلى التشخيص في المقام الرئيس ، ويتخذ المنهج اللسانيَّ الاجتماعيْ - بمعناه الواسع - دليلاً . ولكنه ، إذ يجازف بالتفسير ، يذهب إلى أنّ حال العربيّة ، على الجملة ، تمثّل تجاذُباً بين "الثقافي" و "الاقتصادي" .

وهو يرى أنّ تفاعل هذه القيم والقوى - وإن كانت تتجاذب العربية على أنحاء متقابلة - لا يمثّل تهديداً مباشراً لبقائها ، ولكنّه يتخوّف من أن نكوصَ الأمّة إلى الاستهلاك دون الإنتاج ، واتخاذَ الإنجليزية لغةً للتعليم من أوّل ، وتعليم العلوم بإطلاق سَيُقْصِي العربية عن مجالات حيويّة ، ويمنعها شروطَ الفعالية اللازمة للانتشار ؛ ولن يكون الركون إلى عدد الناطقين بها -وإن أمّنها بالقدرة على مدافعة الاندثار- كافياً لتمكينها من التجدّد والازدهار .

فإذا احْتَكَمْنا إلى عوامل حياة اللغة وهي : العامل السياسيّ ، والعامل الاقتصاديّ ، والعامل السكانيّ ، والعامل الثقافيّ ، كما يتمثّلها منظُور البحث في حياة اللغات وموتها ، وَجَدْنا العربيّة على حالٍ تتنازعها تلك العوامل ؛ فأما العامل السياسيّ فهو ، في بعض وجوه المفارقة ، يدعو إلى تعلُّمها حتى لأغراض "الآخَر" ، وأما العامل الاقتصادي فهو يتهددها بغلبة الإنتاج من جهة الآخَر ، وأما السكاني فهو يضمن استمرارها ولو على حالٍ بَيْنَ بين ، وأما الثقافي فيبقى مرجعاً لبقائها ولو على مستوى المثال .

العربيــــة (حال من الماضي)
عَوْدٌ على بَدْءٍ

"إنني لم أقْصِد سوى حِفْظ أُصول هذه اللغة النّبوية وضبط فضلها ؛ إذ عليها مدار أحكام الكتاب العزيز والسنّة النبويّة ، ولأنّ العالِم بغوامضها يَعْلَم ما تُوافق فيه النيّة اللسان ، ويخالف فيه اللسانُ النيّة ، وذلك لِما رأيْتُهُ قد غَلَب ، في هذا الأوان ، من اختلاف الألسنة والألوان ، حتى لقد أصبح اللَّحْن في الكلام يُعَدّ لحنا مردوداً ، وصار النطق بالعربية من المعايب معدوداً ، وتنافس الناس في تصانيف التّرجُمانات في اللغة الأعجميّة ، وتفاصحوا في غير اللغة العربية ، فجمعتُ هذا الكتاب في زَمَن أهلُه بغير لُغَته يفخرون ، وصنعته كما صنع نوحٌ الفُلْك وقومهُ منه يَسْخرون" .

ابن منظور في مقدمته لِلِسان العرب

العربية

(في موقف سيميائي من الماضي)

يقول الجاحظ : إن العرب "لم يكونوا . . . صُنّاعاً ، ولا أطبّاء"(1) .
ويحكي أن أسد بن جاني "كان طبيبا فأكْسَدَ مرّة ، فقال له قائل : "السَّنة وبئة ، والأمراض فاشية ، وأنت عالم ، ولك صبر وخدمة ، ولك بيان ومعرفة ، فمن أين تُؤْتَى في هذا الكساد؟" قال : "أمّا واحدة فإنّي عندهم مُسْلِم ، وقد اعتقد القوم قبل أن أتطبّب ، لا بل قبل أن أُخْلَق أنّ المسلمين لا يفلحون في الطبّ . واسمي أسد ، وكان ينبغي أن يكون اسمي صليبا وجبرائيل ويوحنا وبيرا . وكنيتي أبو الحارث ، وكان ينبغي أن تكون أبو عيسى وأبو زكريا وأبو إبراهيم ، وعَلَيَّ رداءُ قُطْنٍ أبيض ، وكان ينبغي أن يكون ردائي حريراً أسود ، ولفظي لفظ عربيّ ، وكان ينبغي أن تكون لغتي لغة أهل جُنْدي سابور"(2) .

وما أشبه الليلة بالبارحة!

إن قصة أسد بن جاني تشبه –بقليل من التجوّز والاحتراس– أن تكون نموذجاً سيميائياً لواقع الحال ، حال الأمّة والعربيّة هذه الأيام بإزاء الآخر المشخّص بسيمياء العولمة ، إذ يقوم التصنيف الجاري على التقابل بين قسيمتَيْن :

---

(1) رسائل الجاحظ (مناقب الترك) ، الجزء الأول ص 69 .

(2) البخلاء ، ص102 . وكانت جندي سابور ، يومذاك ، تتبوأ منزلة كونية في المعارف العلمية والفلسفية والطبية ، وكان بها مركز تعليم واستشفاء يضم مدرسة للطب ضمت أحسن الأطباء ، وبها اقترنت حركة الترجمة عن الهيلينية في العصر العباسي . وقد ترجمت المؤلفات اليونانية إلى السريانية وترجمت إلى العربية من السريانية أو الأصل اليوناني . ولم تكن العربية في تلك الحقبة من تاريخها وسيطاً مناسباً للترجمات العلمية (كما السريانية والفارسية) إذ لم تكن تنتظم ألفاظاً تقنية جاهزة في هذه السبيل .
Arabic into Medieval Latin, by J.D. Latham, Journal of Semitic Studies, Vol. XVII, Manchester Univ. Press, 1972, pp. 31.
و : أزمة اللغة العربية في المغرب بين اختلالات التعددية وتعثرات الترجمة في المشروع الثقافي العربي ، عبد القادر الفاسي الفهري ، القدس العربي 2005/10/7م .

الإسلام	الغرب
سعيد	إدوارد
ابن داود	ديفيدسون
الحجاب والجلباب	الجينز والـ تي شيرت
العربية	الإنجليزية

مَدْخَل

• سؤال المصير

ما إنْ آذنَ القرنُ العشرون بالأفول حتى أذَّن المشهدُ الكونيّ بسؤال عريض حول مصير اللغات . وأصبحت ظاهرة "موت اللغات" عنواناً يومياً كسائر عناوين العولمة وأعلامها ورموزها . واستفاضت في هذا الشأن تقديرات إحصائية عامّة متفاوتة ونبوءات ، منها أن عدد لغات العالم اليوم زهاء ستة آلاف وثمانمئة ، وأن خمسين إلى تسعين بالمئة من هذه اللغات ستختفي مع نهاية القرن الحادي والعشرين(1) .

نجَم هذا في سياق استعلان العولمة وامتداد اللغة الإنجليزية في أنحاء "القرية الكونية!!(2)" باستحواذها على وسائل الإعلام ، واحتكارها لشبكة الإنترنت والبحوثِ المنشورة في العلوم والتكنولوجيا ، واتّخاذِها لغةً مشتركة في عالم المال والأعمال .

---

(1) هل تقوم لغة عالمية واحدة؟ أحمد أبو زيد ، العربي ، العدد 542 ، يناير 2004 ، ص33 .

و : Language Based Issues of Globalization and the Internet, by Lauren Labrecque Pg1, Google - 14/03/2006.

وكتاب ديفيد كريستال (David Crystal): موت اللغة (Language Death) ، وكتاب سوزان رومين (Suzann Romaine) ودانيال نيتل(Daniel Néttle): الأصوات الآيلة إلى الاندثار (Vanishing Voices)

وقد نبّهه على هذين الأخيرين الدكتور وليد العناتي .

(2) ينظر في التحفظ على التلبيس في استعمال "القرية" في سياق العولمة : آثار العولمة في اللغة العربية ولغات الشعوب الإسلامية ، عيسى برهومة ، ص3 ، الندوة الإقليمية : العولمة وانعكاساتها على العالم الإسلامي في المجالين الاقتصادي والثقافي ، التي عقدتها المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة ، في جامعة آل البيت - الأردن ، 3-4 مايو (أيار) 2006 .

وفزع لهذا المدّ الناطقون بالألسنة البشرية حتى الألسنة العالمية . يتساءل المؤرخ ألان دوكيتس (Alain Decaiz)عضو الأكاديمية الفرنسية : هل يكون مصيرُ اللغة الفرنسية مصيرَ اللغات الهندية الأمريكية التي أصبحت ذكرى لم يتبقّ منها إلا ما تردده بضع ببغاوات هرمة على ضفاف نهر أورينوكو [1] (Orinoco)؟

وكأنما أصبح السؤال العالمي في الوقت الراهن - كما يرسله السيد ياسين- هو : "هل ستنقرض اللغات القومية أمام زحف اللغة الإنجليزية التي تسيطر على شبكة الإنترنت ، وخصوصاً بعد أن أصبحت لغة البحث والتخاطب في المؤتمرات العالمية"؟[2]

ولم تكن العربية ، على التعيين ، بمنجى عن هذا النذير إذْ هي – عند بسّام بركة– "في مطلع هذه اللغات المهددة"[3] .

وانتصب أمام العربية سؤال [4] مصيريّ جديد ، ينضاف إلى الأسئلة المعلّقة [5] التي واجهتها العربية في القرن الماضي . ولكن هذا السؤال قد تصَدَّر الأسئلة جميعاً ، وكأنما أصبح عنوان القضية

– (1)Language Based Issues of Globalization & the Internet, by Lauren Labrecque, Pg1. Google14/03/2006

(2) كتابة النصّ في عالم متغيّر من انهيار السلطة اللغوية إلى سقوط الأنساق الفكرية ، ندوة اللغة العربية والإعلام وكتابة النصّ ، منتدى الفكر العربي ومجمع اللغة العربية الأردنيّ ، 2005/9/13 ، عمّان ، ص3 .

(3) اللغة العربية وتحديات العصر الحديث ، حوار العرب ، إبريل – نيسان 2005 – محور "اللغة العربية" ، ص24 .

(4)و هو سؤال لا تنفرد به العربية ؛ ذلك أن الباحثين في هذا الشأن من الجانب الغربي قد أنبهوا على أن الدينامية الاجتماعية الرئيسية التي تشكّل الوسائل العالمية للإعلام والاتصال في عصر المعلومات هذا إنما هي التعارض بين الشبكات العالمية والهويات المحلية ، وينظر في هذا :

Language Choice Online: Globalization and Identity in Egypt, by Mark Warschauer, Ghada R. El-Said & Ayman Zohry, July 2002.

(5) ليس من قصد هذا البحث أن يستأنف القول في تلك الأسئلة المعلّقة إلا بمقدار صلتها بهذه الأطروحة الطارئة ، فقد تداول الباحثون تلك الأسئلة في سياقها من القرن الماضي على أنحاء مستفيضة شتّى . ويشبه السجال في تلك الأسئلة أن يكون هو إياه بين المشرق العربي ومغربه ، ولعلّ كثيراً من مقولاته ما تزال ممتدة في حياتنا إلى اليوم . ويتناظر في هذا السجال من يقولون بـ "عجز اللغة العربية" و "موتها" و "صعوبتها" ويرون أن العامية هي اللغة الحية وأن اللغة الأجنبية هي سبيل التقدّم . . . ومن يستحضرون ارتباط العربية بالدين ، وتجربتها الحضارية المتميزة في تاريخ العلم وقدرتها الذاتية على النماء وأنها إنما تقوى بقوة أهلها وأنّها إنما تحيا بالاستعمال وأنها الرابطة الجامعة . . . ينظر في هذا المشترك بين المشرق والمغرب وما تَمثّل فيه من التناظر ، مثلاً : القضية اللغوية في تونس لمحمد هشام بو قمرة ، والثنائيات في قضايا اللغة العربية لنهاد الموسى ، ومن قضايا اللغة العربية المعاصرة للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم .

اللغوية في العربية هو : العربية والعولمة ، والعولمة والهوية الثقافيّة ، وأصبح هذا السؤال المصيري محور الندوات والمؤتمرات اللغوية العربية في بضع السنوات الأُوَل من هذا القرن[1] ، كما أصبح عنواناً لبعض المؤلفات[2] بل عنواناً لبعض المقالات الإعلاميّة[3] .

ولعل معترضا يعترض بأنّ هذا السؤال غير لازم وأن العربية لن تواجه هذا المصير ؛ فقد أعلن "الكاتب الإسباني كاميلو جوزي سيلا الحائز على جائزة نوبل في الأدب لعام 1989 عن تقديراته الاستشرافية حول مصير اللغات الإنسانية"[4] إذ "كشف عن تنبؤاته المستقبلية بما ستؤول إليه الألسنة البشرية العالمية المنتشرة اليوم"[5] و "ارتأى أن الثورة الاتصالية وانفجار أدوات التواصل التي اختزلت بُعد الزمان ، وألْغَتْ بُعْد المكان ، وتجاوزت - بواسطة الصورة - حواجز أدوات التعبير ، ستؤدي تدريجياً إلى انسحاب أغلب اللغات من ساحة التعامل الكوني وإلى تقلّصها في أحجام

---

(1) من ذلك ، مثلاً :

- ندوة قضايا اللغة العربية في عصر الحوسبة والعولمة ، التي عقدها اتحاد المجامع اللغوية العلمية العربية بالتعاون مع مجمع اللغة العربية الأردني ، عمان (16-2002/9/19م) .
- مؤتمر اللغة العربية أمام تحدّيات العولمة ، الذي عقده معهد الدعوة الجامعي للدراسات الإسلامية ومجمع كلية الدعوة الإسلامية في دورات متعاقبة ، بيروت ، 2002 - 2005 .
- ندوة الهوية اللغوية والعولمة ، جامعة البترا الأردنية ، 26-2003/5/27 .
- مؤتمر حضارة الأمة وتحدي المعلوماتية ، الذي عقدته كلية الآداب من جامعة الزرقاء الأهلية في الأردن 18-2004/5/20 .
- ندوة يوم العربية (اللغة العربية والهوية القومية) التي عقدها قسم اللغة العربية وآدابها بكلية الآداب والعلوم من جامعة البترا الخاصة في الأردن ، 2005/3/23 .
- مؤتمر اللغة العربية في عالم متغيّر ، الذي نظمه قسم اللغة العربية وآدابها بكلية الآداب والعلوم بجامعة الشارقة 19-2005/4/21 .
- ندوة اللغات في عصر العولمة : رؤية مستقبلية ، التي عقدتها كلية اللغات والترجمة ، بجامعة الملك خالد في السعودية 20-2005/2/22 .
- الندوة الإقليمية : العولمة وانعكاساتها على العالم الإسلامي في المجالين الاقتصادي والثقافي ، التي عقدتها المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة ، في جامعة آل البيت ، الأردن 3-4 مايو (أيار) 2006م .

(2) من ذلك ، مثلاً : اللغة العربية في عصر العولمة ، لأحمد بن محمد الضبيب ، مكتبة العبيكان ، الرياض ، الطبعة الأولى 1422هـ/2001م .

(3) من ذلك ، مثلاً : اللغة العربية في زمن الإنترنت ، لباريهان قمق ، (جريدة) الغد ، 1426/2/28هـ - 2005/4/8م .

(4) العولمة والعولمة المضادة ، لعبد السلام المسدّي ، ص390 .

(5) المرجع السابق في الموضع السابق .

محلية ضيّقة ، ولن يبقى من اللغات البشرية إلا أربع قادرة على الحضور العالمي وعلى التداول الإنساني وهي الإنجليزية والإسبانية والعربيّة والصينيّة"[1] .

بل قد يلوذ المعترض بما يتداوله الباحثون في مستقبل اللغات ومصائرها ، إذ يرون العربية إحدى أوسع لغات التواصل انتشاراً [2] . ويفتحون لمستقبلها باباً من التفاؤل بالتساؤل : هل يتّسع نطاق العربية واليابانية مستقبلاً؟[3] . وهم يتنبّأون بأنّ منزلتها بين اللغات العالمية ستتقدم عمّا هي عليه الآن ؛ إذ إن جداول تصنيفهم لمقادير انتشار اللغات في نهاية القرن الماضي جعلت العربية بين اللغات الإقليمية(Regional) إلى جانب الصينية والفرنسية والروسية والإسبانية على حين تجعلها الجداول البيانية عن صعود اللغات وانحدارها لعام 2050 في مصافّ اللغات الكبرى (Big)مع الهندية والأردية والإنجليزية والإسبانية[4] . بل يَسْلُكها (Trudgill) قبل عشر سنوات في اللغات "القواتل" : الإنجليزية والإسبانية والبرتغالية والروسية والعربية والسواحلية والصينية والأندونيسية الملايوية[5] .

ولكنّ ذلك كله واقع في حدّ التنبّؤ ، وهو محفوف بكثير من الشكوك ، بل إن أصحاب هذه التنبؤات يقدّرون أنها قد تكون خاطئة شأنها في ذلك شأن تنبؤات سابقة .

وهم يتنازعون في أمر العوامل التي تؤدي إلى انتشار اللغات ؛ إذ يعتد بعضهم تلك العوامل سياسية وسكانية واقتصادية مُطّرِحا العامل الثقافي مُقْصِيا الاعتقاد التقليدي بالعلاقة بين اللغة والهوية . وهو مذهب متطرّف يدافعه اللسانيون الاجتماعيون خاصّة .

فإذا بلغ الباحث في هذا الشأن ما تواجهه العربية من التحدّي في مجال العلوم والتكنولوجيا أصبح في رَيْب من أمر التنبّؤ بمستقبلها[6] .

---

(1) المرجع نفسه ، ص390 .

(2) Languages in a Globalizing World pp. 231.

(3) المرجع السابق (التصدير) .

(4) المرجع نفسه ص17 .

(5) و Taking Note of Language Extinction, by Margit Waas – Waasm@nie.edu.sg
Applied Linguistics Forum, Vol. 18, No. 2, Pages 1, 4 and 5.

(6) Arabic and the New Technologies, by Foued Laroussi, in Language in a Globalizing World, edited by Jacques Maurais and Michael A. Morris, pp. 258.

ويعترف الباحثون في هذا الشأن بأن تنبؤاتهم تظلّ بمنأى عن سَكينة اليقين ؛ ذلك أن معياراً يمكن الركون إليه في أمر التنبؤ محتاجٌ إلى أن يَسْبُر دينامية الطبيعة اللغوية في تعدّد أبعادها وتعدّد وظائفها[1] .

إن سَبْرَ دينامية الطبيعة اللغوية للعربية في تَعَدُّد أبعادها وتَعَدُّد وظائفها ، وتعدّد الشروط التي تكتنفها يمثّل سؤال هذه الأطروحة . وهو يفضي بنا إلى مِثْلِ هذه الأسئلة :

• مساءلة في أحوال اللغة: الكينونية المحايدة ومَجْمع الأضداد

- كيف تكون الروسية لغةَ الإقطاع (الفردي) ولغةَ الانقلاب الشامل إلى الاشتراكية (الجَماعية)؟
- كيف تكون العربية لسانَ الجاهلية وتكون العربيةُ نفسُها لسانَ الإسلام؟
- كيف تكون العربية "كلمة طيّبة"[2] حيناً و "كلمة خبيثة"[3] حيناً آخر؟
- كيف تكون العربية لساناً للمديح ولساناً للهجاء؟

كيف تكون العربية لسان الفضائل والقيم العليا وتكون لسان الإعلان عن "منتجات الغريزة"[4] والرذائل الدنيا؟

- لماذا تسرّنا اللغة وتدخل إلينا البهجة وتحمل إلينا البشرى ووعود الخير حيناً ، وتسوؤنا وتُقلِقُنا بالكَدَر وتحمل إلينا نُذُر السوء ووعيد الشرّ حيناً؟
- كيف تكون العربية أداتنا في نشر الحضارة العربية الإسلامية وتكون أداة "الآخر" في غزونا واختراقنا؟
- كيف تكون العربية لساناً لبيان النصر في خطبة فتح القدس وتكون لساناً لمنشورات المحتلّ الذي يدعو أهلها للاستسلام؟
- لماذا نتواصل باللغة فنتفق ونتواصل باللغة فنختلف؟
- ولماذا تكون اللغة واحدة والناطقون بها "أمماً شتّى"؟

---

(1) Language in a Globalizing World pp. 3

(2) سورة إبراهيم آية 24 .

(3) سورة إبراهيم آية 26 .

(4) من الحقّ أن تُسْنَد هذه العبارة إلى فهمي جدعان فَلَه "اللفظ" وإن اختلف مورده في هذا السياق .

• **مساءلة أخرى في أحوال اللغة: عوامل التفاضل وتباين المنازل**

- كيف تكون الفرنسية، في القرن السادس عشر، لغة فجّة فظّة إذا قورنت باليونانية، وتكون لغة الألق المُسْتَعْذَب هذه الأيام؟

لماذا كانت الملكة اليزابيث في القرن السادس عشر تختار أن تكلّم السُّفراء لدى البلاط باللاتينية وتأنف أن تخاطبهم بالإنجليزية؟

- لماذا تكون العربية أفضل من الفارسية في رأي البيروني ولماذا تكون الإنجليزية أفضل من العربية في رأي مرغوليوث؟

- كيف تكون العربية هي "العِلْم"(1) في المَثَل التركي وتكون لغة "أدبية" لا تصلح للعلم في دعاوَى بعض أهل هذا العصر؟

- لماذا كان الشّبان في إسبانيا في القرن الثالث الهجري يتهافتون على تعلّم العربية ويُعْرِضون عن اللاتينية؟

- ولماذا يزورّ الشبّان عن درس العربيّة هذه الأيام ويؤثرون التخصّص في الإنجليزية؟

- كيف تكون الفرنسية رمز التغريب والمنفى والاستلاب في الجزائر وتكون العربية رمز الهوية وعنوان الوجود وملاذ الروح ومستودع الذاكرة في الجزائر في آن معاً؟

• **العربية: هنا، الآن: مَعْرِض التَجَلّيات**

ثم إنّ سَبْر دينامية الطبيعة اللغوية في تعدّد وظائفها يقتضينا التبصّر في تجلّيات المشهد اللغوي، وهو يتّخذ في العربية هذه الأنحاء :

- عربيّة فُصحى في المصحف المرتّل، وهي عربية التلاوة فقد أُنزل القرآن على سبعة أحرف .

- وعربية فصيحة بالفعل إذا استوفى القارئ بما استدخل من نظامها شروطَ الصواب، كما في إنشاد الشعر الفصيح والغناء به، وكما في الدراما التاريخية والدراما التلفزيونية المترجمة "المدبلجة"، والتقارير الوثائقية والنشرات الإخبارية وكثير من أفلام الكرتون ... وغيرها .

- وعربية فصيحة بالقوّة وهي عربية البحوث والمؤلفات والدوريات والصحف؛ إذْ هي مكتوبةٌ غير مشكولة في المعتاد الجاري، وإذن تكون مفتوحة لمستويات متفاوتة من الأداء، فقد تكون

---

(1) من الأقوال التركية المأثورة: العربية عِلْم، والفارسية سكّر، والهندوستانية ملح، ولكن التركيّة فنّ.
Arabic Loan-Words in Malay (A Comparative Study), by M. A/ Jabbar, pp.IX.

فصيحة بالفعل على الشرط المتقدّم ولكنها في السائد عربية ملحونة مشوبة بأخطاء الضبط والإعراب ، وهي عربية القارئ العربي على العموم .

- وعربية فصيحة محكيّة يحاولها ويلتزمها متخصصّون ومثقفون ولكنّهم قليل حتى ليكاد الناس يميّزونهم بهذه الخصوصيّة .

- وعربية شبه فصيحة تجري بها ألسنة مراسلي بعض الفضائيات في سياق نشرات الأخبار؛ إذ اجتهدوا في تطويرها لتنسجم مع سياق النشرات ، ومقتضيات الخطاب الموجّه إلى قطاع المشاهدين في الفضاء الممتدّ .

- وعربية وسطى هي عربية المتعلمين المحكية ، وهي مزاج من العامية المكتسبة والفصحى المتعلّمة ، تقترب من الفصيحة في معجمها وهيئات أبنيتها وطرائق نظمها . ولكنها تقع دون الفصيحة لأنّها غير معربة إلا في بعض المأثور والرواسم (مثلاً ، طبعاً ، بدايةً ، أصلاً ، شكراً . . .) ، وهي عربية التخاطب بين المتعلّمين الناطقين بلهجات عربية مختلفة .

- لهجات عامية محكية متداولة في سياقاتها المحلية بل ممتدة في فضاء الإعلام والأفلام العربية والدراما الاجتماعية والشعر الشعبي (أو النبطي) وفيض الأغاني الشبابية . وهي اللهجات المكتسبة بالسليقة وهي النُّظُم اللغوية التي تستولي على البرنامج اللغوي الأوّل في الدماغ لدى العربيّ .

- لهجات عامية مكتوبة في حواشي بعض القنوات الفضائية والإعلانات التجارية ، وهي تَخْرق العُرف الاجتماعي ؛ إذ تُنْزِل العامي المحكي المنطوق مَنْزِلَ الفصيح المكتوب ، وتخرج على رسم العربية المألوف إلى رسوم كتابية عشوائية .

- عربية مكتوبة مجتزأة في الإعلانات المبوّبة لغاية الإبلاغ تُسْقِطُ الروابط جُمْلَةً ؛ إذْ تُعَوِّل في خطابها على قرائن السياق ، وتستثمرها لغايات الاقتصاد في حيّز الإعلان ، ومؤْنة النفقة .

- عربية مختزلة مكتوبة بالحرف اللاتيني يتداولها الشباب في رسائل الهواتف المحمولة والبريد الإلكتروني وهي في معظم الأحيان عاميّة مشوبة بعبارات إنجليزية سائرة بل تستبدل ببعض الألفاظ أرقاماً (4-for) ، وتختزل الألفاظ حروفاً (u- you) .

- عربية محكية وسطى تخالطها مفردات وعبارات بالإنجليزية أو الفرنسية في المشرق العربي .

- عربية عامية مهجنة بالهندية أو الأُردية في مشرق الخليج العربيّ .

- عربية عامية تخالطها مفردات وعبارات بالفرنسية في المغرب العربيّ .

ونَخْبأُ هذه التجلّيات مواقف متباينةً وعوامل متشابكة لدى الناطقين بالعربيّة :

- فَمِنْ ناظر إلى التزام الفصحى في لغة الخطاب اليومي دليلاً على المحافظة يُومئ إلى تقليد سلفيّ فيأنس به ،

- ومن ناظر إلى هذه الظاهرة على أنها ظاهرة فردية لم تبلغ أن تكون عرفاً اجتماعياً ، وأنّ تَكَلُّف الفصحى في كل موقف يُلْقي على المتحدث عبئاً ذهنيّاً إضافياً هو من لزوم ما لا يلزم ، وقد يَلْقى لدى بعض المستمعين استهجاناً لما لم يألفوا .

- ومن راغب في اتخاذ الفصحى يحاولها في خطابه الديني أو الثقافي ولكن بعض "العامي" المكتسب يتسرّب إلى لسانه على نحو تلقائي "لا واعٍ" أو "لا إراديّ" .

- ومن قائل إنّ الإعراب نظام ، والنظام جميل ، والتزامه دليل اتساق يليق بالاتساق المنشود في ظواهر الوجود والاجتماع الإنساني ، وذلك مَلْحَظ جماليّ "مثاليّ" على نحو ما .

- ومن قائل إنه لا ضير من التساهل في الإعراب ما دمنا نبلغ القصد من الإفهام والتواصل ، وتلك نزعة براغماتية خالصة .

- ومن "الغوي" يستحب ما كان يجري به لسان أمه من العامية إذ يجد له مع حميميّته أصلاً في الفصحى ونأياً عن التكلّف .

- ومن محاضر بالعربية وغيرها من حقول التخصص يستعمل "العربية الوسطى" غير آبه بأنْ يحتشد لهذا الموقف العلمي الخالص بالتهيُّؤ اللائق مائلاً إلى أدنى المجهود والخاطر اللغويّ الحاضر .

- ومن ناظر إلى أداء أبناء العربيّة وما يقعون فيه من أخطاء القراءة والكتابة فيراه ضعفاً فادحاً ومدعاة للإنحاء باللائمة على الجيل والمؤسّسة التربوية .

- ومن قائل إنّ المداخلة بين العربية والإنجليزية (مثلاً) يأتيه عفْواً لازدواج موارد اللغتين لديه بالاكتساب (على مستوى العامية) والممارسة (على مستوى الإنجليزية) .

- ومن قائل إنّ هذه المداخلة تُنْبِئ عن عُقْدة نقص تُترجم عنها المقولة الخلدونية : إنّ المغلوب مُولَع بتقليد الغالب ، أو هي مظهر من مظاهر التباهي بالتزيّي بزيّ "الآخر" "المتقدِّم" طلباً للظهور .

- ومن ناظر إلى تفوّق "الآخر" وامتداد لغته "الإنجليزية" خاصة في الآفاق ، مفتاحاً لفُرص

العمل ودليلاً على التقدم وعملة رائجة في سوق التداول ومجال الأعمال ، فيقف من التخصص في العربية موقفاً سلبيّاً أقرب إلى الازدراء .

- ومن ناظر إلى مثل هذا الموقف على أنه من وجه يمثل ازدراء المألوف ، ويغفل عن المكانة الحيوية للعربية ، ويرى أن لو عاني هؤلاء حُبْسة في ألسنتهم لأيقنوا بهذه المكانة والدور الذي لا تستقيم حياتهم إلا به ، ويمثّل ، من وجه آخر ، خُفوت الحسّ بالهوية تحت وطأة تغوّل الأخر ، وتداعي عنفوان الأمّة الرسميّ .
- ومن مُشفق على العربية أن يغمرها طوفان الألفاظ الأجنبية في السوق العربية الاستهلاكية .
- ومن ناظر إلى هذه الظاهرة على أنها ظاهرة طبيعية في اقتراض اللغات بعضها من بعض ، ذاهباً إلى أنها نتيجة تلقائية لموقف "الإنتاج" لدى "الآخر" مُقابل غلبة "الاستهلاك" علينا .

• تقابُل القيم والقوى

وليس بكاف في سبر ذلك كلّه أن نركن إلى النبوءات المظنونة أو إلى الأجوبة المجملة . وهي الأجوبة المرسلة المتمثّلة في أنّ العربية محفوظة على الزمان بالقرآن ، وأنها حيّت دون انقطاع ستة عشر قرناً بما هي وعاء لتراث حضاري إنساني متصل ، وأنها لغة مئتين وسبعين مليوناً من البشر ، ولغة تهفو إلى تعلّمها قلوب مليار من المسلمين وتدعو إلى تعلّمها مقاصد شتى لدى غيرهم ، وهي لغة التعليم ولغةٌ معتمدة في الفضائيات على أنحاء شتّى .

ولسنا نماري في هذه الأجوبة المُجْملة جُملةً . وإنما نقصد أنّها محتاجة إلى فحص وتمحيص . ذلك أنها تنطوي على كثير من الحق ولكنها تُرْسَل بكثير من التعميم . كما أنه يكتنف العربية عوامل أخرى جديرة بالفحص والتمحيص كذلك .

إن الثنائيةَ اللغوية التي غرسها المستعمر وامتدادَها مع العولمة ، والازدواجيةَ اللغوية التي "تهزّ" صورة العربية ، وإقصاءَ العربية عن مجال العلوم والتكنولوجيا ، وعلاقةَ العربية بالاقتصاد ، وهو الأمر الذي لم يعبأ أهل العربية بتحليله واكتفوا في شأنه بالنكير على اتخاذ أسماء المحال باللغات الأجنبية ، إن كُلَّ ذلك محتاج إلى درس مستأنف ، يرصد جدل العربية مع قيم الثبوت وعوامله وقوى التحوّل ودواعيها . وإذن تتمثل أطروحة هذا الكتاب في تحليل الأسئلة التالية ومحاورتها :

أسئلة البحث

- هل يعني العهد الإلهي بحفظ الذّكر الحكيم - بما هو صونُه من التغيير والتبديل - تلقائياً ، وبالضرورة ، حفْظ العربيّة بهذا المفهوم؟

- ألم يتحوّل القرآن ببعض ألفاظ الجاهليّة إلى معان إسلاميّة وهو إنّما أُنزل بلسان القوم؟
- ما وجوه العلاقة بين العربية والنصّ المقدّس ، من هذه الجهة ، جهة امتداد حياة العربية؟
- هل يستقيم لنا أن نقول إنّ العربية كُلّها مقدّسة بإطلاق؟
- ألم تكن العربية – في بعض وجوه الأداء وفنون القول- لساناً يخالف منظومة القيم الإسلامية؟
- أليست العربية مما قد يستعمله "الآخر" بهوىً يمثّل "حربا نفسيّة" على أهل اللسان العربي أنفسهم؟
- أحقّا أنّ عربيّة التراث العربي الإسلامي تُشبه أن تكون "معاصرة" وأنّ زمان العربية في صيرورتها دائريّ ؛ أوّله آخرُه ، وآخرُه أوّله؟
- ما دور الهوية القوميّة ومشروع الوحدة العربية في هذا الشأن؟ وما مقدار فعاليته في حفظ العربيّة – بما هي رمز؟
- هل يسهم الإعلام في إشاعة العربية وانتشارها وملءِ الأسماع بها على نحوٍ يغْذو "المَلَكة" اللغوية للقارئ المستمع العربيّ؟
- ما تأثير الازدواجية اللغوية في استقرار العربية واستمرارها؟
- هل تمثّل اللهجاتُ لِنَسَبِها في الفصحى تنويعاً يستوعب البيئات العربيّة بإيقاعات تغتني العربية بها؟
- هل يحقق التعليم أهدافه في تمكين الناشئة من العربية وتحبيبها إليهم وإقبالهم عليها؟
- ما تأثير الثنائية اللغوية (العربية والإنجليزية أو العربية والفرنسية) في تمكين العربية أو تهجينها؟
- هل تمثّل الثنائية نافذة إضافية للناطقين بالعربية ووسيلة لرفد العربيّ بالاختبار الحضاريّ والعلوم التي طوّرها الآخر؟
- ألا تُفْضي الثنائية إلى مزاحمة العربية وقلقلة مكانتها في نفوس أبنائها؟
- إلى أي مدى مَثّلَت الترجمة رافداً يمدّ العربيّة بأسباب السيرورة والتجدّد ومواكبة العصر ونهضةٍ مُسْتَأْنَفَة؟
- ما مدى تأثير الاقتصاد بوجهي الإنتاج والاستهلاك في تعزيز العربية أو تهجينها؟

- ألا يمثّل الشارع العربي بأضواء إعلانه عن منتجات العولمة غزواً شاملاً يشوب نقاء العربية مُعجماً وخطاباً؟

- ألا يُسهم الإعلان (الاقتصادي) حتى الإعلان عن "منتجات الغريزة" نفسها وما يتعلّق بها من مستحضرات وأجهزة يقدّمها (جون وماري) ، مثلاً ، بعربيّة فصيحة "مُدَبْلَجة" في تحقيق حضور العربية "مَتْناً" في فضاء المشهد العربي وأُذُن المشاهد العربي؟

- ما محاذير تأثير العولمة في حاضر العربية ومستقبلها وخاصّة بعد أن اتخذت العولمةُ اللغةَ الإنجليزيةَ لسانَ القطب السياسي الأوحد ، ولسان اقتصاده ، ومؤسساته المهيمنة وأذرعه الإعلامية ، واحتكرت بالإنجليزية -أو تكاد- مفاتيح الإنترنت وجُلّ ما ينتجه العلم وما يُسْتَحدث من التكنولوجيا؟

- هل أصبحت العولمة تُمثِّل تحدّيا حقيقيا للعربية في قدرتها على البقاء والاستمرار بعد أن أصبح عصر العولمة يهدّد ، بتسارع غير مسبوق ، كثيراً من اللغات بالموت؟

- كيف تتفاعل هذه العوامل في المشهد اللغوي العربي وكيف تتجاذب (بِنْيَةَ العربية ومَنْزِلَتَها) وتعمل في تمكينها وانتشارها أو إقصائها وانحسارها؟

إن محاورة هذه الأسئلة أدنى ما تكون إلى المراجعة . وإذا كان كثير منها يتناول معطيات أو عوامل تتسم بالثبوت المطلق أو النسبيّ ، وإذا كان أمر اللغة بطبيعته المركبة معانداً لمبدأ الطفرة ، فإن من الحق أن أحترس بأنّ أَمْرَ هذا الزمن بتحوّلاته المتسارعة ينطوي على فارق قياسي في حسابات التغيير ، ولذلك فلعل كثيراً من هذه العوامل أو بعضها على الأقل سيعرض له أو سيطرأ عليه تغيّر حاسم قبل أن يخرج هذا البحث إلى فضاء التداول . وهو احتراس تقتضيه الطبيعة الاستثنائية لهذا العصر الرقمي .

مَرْجِع النَّظَر: ائتلاف البنيويّ والبَيْئي

ويقتضيني التقرير المباشر عن الرؤية المنهجية التي أصدر عنها في هذا البحث أن أَجْلُوَ أمرين : أمراً يتعلق باللغة في ذاتها وأمراً يتعلق باللغة في غيرها .

أما اللغة في ذاتها فهي ما يتمثله الخاطرُ إذا ذُكِرَت العربية أو الفرنسية أو الروسية . . . إلخ وهي - عند المتعلّم- نظام يأتلف من أصوات محدودة تتشكّل فيما بينها على أنحاء مخصوصة ، وتجري على صيغ معيّنة مفردة ، لها معانٍ متعارفة ، تتركب في جمل بقواعد محددة ، نستطيع بها أن نؤدي المعنى الواحد بتراكيب متنوعة . وتتحول من صفتها المنطوقة إلى هيئة رمزية مكتوبة وَفْقاً

لقواعد مرسومة . وقد تكون لغة مُعْرَبة كما العربية فتتغير حركات أواخر الكلم فيها عند التركيب على وفق مواقعها ووظائفها وعلائقها بسائر الكلم في سياقها الداخليّ .

وإنما أكتفي بهذا التبسيط لأنني أعتقد أن كُلّ مَنْ يَنْشُد أن يتعلّم لغةً ما سيجد أنّ معرفة ما تقدّم تعني عنده ، أو تُحقّق له ، معرفةَ اللغة في ذاتها بما هي نظام .

وحقّاً أن اللغات تتفاوت فيما بينها على بعض الأنحاء ؛ فقد تتباين في بعض الأصوات ، وقد تتباين في هيئات صَوْغ الكَلِم كَأَنْ تكون اشتقاقية أو لاصقة ، وقد تستفاد الفروق في المعاني بينها بالتنغيم على أنحاء مخصوصة ، وقد تكون مُعْرَبة أو غير معربة . ولكنّ كلا منها يظلّ نظاماً ذاتياً له صفته التي تنضبط بدليل معياري لكلّ من ينشد تعلّمها .

ولعلّه ليس بلازم هنا أن نستطرد إلى مقولات السلوكيين أو العقليين أو الوظيفيين ؛ لأننا نؤثر أن نلتزم ما رَسَمْنا من حدّ الأمر الأوّل لمرجع النظر ، ولأنه لا أحد من هؤلاء ينكر أن تكون اللغة في بنيتها الذاتية المباشرة غَيْرَ ما وَصَفْنا .

وإنما نكتفي بالإشارة إلى مقولة التحويليين إن اللغة كينونة فطرية مركبة في العقل الإنساني ، وإن تلك حقيقة إنسانية مشتركة ، وإنّ العقل الإنساني بما رُكّب فيه بالفطرة قادر على برمجة نظام أية لغة ؛ بآية أنّ الطفل - أيّ طفل- ينشأ في مجتمع ناطق بلسان بشري - أيّ لسان- يكون قادراً على اكتساب نظام ذلك اللسان ؛ إذ يصبح عند الخامسة أوالسادسة قادراً على استقبال كُلّ ما يُلقى إليه من جمل لم يسمعها من قبل فيحلّلها وينشئ بإزائها جملاً لعلّه لم يستعملها أو لم يسمعها من قبل . وإنما يفيء في ذلك إلى ما استدخله من منظومة اللغة في الدماغ بقواعدها المحدودة التي تمكنه من توليد الجمل وتحليلها بلا حدود .

وإنما نكتفي بهذه الإشارة لأنها تعضد ما نذهب إليه في هذا الأمر الأول من أنّ اللغة كينونة قائمة بذاتها .

ونضيف هنا أن اللغة بهذا المفهوم كينونة أو ظاهرة محايدة أو ظاهرة إنسانية مشتركة بإطلاق . واللغة - عند هذا الحد- لا عمل ذاتياً لها(1) ، واللغات - بهذا الحد- سواسية لا فضل للغة على أخرى من حيث المبدأ .

---

(1) وإذا كان متعارفاً أننا نصف اللغة باللغة فإنه يعضد مقولتنا هنا أن نذكر أنه يمكننا أن نهجو اللغة باللغة نفسها ولو كان لها عمل في ذاتها لَتَأَبّتْ وأنكرت أن نهجوها بها .

واللغة العربية ، وهي محور القصد هنا ، شأنها شأن سائر اللغات ، يكتسبها لهجةً (أو عربية وسطى) كلُّ من ينشأ في محيط اجتماعي ناطق بها حين تتوافر له شروط الاكتساب ، ويتعلّمها (فصيحةً) على صفتها الموضوعة في نظام أصواتها وتشكيلها الصوتي وقواعدها الصرفية والنحوية والإعرابية ونظامها المعجمي والكتابي والأسلوبي كُلُّ مَنْ ينشد تعلّمها .

وأما اللغة في غَيْرِها فمرادنا به أنّ اللغــة ليست كينونة مغلقة ولا جزيرة معزولة - كما يقولون ؛ ذلك أنها تتمظهر على ألسنة الناطقين بها ويتحقق وجودها الفعليّ بهم ، تُعرف بهم ويُعرفون بها فتكون رمزاً للهوية ،

وقد يغفلون عن هذا إذا غلبهم الإلْفُ بها ، فإذا غلب عليهم الآخر ونازعهم إيّاها انتفضت فيهم قيمتها الرمزية . فهي من هذه الجهة كالماء : أعزّ مفقود وأهون موجود .

وهي في جدل مع الناطقين بها على أنحاء شتّى :

فإنما يَحْيَوْن بها كأنما هي الهواء الذي يتنفسونه - أو كما قال جاك دريدا(1) ، وهي ، كذلك ، إنما تحيا بهم إذ هي في بعض المقولات كائن طفيلي(2) يغذوها أو يهملها الناطقون بها .

بل إنّها تموت - ويقدّر المتتبعون لمسألة موت اللغات أنه تموت في العالم لغةٌ كلّ اثني عشر يوماً ، وإنما تموت وفقاً لتقديراتهم الإحصائية بموت آخر الناطقين بها .

وهي تمتد بامتدادهم وترتد بارتدادهم ونكوصهم . وقد كان هذا شأن العربية قديماً وشأن الإنجليزية والفرنسية والإسبانية والألمانية في زمن الاستعمار قريباً .

وهي تتقلّب وفقا لأحوالهم وشروط حياتهم ، تتوهّج وتخبو وفاقا لأحوالهم ، وترقى وتسفُل وفقاً لمواضعاتهم وأوضاعهم . فهي مَجْمَع الأضداد بها يتوادّون ويتراحمون ، وبها يتناكرون ويتباغضون . فهي - في ذاتها- محايدة ؛ إذ تكون رابطةً جامعةً لقلوب الناطقين بها ، وتكون أداة للآخرين في حربهم النفسية وغسل أدمغة الناطقين بها .

---

(1) عن نبيل علي عن جاك دريدا في ندوة عقدها بالمجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة -- مايو 2000 ، ندوة قضايا اللغة العربية في عصر الخوصبة والعولمة (9-1423/7/12هـ 16-2002/9/19م) ، اتحاد المجامع اللغوية العلمية العربية بالتعاون مع مجمع اللغة العربية الأردني ، ص 45 .

(2)Colonization, Globalisation and the Future of Languages in the Twenty-First Century, pp. 1. – Salikoko S. Mufwene, Univ. of Chicago, Footnote 1

وليس للغة فَضْلٌ في ذاتها[1] وإنما تتباين اللغات في منازل الفضل بمحمولاتها ؛ فإذا كانت اللغة لساناً لنص مُقَدَّس أو مُقَدَّم احتملت الفضيلة من هذه الجهة وهذا بعض شأن العربية ، مثلاً . وإذا كانت لساناً لإبداع معرفيّ احتملت الفضيلة من هذه الجهة أيضاً وهذا شأن كثير من اللغات في حقب متعاقبة . وإذا اقترنت بفرص واعدة لقيت إقبالاً واعتباراً وسيرورة وانتشاراً . وقد كان ذلك شأن الإنجليزية في العالم الجديد ؛ إذ تراجعت أمامها ألسنة دارجة (Vernacular) أخرى لم تكن تقلّ عنها شأناً في المستوى التعليمي للناطقين بها كالألمانية والفرنسية والإيطالية . وما يزال هذا العامل الاقتصدي يمنح الإنجليزية مزيّة ، وما يزال يُلْحِق الضيم بالعربية في هذا الزمان على أنحاء شتّى .

وإنّما هذه أمثلةٌ وحسب للتصريح بمنهج المقاربة في هذا البحث وبعضُ بيانٍ عن المراد بالبعدين : **البِنْيَويّ والبَيْنيّ** .

ويحسن أن ننتصف لعامل آخر في تسويغ هذا الضرب من البحث . والقياس هنا مع الفارق كما يقول المناطقة . فقد لقيت العربية في تاريخها الطويل أحوالاً وأهوالاً بغلبة الأمم على أهلها وتنقُّص شأنها ، وتراجُع منزلتها ، وتفضيل اللغات الأخرى عليها ، وغلبة الضعف فيها لدى الناطقين بها على النحو الذي تمثله حكاية أسد بن جاني عند الجاحظ و على النحو الذي صَدَّرَ به ابن منظور لسان العرب ، وعلى النحو الذي وصفه ابن خلدون في المقدمة . إن من المفارقات الحقيقة بالاعتبار أنه في تلك الظروف التي شرحوها – وهي ظروف مناظرة لحال العربية في هذا الزمان – أنجز الثلاثة في أدب العربية وتراثها العقلي ، والمعجمي ، والإبداع المعرفي بها أعمالا عظيمة حيّت بها العربية على الزمان ؛ إذ وضع الجاحظ مؤلفاته التي تعلم الأدب والعقل حتى اليوم ، ثم كان عَمَلُ ابن منظور ، ولا

---

(1) إنه حتى اللهجة وهي فرع اللغة تتعاورها هذه الشروط . فد تكون اللهجة في حال العربية مفضولة قياسا إلى الفصحى لدى القومي (إذ يراها رمزاً للجهوية) والتراثي (إذ يراها انسحابا من الماضي ونأيا عن المقدّس) بل تكون الدعوة إليها نذير تمدد يؤذن بفرط عقد الأمة إذا جاءت من الآخر . ولكن اللهجة في نطاق شرط خاص تماماً قد تكون مفضلة لا مفضولة . فهي تنويع ثقافي ذو خصوصية لدى اللسانيين الاجتماعيين المعنيين بحقوق الإنسان اللغوية ، وهي سمت لغوي حميمي يحمل رجع صخب الطفولة وحكايات الجدات ، من بعد معين ، بل تصبح اللهجة ضرورية في حالات إبداعية خاصة حتى في العربية –لا نعني بالضرورة ما يراه بعض النقاد من محمولاتها الإبداعية في القديم والحديث وقد ألمحنا إلى بعض ذلك في سياق البحث– بل تريد على التعيين عملا دراميا إبداعيا هو التغريبة الفلسطينية لوليد سيف وهو مبدع بالفصحى ينشئ بها نسيجا لغويا يطاول أساليب الكتاب الكبار من المترسلين بمضمون موروث كأنه معاصر وذلك في أعماله الدرامية التاريخية ، ولكنه اتخذ اللهجة العامية الفلسطينية لسانا للتغريبة الفلسطينية فكانت اللهجة بذلك شاهداً واقعياً تاريخياً على وجود حقيقي حاول الآخر إنكار وجوده ابتداءً .

يزال ، عاملاً فذاً حيّاً إحيائياً بعد كل تلك القرون ، ولا يزال عمل ابن خلدون في المقدّمة عملاً علميًا "خارقا" حتى ليؤرّخ به بعض المفكرين اليوم بداية عصر النهضة . وليست هذه مصادرة على مقولة هذا البحث ولا هي بدعوى فضل له مهما يكن ، ولكنني :

تَذَكَّرْتِ والذكرى تهيجُ لِذي الجَوى ومِنْ عـــادة المحزون أَنْ يَتَذَكَّـــرا

في المصطلح

أما **العربية** فهي العربية التي وُضِعَت أو وُصِفَت على مثال لغة القرآن بقراءاته وبعض الحديث الشريف ، والشعر الجاهلي والإسلامي والأموي وخطب البلغاء ، وكلام العرب وأمثالهم ، بمحددات النقاء في إطار عصور الاحتجاج . هي العربية التي كانت لغة الشعر العربي العمودي قديما ولغة أعلام النثر ولغة المؤلفات الموضوعة في علوم القرآن والحديث وعلم الكلام والفلسفة والتاريخ والاجتماع . وهي لغة الشعر العربي الحديث العمودي والحرّ ، ولغة القصة القصيرة والرواية والمقالة والخطاب الثقافي والمعرفي في المجلات الثقافية والمتخصصة هذه الأيام ، وهي لغة الصحافة والإذاعة المسموعة والمرئية في نشرات الأخبار وتقارير الاستطلاعات الأنثروبولوجية والكشوف العلمية والأفلام الوثائقية والتسجيلية والدراما التاريخية . إنها العربية التي يقدّر سواء الناطقين بالعربية – بالحدس- أنها الفصيحة المغايرة للهجات العامية المحكية المعاصرة على اختلافها .

وأما **العصر الحديث** فهو ما اصطلحنا عليه بعصر النهضة عامّة ولكنه عصر العولمة في حدّه الزماني الممتد منذ بضعة عشر عاماً حتى الآن في سياق هذا البحث . إذْ هو يُشْبِه أن يختزل أسئلة العربية في العصر الحديث جملة ، ويستحدث معها أسئلة إضافية ملحّة مصيرية خاصة تؤول إلى ثنائية الثبوت والتحوّل .

وأما **الثبوت** فهو ثبوت البناء المستمر الذي يجسد التواصل المنفتح بين الصُوَر التي اتخذتها العربية على تعاقب العصور . وهو ضدّ الجمود السكوني ، وهو قسيم الانقطاع الذي عَرَض للغات الأخرى في دورتها على الزمان ، وهو ثبوتُ عمودِ صورةِ العربية وهيكل بنيتها ، هو الثبوت الذي يكون معه شعر المتنبي والجواهري يُقْرآن على مستوى واحد من الوضوح والجمال ، ويكون معه شعر البحتري وأحمد شوقي على حد سواء في قرب المتناول لدى المتلقي ، وهو الثبوت الذي يستطيع معه الطالب العربي في الكتاب المدرسي أن يتناول النص القرآني والحديث الشريف وخطب البلغاء والمقالة الأدبية والثقافية والرواية والقصة القصيرة وهو يشعر أنها تنتمي إلى بنية لغوية واحدة تقوم على نظام جامع مشترك من الأحكام . وهو الثبوت الذي يَفْسَح للحراك الداخلي المستجيب لدورة العربية على الزمان في تطور المعجم وتجدد الأساليب ، ويُبْقي على المنظومة الصوتية والصرفية

والنحوية نموذجاً مستمرا يستثمر قواعده المحدودة ويستعملها على الزمان استعمالاً مفتوحا غير محدود . ومثاله المشخّص من هذه الجهة عربية الجاهلية وعربية القرآن ، إذ هما لسان عربي واحد مع أن القرآن قد نقل كثيراً من الألفاظ الجاهلية إلى معان إسلامية كما أنّه تميز بفرادته الأسلوبية .

وهو يؤول إلى معناه المتعارف في عناصره اللغوية الأولى ، ومفادها – بتأويل قريب– أن لا تُزايـل[1] اللغة العربية مقام الصواب[2] فتظل مشدودة إلى عمود صورتها التي رسمها الوصف التاريخي برباط وثيق [3] .

وأما التحوّل فيتنوّعُ المراد به هنا تنوُّعَه في أصل المراد به في اللغة ، فقد يكون انتقالا من موضع إلى آخر [4] كالذي نشهده من انتقال العامية من مواقع المشافهة إلى مواقع الكتابة (في بعض الإعلانات وحواشي بعض الفضائيات ورسائل الهاتف المحمول والبريد الإلكتروني) . وقد يكون تغيّرا [5] في العرَض دون الجوهر لسانيا كالذي وقع لمعجم العربية بين الجاهلية والإسلام وعبر القرون .

وقد يكون تغيّرا جزئيا في بنية اللغة نظامِها النحوي كما في صُوَر اللَّحْن والأخطاء الشائعة . ومن أمثلتــه الفاقعة تحوُّل تركيب الإضافة من نسق (المضاف فالمضاف إليه ، –مقهى القرية) إلى (المضاف إليه فالمضاف – القرية كافيه) .

وقد يكون التحوّل انتقالاً من النقيض إلى النقيض جزئيا كما في الانتقال بحقل معرفي كالعلوم والتكنولوجيا من العربية إلى الإنجليزية ، وهو تحوّل باللغة يفضي إلى انحسار مجالها الحيوي . وقد يكون هذا الانتقال من النقيض إلى النقيض كلياً [6] كما في التحول من الحضور إلى الغياب ومَثَلُه موت العبرية قديماً[7] ، وهو الذي يذهب إليه هاجس الإشفاق في منتهاه هنا . ونظيره انتقال اللغة انتقالاً يفضي إلى انقطاع الصلة بين صورتها في حقبة سابقة وصورتها في حقبة لاحقة كالذي عَرَضَ للإنجليزية ، مثلا .

---

(1) الثابت في مكانه مَنْ لا يفارقه . اللسان (ثبت) .

(2) وقول ثابت : صحيح . اللسان (ث ب ت) .

(3) الثبات سير يشدّ به الرّحل . وفي حديث مشورة قريش في أمر النبيّ (ص) ، قال بعضهم : إذا أصبح فأَثْبِتوه بالوَثاق . اللسان (ثبت) .

(4) والتحوّل : التنقل من موضع إلى موضع . اللسان (حول) .

(5) في حديث ابن أبي ليلى : أُحيلت الصلاة ثلاثة أحوال أي غُيّرت ثلاث تغييرات أو حوّلت ثلاث تحويلات . اللسان (حول) .

(6) وفي الحديث : من أحال دخل الجنّة ؛ يريد من أَسْلَم . لأنه تحول من الكفر عما كان يعبد إلى الإسلام . اللسان (حول) .

(7) إذ إنّها لم تكن – قبل إحيائها– لغة أُمًا لأحد ولم تكن لغة تداول في الحياة اليومية .

فقد تحولت الإنجليزية منذ القرن التاسع إلى القرن العشرين تحوّلات أربعة جذرية تمثّل حقباً أربعاً في تاريخها . ومثالنا المشخّص هنا ، كتاب بدي (Bede) : تاريخ الكنيسة الإنجليزية والشعب الإنجليزي ، الذي كُتِبَ باللاتينية واستُكْمل سنة 731 ، فإنه تُرْجم إلى الإنجليزية ترجمات أربعاً ؛ كانت أولاها في القرن التاسع ، وكانت الثانية في القرن الرابع عشر ، وكانت الثالثة في القرن السادس عشر ، وكانت الرابعة في القرن العشرين . ويبدو للناظر في نماذج من هذه الترجمات أنّ الإنجليزية في كل حقبة تشبه أن تكون غيْرَها في الحقبة اللاحقة [1] .

وقد يتعلّق التحوّلُ بمنزلة اللغة جُملة من الاعتبار ، بالمقارنة مع اللغات الأخرى . وهو تحوّل لا يتعلّق باللغة في ذاتها وإنما ينجُم عن شروط خارجية تتمثّل في موقف أهلها أو غيرهم منها . ولنا على ذلك مثلان من اللغة الإنجليزية والفرنسية ومنزلتهما هذه الأيام مرموقة بلا جدال وهما من الاعتبار بدرجة فائقة . ولكن الملكة اليزابيث في القرن السادس عشر كانت تأنف أن تتحدث إلى السفراء في بلاطها بالإنجليزية ، ويزدهيها أن تخاطبهم باللاتينية . وجعل (كرومويل) الشاعرَ (ملتون) كاتب سِرّه باللاتينية[2] .

أمّا الفرنسية في القرن السادس عشر فقد كان يُنظر إليها على أنّها لغة فظّة فجّة إذا قورنت باليونانية[3] .

ويقتضيني الاحتراس أن أقرّرها هنا أنّ الثبوت والتحوّل في هذا البحث يتجاوز ما ذهبت إليه في بحثي : اللغة العربية بين الثبوت والتحوّل : مَثَل من ظاهرة الإضافة (حوليات الجامعة التونسية 1976) ؛ إذْ هو بحث نحويّ جزئيّ بمنهج استقرائي موجّه توجيهاً معيارياً ، ويغاير ما ذهبت إليه في كتابي : قضيّة التحوّل إلى الفصحى في العالم العربي الحديث (دار الفكر - عمّان 1987) ؛ إذ هو مشروعُ جَعْل الفصحى لغةَ محادثة في ضوء منهج التخطيط اللغوي . أما هذا البحث فإنه - كما تقدّم- يتناول العربية بتجلّياتها المتنوّعة جملة ، ويَرْقُبها في جدلها مع شروطها بمنظور لساني اجتماعيّ بمفهومه العريض ، وفضاؤه : أسئلة العربية في عصر العولمة ، بأبعادها ومنطوياتها في صيرورة الزمان ، وسيرورة الحال ، وهواجس المآل .

---

(1)Varities of English, by Dennis Freeborn with Peter French and David Langford. Macmillan Education Ltd. 1987, pp. 24.

(2) عن : Language and Nationalism, by J. Fishman. PP. 62

(3) المصدر السابق في الموضع نفسه .

في مراجع البحث

ويسترفد البحث أنماطا شتّى من المصادر والمراجع والمواقع والمقابسات وفاقا لما يقتضيه "مرجع النّظر" .

وإذا كانت العولمة في أحد أجلى مظاهرها قد ألْغَت بُعْد المكان إذ أزالت الحواجز بين الشعوب فإن البحث اللغوي أو البحث في العربية قد سقط عنه حاجز التخصّص الضيّق ، وأصبحت العربية شأنا عامّا يتداول القولَ فيها المتخصّصُ والمعلّمُ والإعلاميّ والعِلْميّ والسياسيّ والاقتصاديّ . بل أسقط المتخصصون أنفسهم جدار التخصّص المغلق وانفتحوا على فضاء الخطاب الثقافي العامّ وأصبحت معالجة المسألة اللغوية تتجاوز المؤلفات اللغوية والدوريات الأكاديمية اللغوية الخالصة إلى المجلات الثقافية والصحافة اليومية والمحطات الفضائية .

وهذا تأويل ما يَرد في مراجع هذا البحث من الإحالة إلى محاورات العِلْميّين ومقالات الإعلاميين وآراء الاقتصاديين . . . الخ .

وهو تأويل ما يَرد في مراجع البحث من الإحالة إلى مقالات اللغويين في الدوريات الثقافية أو الصحافة اليومية أو المساجلات والندوات التلفزيونية . وهو تأويل ما يرد في مراجع هذا البحث من الإحالة إلى مواقع على الشبكة العالمية حيث يتناول القولَ في اللغة خاصّةُ المتخصصين وعامّةُ المتواصلين .

وقد جَرّبنا على أنّ البحث في العربيّة ينبغي أن يفيء إلى المصدر أو الأصل الأوّل ، وكان مفهوم الأصل ، يومذاك ، زمنيًا ؛ إذ السابق هو الأصل ، والفضل للمتقدّم ، فإذا كان شِعْرٌ فليوثّق في ديوان صاحبه ، مثلاً . وما يزال هذا المفهوم ، في جوهره ، قائماً . وقد التزمت هذا النهج ما وَسِعني الشرط الإنساني والزمانيّ ، فإذا قصّر بي عن بلوغ الأصول - مهما تكن- ترخّصت في الأخذ عن الفروع ما كان أصحابها من الثقات والتزمت الإشارة إليهم قبل الإشارة إلى أصولهم عرفانا بالفضل . وهذا تفسير ما اتبعته في بعض الحواشي من الإسناد على مَنْهج المحدّثين تَحَرّجاً ووَضْعاً للأمر في نصابه .

الفصل الأول

العربيّة والنصّ المقدّس

عنوان البقاء

"إنما كلّم اللهُ العَرَبَ على قَدْرِ كلامِهم"

أبو عبيدة مَعْمَر بن المثنّى

يُرْسِل اللسانيون الاجتماعيون قولا مجملا في أمر العلاقة بين العربية والقرآن ؛ فإذا استظهرت عليهم بفرادة العربية في استمرارها على الزمان بضعة عشر قرناً دون انقطاع ابتدروك بالإنباه على ارتباط العربية بالقرآن(1) .

وقد يذهبون إلى التفصيل في تفسير استمرار اللغة المكتوبة على الزمان وقدرتها على مغالبة الصور المتحوّلة عنها من العاميات المتعالية فيتخذون العربية الفصحى مثلا إذ "كانت رَجْعاً خالدا بالقرآن"(2) "تحتفظ بمنزلتها المرموقة المعتبرة"(3) "وما تزال لغةَ التداول المستعملة في معظم المناسبات الرسمية"(4) "مهما تتنوّع اللهجات العربية المعاصرة"(5) .

ويرسل سواء المتعلّمين من أبناء العربية قولاً مجملاً آخر في هذا الشأن من وجه آخر ، فإذا حاورتهم في أمر هذه الظاهرة المستفحلة هذه الأيام من الكلام على حياة اللغات وموْتها قطعوا عليك الطريق بالقول المقتضب : لا وَجْهَ للخوف على حياة العربية ، إنها لن تموت لأنها لغة الدين .

إنّ العلاقة بين العربية الفصحى في صفتها التاريخية والقرآن علاقة عضوية . وذلك أمر مفروغ منه لدى أهل العربيّة مقرّر لدى روّاد اللسانيات العامّة الحديثة ، إذ يقرّر بلومفيلد ، مثلا ، في كتابه (اللغة) - وهو إنجيل اللسانيات لديهم- أن العرب أنشأوا "نَحْواً" للصورة الكلاسيكية لِلُغتهم كما تتجلّى في القرآن (6) .

إن تفكيك هذه العلاقة يقتضينا أو يفضي بنا إلى وجوه من القول تتناول النصّ المقدّس في ذاته ، وتتناول العربية في ذاتها ، وتتناول نسيجاً مركبّاً من شؤونٍ أُخَر : دينيّة وسياسية واقتصادية في سياق الزمان العربي الإسلامي حتى أيامنا هذه .

وهذا بيان القول في واحد واحدٍ من هذا النسيج المركّب .

أما النص المقدس في ذاته فهو محفوظ بالعهـــد الإلهي : ﴿ إنّا نحن نزّلْنا الذِّكْرَ وإنّا له

---

(1) مثل ذلك J. V. Newstupny - ج .ف . نيوستوبني اللساني الاجتماعي المتخصص في اليابانية الأستاذ في جامعة موناش في أستراليا (محاورتي إياه في هاواي ، نيسان 1986) .

(2)Man's Many Voices: Language in its Cultural Context, by Robins Burling pp. 98.

(3) المرجع السابق في الموضع السابق .

(4) المرجع نفسه في الموضع نفسه .

(5) المرجع نفسه في الموضع نفسه .

(6)Language pp. 10

حافظون﴾(1) . وحِفْظُ الذكر - وهو القرآن (2) إنما هو صَوْنه من التغيير والتبديل(3) وأنه "لا يعتريه زيادة ولا نقصان ولا تحريف . . " (4) "في كُلّ وقت"(5) .

وما يزال القرآن محفوظاً على هذا الحدّ حتى على ألسنة المسلمين غير الناطقين بالعربية مّمن يرتّلون القرآن على وفق قواعد التجويد وأصول التلاوة ، فيؤدّونه كما يؤدّيه القرّاء المجيدون حتى دون أن يكون من يرتلونه يعرفون العربية(6) .

إنّ حِفْظ القرآن على هذا الحدّ لا يحتمل المِراء إلا ما كان من المستشرقين . ولعلّ آخر ما صَدَرَ عنهم في هذه السبيل ما جاء في كتاب المستشرق الألماني كريستوفر لوكسنبرغ : القراءة السريانية الآرامية للقرآن - مساهمة في تفسير لغة القرآن ، فإنه - وإنْ أقَرّ بأن القرآن مَصْدَره إلهي(7)- قرّر أنّه قد "مَسَّه التغيير"(8) "بسبب القراءات الخاطئة وعملية التنقيط"(9) .

وهو قول مدفوع بدليلين عقليين ودليل نَقْليّ : أما الدليلان العقليان فأوّلهما لسانيٌ حاسم يُسْعِدنا به تشومسكي وهاله في كتابهما : نمط الصوت في اللغة الإنجليزية(10) ، إذ يقرران أن النظام الكتابي إنما يُوضَع لقوم يعرفون لغتهم . إنّ مَنْ يعرف لغتَه سليقةً - وقد كان هذا شأن العرب الذين نزل القرآن بلغتهم وكلّمهم الله على قدر كلامهم- إن من يعرف لغته هذه المعرفة ويكتسبها في سياقها من الناطقين بها ويستدخل مَرْجعَ الفَهْم المتحصل بالخبرة المشتركة يكفيه أي نظام كتابي متعارف ليقرّر الوجهَ المراد حين تتعدد الاحتمالات . وحسبنا أن نستحضر ما يتعارف عليه الناس من قدرة الصيادلة على قراءة خطوط الأطباء بكل ما قد تتسم به من إغفال النقط واختزال الكلم بل رداءة الخط .

وإنما مرجع ذلك إلى أن الفريقين يفيئان إلى منظومة معرفية مشتركة مُحَصَّلة بالدربة والتعلم .

---

(1) الحجر 9 .

(2) تفسير القرآن العظيم لابن كثير 745/2 .

(3) المصدر السابق 745/2 .

(4) البحر المحيط لأبي حيان 468/6 .

(5) الكشاف للزمخشري 399/3 .

(6) وهذا مّما وَقَفْتُ عليه بالخبرة المباشرة في جزر المالديف ، مثلاً .

(7) القراءة الفيلولوجية للقرآن -حوار مع كريستوفر لوكسنبرغ أجراه كريستوف بورغمر ، ترجمة رشيد بوطيب ، مجلة فكر وفن ، العدد 81 ، ص48 .

(8) المرجع السابق في الموضع المتقدم .

(9) المرجع نفسه في الموضع المتقدم .

(10) The Sound Pattern of English pp. 49

وينضاف إلى هذا ما شهده الرسم القرآني من إعجام وضبط على وفق حاجة العرب التي نجمت بابتعادهم عن أزمان السليقة ، ومعنى هذا أن العرب حين بدأوا يستشعرون احتمال الخروج بالنص القرآني عن صورته المُنْزَلة أحاطوه بالتدابير المنهجية التي تدفع أي احتمال من هذه الجهة .

وهذا متصل بما قدمنا من العلاقة بين نظام الكتابة ومكتسب اللغة بالسليقة .

وأما الدليل الثاني فمستفاد من واقع العربية هذه الأيام . إنّ جُلّ ما يكتب بالعربية اليوم غير مشكول ، فهو حمّال للوجوه ، ولكن جمهور أهل العربية ، مع ذلك ، لا يُجْمِعون على خطأ . إنهم يكتشفون اللحن والخطأ في الضبط إنْ وَقَعَ مِنْ أحدهم ، ولا يملك لَحْنٌ أو خطأ أو تصحيف أو تحريف أن يكون نافذاً يأخذ به أهل العربية جميعاً ، فكيف إذا كان المقروء هو النص المقدس؟

وأما الدليل النقلي فهو ما أُثِر عن القرّاء ؛ إذ كان رسم القرآن أحد أصولهم الثلاثة التي هي معيار صحة القراءة فلم يغفلوا عن احتمالاته في ترك إثبات الألف وتعدد وجوه الإعجام والضبط والإعراب . . . وكانت اختياراتهم في توجيهها مُنْبِئة عن بصائر تؤنس بالتحقيق المنهجي المنسجم مع مقتضيات العهد الإلهي بحفظ الذِّكر[1] .

وأما العربية فهي لسان الذِّكر : فالقرآن عربي[2] ، نزل بلسان عربي مبين[3] ، ونزل على سنن العرب في كلامها ، نزل بلسان الرسول (ص) ولسان قومه[4] "إذ كانوا عربا"[5] "فكان القرآن بلسانهم ليفهموه"[6] "لا يلتبس عليهم شيء منه"[7] . وهو عربيٌ بالآيات المتواترة على وجه الإثبات[8] وهو عربي بالنفي الصريح لأن يكون أعجمياً[9] .

والقرآن هو الذي ارتقى بكلام العرب إلى منزلة اللغة المعتمدة ؛ ذلك أن وصف العربية وتقعيدها وعلومها جميعا قد أُنجِزَتْ - بعد تحوّل السليقة وتسرُّب اللحن - في المقام الرئيس ، لدواعي أداء القرآن أداء صحيحاً ، ذلك هو شأن علم أصوات العربية ، وصرفها ، ونظمها ، وإعرابها ، ومعجمها ،

---

(1) ينظر في استقصاء هذه التوجيهات : حجّة القراءات لابن زنجلة بتحقيق سعيد الأفغاني .
(2) يوسف 2 ، وطه 113 ، والزُّمَر 28 ، وفصلت 3 ، والشورى 7 ، والزخرف 3 .
(3) النحل 103 ، والشعراء 195 .
(4) البحر المحيط ، 189/8 .
(5) تفسير الطبري 464/8 .
(6) المصدر السابق 457/6 .
(7) الكشّاف 366/5 .
(8) يوسف 2 ، وطه 113 ، والزُّمر 28 ، وفصّلت 3 ، والشورى 7 ، والزخرف 3 ، والنحل 103 ، والشعراء 195 .
(9) فصّلت 44 .

وغريبها ، بل إن البلاغة قد نشأت لمثل هذا الشرط وعلى نحو إضافي إذ كانت تقصد في المقام الأول لبيان إعجاز القرآن .

وقد انطوى وَصْفُ العربية –بما هي لسان التنزيل– على بُعدين : قومي وإنساني ؛ ذلك أنه كان وصفاً ائتلافيا للهجات عربية مختلفة فاستوعب المشترك بينها كما استوعب السمات الخاصة التي كانت تنفرد بها لهجة دون سائر اللهجات ، وكان ذلك منسجما مع التوسعة التي شرعها الأثر الشريف : أُنزل القرآن على سبعة أحرف . وقد كان هذا التدبير الائتلافيّ للهجات تعبيراً عن تدبير ائتلافي سياسيّ يتجاوز بالعرب وحدة القبيلة إلى منظومة القومية ومفهوم العروبة وفكرة الأمّة .

وكان وصف العربيّة ، أيضاً ، موجّها إلى غير العرب ممّن دخلوا في الإسلام ، وكانت العربية لغة الدين والدولة فأقبلوا على تعلّمها ، واتّسق وصف العربية بذلك مع غاية الرسالة التي تجاوزت "العرب" إلى "العالمين" .

وكان انتشار الإسلام عاملاً رئيسا في انتشار العربية[1] .

ومَثّل القرآن والإسلام والعربية ثالوثاً عضويّ الارتباط . واجتمع لهذا الثالوث مدد من قوّة الدولة الإسلامية فوقع لها "الغَلَبُ على الأمم"[2] "وهجر الأمم لغاتهم وألسنتهم في جميع الأمصار والممالك"[3] . وحين ظهرت النزعات القومية وعملت على استعادة ألسنتها انحسرت العربية بما هي لغة تداول واستمر الإسلام ؛ ذلك أن الأمم التي عادت إلى ألسنتها الأصلية قد أقامت على الإسلام ديناً بكتابه المقدس .

وَمَضَتْ العربية على الزمن متنازَعةً تتجاذبُها قوى ارتباطها بالدين وقوى المتغلّبين من سائر الأمم "فلمّا تملّك العجم من الديلم والسلجوقية بَعْدَهم بالمشرق ، وزناتة والبربر بالمغرب ، وصار لهم المُلك

---

(1) ينظر في وجوه العلاقة بين انتشار الدين وانتشار اللغة ونظامها الكتابي :

-Religious Factors in Language Spread, by Charles Ferguson, in Language Spread (Studies in Diffusion and Social Change) edited by Robert L. Cooper, Indiana Univ. Press - Bloomington in Cooperation with Center for Applied Linguistics -Washington D.C. 1982, pp. 95.

- Language Spread: The Ancient Near Eastern World, by Herbert H. Paper و

في المرجع المتقدم ص116.

(2) المقدمة لابن خلدون 675 .

(3) المصدر السابق في الموضع المتقدّم .

والاستيلاء على جميع الممالك الإسلامية فسد اللسان العربي لذلك وكاد يذهب لولا ما حفظه من عناية المسلمين بالكتاب والسنّة اللذين بهما حُفِظ الدين"[1] .

"وصار ذلك مُرجِّحا لبقاء اللغة المُضَرِيَّة من الشعر والكلام ، إلا قليلا بالأمصار ، عربيةً . فلمّا ملك التتر والمغول بالمشرق ، ولم يكونوا على دين الإسلام ذهب ذلك المرجّح وفسدت اللغة العربية على الإطلاق ، ولم يَبْقَ لها رَسْمٌ في الممالك الإسلامية بالعراق وخراسان وبلاد فارس وأرض الهند والسند وما وراء النهر ، وبلاد الشمال وبلاد الروم ؛ وذهبت أساليب العربية من الشعر والكلام إلا قليلا يَقَعُ تعليمه صناعيًا بالقوانين المتدارسة من علوم العرب"[2] "وربما بقيت اللغة العربية المُضَرِيّة بمصر والشام والأندلس والمغرب لبقاء الدين طالبا لها ، فانحفظت بعض الشيء"[3] .

وكأنّ التحوّل الذي كان يجري على العربية وتغوّلَ "الآخَر" عليها كان يستنهض الجهود لحفظها حفظاً للذكر والسنة . يقول ابن منظور في مقدمة اللسان مبيّنا غايته مِنْ وَضْعِه بِجَمْعِ الأصول الخمسة[4] : فإنني لم أقصد سوى حفظ أصول هذه اللغة النبوية وضبط فضلها ، إذ عليها مدار أحكام الكتاب العزيز والسنة النبويّة ؛ ولأنّ العالِم بغوامضها يعلم ما تُوافِق فيه النيّة اللسان ويخالف فيه اللسان النيّة ، وذلك لما رأيته قد غلب ، في هذا الأوان ، من اختلاف الألسنة والألوان ، حتى لقد أصبح اللحن في الكلام يُعد لحنا مردودا ، وصار النطق بالعربية من المعايب معدوداً . وتنافس الناس في تصانيف الترجمانات في اللغة الأعجمية ، وتفاصحوا في غير اللغة العربية ، فجمعت هذا الكتاب في زمنٍ أهلُه بغير لغته يفخرون . ." .

وما أشبه الليلة بالبارحة! فكأنّ ما بسطه ابن خلدون من تقلب الأحوال بالعربية ، وما وصفه ابن منظور من حال العربية في زمانه يترجم عن تقلّب الأحوال بالعربية في زماننا . وتبقى العروة الوثقى بين الإسلام والعربية هي الحمى الذي يلوذ به أهل العربية حفاظا عليها قديما وحديثا ؛ إذ كانت هذه العروة الوثقى هي التي لاذ بها العرب في مواجهة الفَرْنَسة في الجزائر ، وكان حجة للثورة العربية على التتريك في العصر الحديث ، إذ جاء في منشور الثورة العربية الكبرى الأول في 26 حزيران سنة 1916 "وأما ما خصّوا[5] به العرب ولغتهم من الاضطهاد فهو أعظم ما جنوْه على

(1) المقدمة لابن خلدون ص 676 .

(2) المصدر السابق ، ص 676 ، 677 .

(3) المصدر نفسه في الموضع نفسه .

(4) وهي التهذيب للأزهري والمحكم لابن سيده والصحاح للجوهري وحواشي ابن برّي على الصحاح والنهاية لابن الأثير .

(5) أي الطورانيون المتعصبون في أواخر الحكم التركي .

الدين والدولة من الفساد . حاولوا قتل اللغة العربية في جميع الولايات العثمانية بإبطالها من المدارس ومن الدواوين والمحاكم ؛ وأصدروا في ذلك أوامر كثيرة لقيت من مبعوثي العرب معارضات شديدة ، ونفّروا عنها في كتبهم الجديدة . وألفوا لذلك الجمعيات الكثيرة ، ولا يخفى أنَّ قتل اللغة العربية قتل للإسلام نفسه"(1) .

ولكن اقتران العربية بالإسلام في التاريخ قد اتخذ بُعداً إضافياً (اقتصاديا) ؛ وذلك أن انتشار الإسلام على يد التجّار في أصقاع نائية كأرخبيل الملايو(2) ، وعلى أنحاء أُخَر ، قد هيأ لها امتدادا في لغات شتّى(3) . وهو امتداد يغبطها عليه أو يغتاظ له سابير (4) (Sapir) إذ يقرر أنها تغلغلت في معاجم اللغات الأخرى وهي مزية لم تكن أتيحت للإنجليزية حتى زمانه (مطلع القرن الماضي) وهو زمن امتداد الإمبراطورية البريطانية .

وإنما يعنينا هنا أن نتوقف إلى أثر هذه العلاقة في تعلم العربية – وهو عامل مهم في بقائها واستمرارها لدى الأمم الإسلامية غير الناطقة بالعربية .

ونقع العبارة عن هذا لدى (سميث-Smith) بقوله : إنها اللغة العربية التي اختارها الله لِوَحْيِه والتي يجب أن يتعلّمها كُلّ مَنْ يمتثل لإرادة الله على بيّنة(5) . أما الشيخ عناية الله فيعبّر عن هذا

---

(1) مقدمة لدراسة اللغة وهوية الأمة لناصر الدين الأسد ، في : النهوض العربي ومواكبة العصر ، مراجعة وتقديم صلاح جرار ، مؤسسة عبد الحميد شومان ، عمّان – الأردن ، 2005 ، ص28 ، 29 .

(2) ينظر مثلاً : الألفاظ العربية المقترضة في الملايوية : تطورها ومصيرها في عصر العولمة ، لمجدي حاج إبراهيم ، مجلة اتحاد الجامعات العربية ، العدد 44 ، ذو القعدة 1425هـ – كانون الأول 2004 ، ص134 .

(3)- Arabic Loan-Words in Malay (A Comparative Study), by Muhammad Abdul Jabbar, Kualalumpur. 1399 A.H. / 1979 A. D. pp. xv

- Etymological List of Arabic Words in English, و
By Walt Taylor, The Egyptian Univ., Cairo, Noury Press 1934

- Arabic Words in English, by W. Taylor, Oxford, Clarendon Press,1933 و

- The Historical Background to the Naturalization of Arabic Loan-Words in Hausa, by M. Hiskett, in African Languages Studies VI, School of Oriental and African Studies, Univ. of London 1965. و

(4) ينظر في ذلك فصله الموسوم بـ (كيف تؤثر اللغات بعضها في بعض – من كتابه (اللغة - مقدمة لدراسة الكلام)
How Languages influence each other
Language: An Introduction to the Study of Speech, New York. First Edition 1921, Then 1949

(5) Arabic: Significance in Arab Muslim Society, by Anwar G. Chejne, in The Middle East Journal, vol. 19, No. 4 pp. 455

المعنى بقوله : لا يبلغ المرء من الإسلام تمام الفهم إلا بالعربية ؛ وإن علينا – لكي نفهم الفكر الإسلامي الذي يسيِّر حياتنا ، والمعتقدات الدينية المقدسة ، وأصول الدين وقيمه – أن نفيء إلى العربية التي هي مستودع العلوم الدينية الإسلامية(1) .

وما فتئ ارتباط العربية بالنص المقدس عاملاً فاعلاً في امتدادها في البلاد الإسلامية الناطقة بغير العربية .

فإذا اتخذنا ماليزيا مثلا وجدنا اعتناءها بالعربية في مستويات متنوعة ؛ إذ إنها تعلم العربية في المدارس ، وتُخصص للتخصص في اللغة العربية وآدابها أقساماً أكاديمية في الجامعات كما في جامعة فترا -Putra والجامعة الوطنية والجامعة الإسلامية العالمية وجامعة ملايا . وقد أنشأت بعض هذه الجامعات برامج للدراسات العليا في اللغة العربية وآدابها كما يتجه بعضها إلى إنشاء مثل هذه البرامج(2) ، وتدأب ماليزيا على إيفاد الطلبة إلى الجامعات العربية لهذه الغاية .

وتتمثل هذه العناية باللغة العربية ، ابتداء ، كما يصرح بها القوم أنفسهم في مؤلفاتهم التعليمية الموجهة إلى التلاميذ مباشرة ، في أنها لغة القرآن ولغة العبادة ولغة الدين الإسلامي(3) ، ومفتاح السعادة في الدنيا والآخرة(4) ، وأن "تعلم العربية وسيلة لفهم القرآن الكريم ومبادئه السامية"(5) . وإذا كان صحيحاً أن المسلمين من غير العرب يستطيعون الاتصال بالقرآن من خلال الترجمة فإنه "من الصحيح أيضا أن القرآن الكريم قرآن بلفظه ونصه . إن إعجاز القرآن اللغوي يجعل من ترجمة ألفاظه أمراً فوق طاقة البشر كافة"(6) .

ويظهر جليّاً في كتب تعليم اللغة العربية في تلك البلاد أنها ترى في العربية لغة "دين" و"دنيا" في آن معاً . إن النظر في تفاصيل الدروس التي تشتمل عليها تلك الكتب ينكشف عن أنها تُعلِّم العربية للتعبير عن الواقع المعاصر ؛ إذ إنها تتناول صفة تلك البلاد في طبيعتها وخصائصها كما

---

(1) المرجع السابق في الموضع المتقدم .

(2) وهو ما وقفت عليه في أثناء زيارتي لجامعة فترا Putra -في المدة الواقعة من 20-2005/11/27 لتقويم برنامجها في تخصص اللغة العربية وآدابها .

(3) اللغة العربية الاتصالية للسنة الرابعة من المنهاج التكامل للمدارس الثانوية ، تأليف سيد عمر السقاف ويزيد كجيك ومحمد عبد الرحيم محمد عبد الرحمن وتحرير داود بن حميد ، كوالالمبور 1996 ص187 ، 188 .

(4) اللغة العربية الاتصالية للسنة الثانية ، تأليف محمد زكي بن مت ومحمد شكري بن حمزة وإدريس بن عبد الله ؛ وتحرير حسب الله بن (أبي بكر) وداود بن حميد وشريفة مجدة بنت سيد أحمد ، ص 17 .

(5) المرجع المتقدم : اللغة العربية الاتصالية للسنة الرابعة ، في الموضع المشار إليه .

(6) المرجع نفسه في الموضع نفسه .

تتناول قضايا الحياة الإنسانية المعاصرة ووجوه استعمال العربية في شؤون الحياة اليومية ، بل يكون البعد التواصلي بمعناه الوظيفي الخالص عنوانا بارزاً يَسِمُ تلك الكتب ؛ فهي تضع العربية مواضعها في دورة الاستعمال ؛ إذ تتناول ضروب النشاط الإنساني في مظاهرها ووقائعها "الحياتية" المختلفة . إنها دروس في العربية للحياة (1) .

بل إنهم يقيمون بعض دروس تعليم العربية على نحو مدهش في المعاصرة إذ يتخذون لأحد الدروس موضوع (الدردشة عبر الإنترنت) ، ويجعلون موضوع الدردشة توبويا يَنْشُدُ مواقع لتعلم اللغة العربية والترجمة الفورية والآلية . . . الخ(2) .

وحقاً أنهم يتمثلون لتعلم العربية دواعي أخر إذ هي لغة علمية ثقافية لها ميراث ثقافي كبير عبر العصور المختلفة وهي لغة عالمية إذ اعْتُرِف بها لغة رسمية في الأمم المتحدة (3) كما يتمثلون لِتَعَلُّمها جدوى اقتصادية(4) .

ولكن لهم في تعليم العربية ، والتخصص فيها وجها آخر جديراً بالاحتفاء يتمثل في هؤلاء المبعوثين إلى الجامعات العربية ؛ إذْ إنّ جُلّ رسائلهم لدرجتي الماجستير والدكتوراه (5) هي دراسات تقابلية بين العربية والملايوية أَجْلَ اكتشاف وجوه الاختلاف والفروق بين اللغتين للتنبؤ بالصعوبات التي يمكن أن يواجهها من يتعلمون العربية منهم ، ينشدون بذلك أن يتخذوا لتعليمها منهجاً متقدما يستثمرون فيه منهج التحليل التقابلي من اللسانيات التطبيقية .

وإذْ نَعْجَب اليوم لِوَلَع المتراسلين بالهاتف المحمول والبريد الألكتروني عندنا باستعمال العبارات الإنجليزية Hi ، Bye ، Okay ، نُعْجَبُ بأن المتراسلين بالبريد الألكتروني في نطاق المؤسسات والشركات الكبرى في ماليزيا حيث يكون المسلمون هم الأغلبية يستعملون بإزاء ذلك (في فواتح رسائلهم وخواتمها . . .) : السلام عليكم ، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، والسلام ، وإن شاء الله(6) .

---

(1) اللغة العربية العالية للسنة الخامسة ، تأليف محمد نصر الدين بن محمد هاشم وجعفر الدين بن فيلوس وعبد الرزاق بن أبو جيك ، كوالالمبور 2004 ، ص 222–223 .

(2) المصدر السابق في الموضع المتقدم .

(3) اللغة العربية الاتصالية للسنة الرابعة من المنهاج المتكامل للمدارس الثانوية ، تأليف سيّد عمر السقاف ويزيد كجيك ومحمد عبد الرحيم محمد عبد الرحمن وتحرير داود بن حميد ص 187–188 .

(4) وحديث ذلك آت في مبحث الاقتصاد من هذا البحث .

(5) ورسائلهم في هذا الشأن موائل في مكتبة الجامعة الأردنية مثلا ، وقد أتيح لي أن أشرف على بعضها .

(6)Communicating at the Workplace: Insights into Malaysian Electronic Business Discourse, by Habil Hadina and Shameem Rafik- Galea in Asian Business Discourse (s). edited by Francesca Bargiela-Chiappini & Maurizio Gotti, Peter Lang AG. European Academic Publishers, Bern, 2005, pp. 131-133

ومن مفارقات هذا الزمان - وإنْ يكن مَرْجِعُها قديما (من تعلّم لغة قوم . . .!!) - أن يتنامى الاتجاه إلى تعلم العربية لدى الآخر قصد فهم الإسلام (!!!) الذي "افتعل" بعض أهل الغرب معه "صراعاً" حضارياً . ولعل تفسير ذلك التنامي ماثل في أعداد الأفراد والمؤسسات التعليمية التي أخذت تُعنى بتعليم العربية في الغرب عامة وأمريكا خاصة . وموقع هذا الموضع على الإنترنت ينتظم ثَبَتاً طويلا بالمدارس والبرامج التي تقوم بتعليم العربية . وهذا الاتجاه - وإن لم يكون جديداً فإن له جذورا متقادمة في الاستشراق- يتجاوز في هذه المرحلة نطاق التخصص المحدود في دوائر جامعية إذ يشبه أن يمثل تياراً عامًا لدى "شرائح" اجتماعية ، أو سياسية عامة لأغراض خاصة[1] .

وقد امتد التنزيل بصورته المحفوظة في مَجالي الاستعمال اللغوي ومجالاته على ألسنة الناطقين بالعربية من العامة والخاصة في العامي والإبداعي ؛ ذلك أنه ظل مددا للتداول اللغوي اليومي ، إذ كان الإسلام - وعنوانه الذكر الحكيم - دينا ومنهاج حياة ، وذلك تأويل ما يجري منه على ألسنة العامة في شؤونهم اليومية بما هو مرجع للقيم والمعاملات وآداب الاجتماع .

ثم إنه كان - وما يزال - يمتد في الخطاب العربي الإبداعي بالاقتباس - على حَدِّه عند البلاغيين - والتناصّ - على حدّه عند لسانيّي النص وتحليل الخطاب ، وذلك تأويل ما نجد من حضوره في شعر القدامى والمحدثين[2] والدراما التاريخية لدى مبدعي المعاصرين[3] .

ولكننا إذ نستأنف القول في أمر العلاقة بين حفظ الذكر وحفظ العربية إنما نريد إلى أن حفظ العربية بما هو صونها من التغيير والتبديل غير مستقيم بإطلاق ؛ إذ إنه لا يماري أحد في أن العربية قد تطورت وتغيرت[4] . وأحترس ، هنا ، بأن هذا لا يعني إثارة أية شبهة حول العلاقة الثابتة الفريدة بين القرآن والعربية ، وإنما هو متعلق بالفرق بين المراد بحفظ القرآن والمراد بحفظ العربية ؛ فالقرآن إلهي وهو

---

(1) علّق الدكتور وليد العناتي على هذا الموضع تعليقا حرفيًا هو : "ولعل الولايات المتحدة تكون أظهر الأمثلة على ذلك ؛ فقد جعل جورج بوش تعلم اللغة العربية أداة مهمّة للحفاظ على الأمن القومي الأمريكي ، في كلمته الافتتاحية في دورة تطوير المهارات اللغوية (نص الكلمة موجود على موقع البيت الأبيض تحت عنوان Education) . كذا كتب الدكتور وليد . ثم جاءني الدكتور وليد بالكلمة ، وهي صريحة في تبرير الدعوة إلى تعلم العربية بهاجس التعرف والرقابة على ما يقوله العرب حين يتخاطبون وإنْ تلفعت بمكر إيهامهم عند التحدث بلغتهم بأنّ ذلك يمثل تقديراً لثقافتهم واهتماماً بهم . وتنظر الكلمة على موقع :

www.whitehouse.gov/news/releases/2006/01/20060105-1.html

(2) وكفى بأثره في شعر محمود درويش ، مثلا ، (الثقافة والمقاومة ، إدوارد سعيد ، ص146) حتى ليصبح التناص بينهما موضوعا تفرد له رسالة جامعية .

(3) وكفى بأثره في "ملوك الطوائف" لوليد سيف ، مثلاً .

(4) اللسانيات واللغة العربية لعبد القادر الفاسي الفهري ، الجزء الأول ص53 .

محفوظ دون تغيير ولا تبديل ، أما العربية فإن الحفظ لا ينسحب عليها بما هو صونها من التغيير والتبديل . القرآن هو المقدس المحفوظ أما العربية خلا النص المقدس فهي ظاهرة إنسانية[1] خاضعة لمتغيرات الشروط ومقتضيات الأحوال عبر الزمان . وحديث ذلك آت .

ولعله ليس من الفضول أن نستعيد هنا أنّ القرآن نفسه – وقد نزل بلسان القوم – تَحَوّل ببعض معجم العرب عن معانيه التي كانوا يتعارفونها إلى معان جديدة . والقول في هذه المسألة معروف متداول ولكنه في هذا السياق ينطوي على دلالة جوهرية .

عرف العرب ألفاظ الصلاة والزكاة والحج والإيمان والإسلام . . بمعان ، ولكن القرآن تحول بتلك الألفاظ إلى معان أُخَر توافق التحول الذي شرعه للعرب واتخذ العربيةَ لسانهم لساناً لذلك التحول[2] .

ومعنى هذا أن اللسان يظل هو إياه بمقومات أصولٍ مشتركة هي عمودُ صورته وإنْ دَخَلَتْه وجوهٌ من التغيير في الفروع بالضرورة . والتغيير على مستوى المعجم يشرعه النص القرآني أو يمنحه مشروعيته بالفعل والأمثلة المشخصة الماثلة فيه . إن التنزيل يقدم نموذجا لهذا الوجه من الثبوت الذي يشرع التحولَ ، ثبوتِ الأصول التي تحفظ أسباب التواصل وتحولَ الفروع التي لا تضير مطلب التواصل ولا تفضي إلى الانقطاع .

وإذن تكون العلاقة بين العربية والنص المقدس من هذه الجهة أن العهد الإلهي بحفظ الذكر قد ترتب عليه بقاء العربية واستمرارها على حالٍ تنفتح معها أسباب التواصل بها على الزمان ، وذلك بما وُضع من علومها خدمة للقرآن ، وبتعلّمها وَفاقا لقواعد تلك العلوم واتباع النموذج اللغوي الذي وُصفَت به لتلك الغاية أول الأمر .

وإنما نستبدل بحفظ العربية بقاءها[3] لما نشهده من وجوه التغير التي أصابتها على أنحاء سنشير إليها فيما بعد .

إن فحص العلاقة بين العربية والنص المقدس تقتضينا أيضا أن ننبه على أمور :

أولها يتعلق بالفرق الجوهري بين القرآن الذي هو إلهي مقدس والعربية التي هي إنسانية . ولا يهولن أحداً أن نقرر أن اللسان العربي المقدس هو الوحي أما كلام العرب وغير العرب من الناطقين بالعربية فليس مقدساً .

فليست العربية ، إذن ، مقدسة بإطلاق كما يذهب إليه بعضهم مِنْ حَمْلِ قداستها على قداسة

(1) نظرية التراث ، لفهمي جدعان ، ص18 ، 19 ، 28 ، 38 .

(2) ينظر في استقصاء هذه الظاهرة : التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن ، لعودة أبو عودة ، ومَراجعُه .

(3) ينظر في تحقيق هذا الفرق : سر بقاء اللغة العربية ، في كتاب (مراجعات لسانية) ، لحمزة المزيني ، الجزء الثاني ص251 .

الوحي جزافاً . وحسبنا أن ندفع هذا المذهب بأن العربية كانت لسان الجاهلية وكانت لسان الزنادقة وأهل المجون ، بل إن العربية تجري بها ألسنة الآخرين ممن لا يؤمنون بالإسلام بل يناصبونه العداء وتكون العربية لسان شبهاتهم وطعنهم وافتراءاتهم فَأَنّى لها أن تكون مقدسة بإطلاق؟ وقد يحسن هنا أن أحترس بأن أقرر أن العربية في ذاتها شأنها شأن سائر اللغات وأنها محايدة حمالة للأضداد ، وهذا يعني أنها قد تكون لسان صدق وخير وإبداع كما هو شأنها في كثير من نصوصها ، ولكنها قد تُسْتَغَلُّ على نحو آخَر مخالف وهو أمر لا يُخْطِئُهُ النظرُ ، وشواهِدُهُ مَوَاثِل .

وثانيهما أن القرآن بما هو إلهيّ -وإن نزل بلسان القوم- مفارق من جهة لافتة : إذ كان لسان التنزيل أعلى مراتب البيان وكان إعجازه من أحد وجوهه "أسلوبيا بيانيا" إذ نزل على قوم اشتهروا بالفصاحة فوقع تحديه إياهم من هذه الجهة . ولكنه كان خطابا عامًا للعرب وفيهم العامة . إن المفارقة تكمن هنا في أن يكون الخطاب المتفرد الأعلى موجها إلى العامة . وهذه المفارقة تنبئ عن فرق بين الإنشاء والتلقي . كان العرب ، في هذا الموقف ، متلقّين وهو ما يستطيعونه فأما الوحي فهو إلهي وبلوغه ، على مستوى الإنشاء ، فوق طاقة العرب والبشر .

ولعل في هذا تأويل ما ذهب إليه ابن خلدون ؛ إذ قرر أن اقتصار أهل إفريقية والمغرب في تعليم العربية على القرآن أفضى بهم إلى "القصور عن مَلَكَة اللسان جُمْلَةً ؛ وذلك أن القرآن لا ينشأ عنه في الغالب مَلَكَة لما أن البشر مصروفون عن الإتيان بمثله ، فهم لذلك مصروفون عن الاستعمال على أساليبه والاحتذاء بها"(1) .

وَيَعْضُدُ مَقولَةَ ابن خلدون ما قدمنا (2) من وجه آخر أننا نجد في أيامنا هذه من يحفظ القرآن ويرتله على وَفْقِ أصول التلاوة وأَحْسَنِ ما يؤديه قارئ ، وهو - مع ذلك - لا يفهمه ولا يَحْصُلُ له بذلك شيء من الكفاية في العربية ولا يُحْسِنُ منها شيئاً يذكر في مواقف التواصل .

على أن تعليم العربية بالقرآن يحفز أداءَ الذاكرة واستدعاءَ الكَلِم مفردةً ومقترنةً بغيرها ، فيما كشفت عنه دراسة أجراها سكرايبنر وكولي (Scribner & Cole)سنة 1981 بين شعب الفاي (Vai) في ليبيريا (3) ، كما أن ترتيل القرآن يحقق للحَفَظَة إبانة في أداء الأصوات صفة ومخرجا ، فيما ينكشف عنه أداءُ مَنْ نشأوا على ذلك (4) .

---

(1) المقدمة ص 1040 . بل إن محاكاته ، على ما ينقل عن مسيلمة ، كانت تفضي إلى أمثلة مضحكة . وينظر في هذه الأمثلة وتفنيدها : ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني ص50 ، 51 .

(2) نريد ما وقفنا عليه في جزر المالديف .

(3) ينظر في الفصل الذي يتناول هذه الدراسة :

- Anthropological Linguistics: An Introduction, by William A. Foley, Blackwell Publishers, 1997.

(4) لعله لا حرج هنا من ذكر أداء أم كلثوم مثلا .

وتمثل ظاهرة اللحن والأخطاء الشائعة علامة ثابتة على التغير الذي كان يجري على العربية وما يزال ، كما تمثل اللهجات الحكية – وإن كانت أصولها لهجات عربية قديمة مما أقيمت عليه صفة الفصحى – علامة على التغير الذي وقع لتلك الأصول .

ولكن النص المقدس ظل على الدوام هو الحافز الرئيس للجهود المتصلة في الإنباه على اللحن والأخطاء الشائعة حفاظاً على صورة العربية كما نزل بها القرآن . ولعل ازدراء بعض أهل العربية للهجات المحكية مرجعه إلى أنها تمثل – في نظرهم وهو نظر فيه نظر من وجه آخر – انحرافا عن الفصحى لغة المقدس حتى لَيَنْفي بعضهم أن تكون لغةً ، أو يعتدّها لغة مشوّهة .

ولعل أبرز مظاهر التحول في بنية النظام اللغوي للعربية يتمثل فيما وَسَمَهُ ابن خلدون باختلاف لغات الأمصار عن اللسان المُضَرِيّ وهو اختلاف اللهجات المحكية في الممالك المفتوحة عن العربية الفصحى في صفتها التي نزل بها القرآن . وإنما نُرْجِع القول في هذه المسألة - وقد تقدمت - لأن ابن خلدون قد أنبه على أن الاختلاف قد تمثل في أن اللهجات أسقطت الإعراب "فإنه تَغَيَّرَ بالجملة ولم يَبْقَ له أثر" (1) .

وقع التغير في العربية ، إذن ، على أنحاء شتى منها سقوط الإعراب ، وفشوّ الأخطاء ، وتنائي اللهجات ، وهَجْر جُلّ المعجم (2) .

ولكن ارتباط العربية بالتنزيل في المقام الأول (إذ تداخل ذلك أحيانا بعامل اقتصادي أو عامل قوميّ – كما يأتي بيانه) ظل يستنفر الجهود – وما يزال – على هذه الأصعدة جميعا . فقد عني أهل العربية بالإعراب حتى كاد يغلب لديهم على النحو(3) ، وشغلوا بتتبع الأخطاء الشائعة والتنبيه على الصواب (4) ، كما عملوا في التماس وجوه القربى بين اللهجات (5) وبين اللهجات والفصحى (6) ، وفي إنشاء المعاجم وإحياء كثير من المهجور (7) .

---

(1) المقدمة ، ص 1055 .

(2) يتنافل أهل العربية أن مواد لسان العرب ثمانون ألفا وأن المستعمل منها زهاء عشرة آلاف .

(3) إحياء النحو لإبراهيم مصطفى ، ص 1 ، 10 .

(4) اللغة العربية وأبناؤها : أبحاث في قضية الخطأ وضعف الطلبة في اللغة العربية لنهاد الموسى ، ومراجعه .

(5) ينظر في هذا جهود عبد العزيز بنعبد الله وبحوثه المنشورة في مجلة اللسان العربي .

(6) ينظر في هذا مثلا : رد العامي إلى الفصيح لأحمد رضا والمحكم في أصول الكلمات العامية لأحمد عيسى ، وبقايا الفصاح لشفيق جبري .

(7) ينظر في هذا مثلا باب النقل المجازي في كتاب (النحت في اللغة العربية) لنهاد الموسى . وهو نهج أخذ به أهل العربية في وضع المصطلحات .

وصفوة القول أن حفظ الذكر بالعهد الإلهي يمثل ضماناً لبقاء العربية في المشهد الإنساني على الرغم من كل ما يتجاذبها في دورة الصراع ونواميس التطور .

على أننا ينبغي أن نحترس[1] من الإطلاق في علاقة اللغة بالنص المقدس ؛ ذلك أنها - كما تقدم - ليست تلقائية . وقد يكون النص المقدس متداولا في التعبد ولكن المتعبدين به لا يحسنون لسانه ولا يحيا على ألسنتهم كما في جزر المالديف وبلدان إسلامية أخرى . وقد ماتت العبرية على الرغم من ارتباطها بنص مقدس بل قول اليهود إنها لغة أهل الجنة . ولكن النص المقدس بما هو لسان العقيدة قد يتخذ مرجعا إذا اندغم الديني والقومي واجتمعت إليهما حاجة حيوية إلى التواصل كما في نموذج إحياء العبرية في العصر الحديث .

(1) من الحق أن أسند هذا الاحتراس إلى الدكتور إبراهيم أبو هشهش فهو الذي أنبه عليه .

الفصل الثاني

العربيّة والتراث

بناء الاصطلاح

"لأول مـرة في تاريخ البشـرية -على ما نعلمه من التاريخ الموثوق به- يُكْتَب للِسانٍ طبيعي أن يُعَمِّر سبعة عشر قرنا محتفظا بمنظومته الصوتية والصرفية والنحوية فيطوّعها جميعا ليواكب التطور الحتميَ في الدلالات دون أن يتـزعـزع النظام الثلاثي من داخله".

عبد السلام المسدّي

لا مراء في أن العربية هي أطول اللغات الحية عمرا ، وأنّ فَرادتها هذه في وجه رئيس آخر مقترنة اقتراناً تلقائياً ، أيضاً ، بالتراث ؛ إذ هي لسانه ومستودعه ، على مدى يمتد بضعة عشر قرنا ، وما تزال تمتد به ويمتد بها حتى يوم الناس هذا .

وإنما نميز علاقة العربية بالتراث عن علاقتها بالنص المقدس دَفْعاً لالتباس سائد . إن الفرق الجوهري الذي يقيمه فهمي جدعان - بلا تحفظ -[1] بين النص المقدس والتراث يمثّل إسهاماً حقيقياً سديدا في جلاء هذه المسألة . ويتمثل هذا الفرق عنده في أنّ التراث منجز تاريخي إنساني أما النص المقدس و "أما الوحي نفسه فهو الإلهي وهو المجاوز للتاريخ"[2] .

وإذن يكون التراثُ كُلَّ ما عدا الداخلَ في حيِّز المقدس من الوحي والثابت من السنة النبوية . فالتراث هو "الشعر" العربي منذ الجاهلية وهو "النثر" العربي بفنونه المختلفة وهو نقد الشعر ونقد النثر ، وهو "علوم اللغة" ومعاجمها ، وهو السِّيَرُ والتواريخ ومعاجم البلدان وكتب الأدب والمعارف العامة ، وهو "علوم الطبيعة والطب والفلسفة والحساب" والجبر و "الهيئة" ، وهو "علم الكلام والتصوف ، وهو علوم التنجيم والسحر والطِّلَّسْمات" ؛ بل هو ما يكتنف النص المقدس من "علوم القرآن وعلوم الحديث والتفسير والفقه وأصوله" ، وهو المترجم عن اليونانية والفارسية والسنسكريتية ؛ وهو "الصناعة والمصنوعات والحرف التي ظهرت في الإسلام" و "القيم والعادات الخاصة ونظم المعيشة التي سادت الحياة في المجتمعات العربية والإسلامية"[3] .

وليس هذا بنافٍ ما بين النص المقدس والتراث - في كثير من مشتملاته - من العروة الوثقى ؛

---

(1) ذلك أنه يقرر بصورة قاطعة أن "القرآن ليس هو علوم القرآن" وهو تقرير ينطوي على كثير من الحق ولكن فيه بعض نظر لأن علم القراءات ، مثلا ، متصل بالنص المقدس اتصالا عضويا لا ينفك ، والذي رسمه علماء القراءات من أصولهم الثلاثة : النقل المتواتر عن النبي صلى الله عليه وسلم وموافقة الرسم العثماني وموافقة وجه من وجوه العربية يجعل القراءات على "اختلافها" أداءات للنص المقدس ، فهي هو ، وهو هي .

(2) ينظر في أطروحته هذه : نظرية التراث ص18 ، 19 ؛ 28 ، 38 وقد ألح على إقامة هذا الفرق في موارد أُخر ، وتنظر محاضرته : المعطيات المباشرة للإشكالية الإسلامية المعاصرة ، المنشورة في : دراسات إسلامية ، جامعة اليرموك 1983 ، ص15 . ومرد هذه الأطروحة الأول كتابه : أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث .

(3) ما جرى تنصيصه من البيان عن مشتملات التراث فهو من نظرية التراث لفهمي جدعان (ص 18 ، 19 ؛ 28 ، 38) ؛ أما سائر ما ورد غير ذلك من زيادة أو احتراس فهو للباحث .

ولكن هذا الفرق إنما يراد به أن التراث - بما هو منجز تاريخي إنساني - يظل خارجاً من دائرة القداسة ، ويظل نسبياً متفاوتا في قيمه الثبوتية .

وإذن يترتب علينا - كما يرى حسين نصار "أنْ نُعْمِل عَيْنَ التمييز في هذا التراث"(1) ذلك أنه "يحتوي على ما كان صالحا لزمانه ولم يعد كذلك في زماننا ويحتوي على ما ينبو عنه الذوق المعاصر"(2) . وهو ينتظم بإزاء ذلك - كما يقرر فهمي جدعان - "حقولاً واسعة من التراث الأدبي والفني والثقافي والعلمي تتضمن عناصر جمالية قوية لم تفقد مع مرور الزمن طلاوتها وسحرها وروعتها"(3) . وهي "تعكس الجانب الخالد من التراث"(4) .

إن هذا الجانب الخالد من التراث يمثل رافدا مستديما لحياة العربية وسيرورتها وبقائها . وتظل علومُ اللغة مراجعَ لتعلُّم العربية وتناقُلها عبر الأجيال ، وأدوات لازمة لفهم النص المقدس ، وهي - وإن كانت نسبية مفتوحة لقراءات منهجية إضافية قد تستدرك عليها وتقترب بها من كفاية الوصف والتفسير - ما تزال تترجم عن جهود وأنظار مبصرة تستثير الإعجاب .

وتظل علوم القرآن وعلوم الحديث والتفسير والفقه وأصوله وعلم الكلام قراءات هادية إلى تدبر النص المقدس مفعمة بالفطن المشرقة وإن تكن - بما هي إنسانية - مفتوحة لقراءات إضافية كما حاوله أصحاب التفسير العلمي للقرآن في الأزمنة الحديثة ، مثلا .

أما التراث العلمي - وإن تخطاه التقدم العلمي الحديث في "قطاعه التطبيقي" خاصة - فيظل موضوعا شائقا للمشتغلين بتاريخ العلوم . إن فحصه فحصاً تفصيلياً قد يستخرج منه بقايا صالحة تتداولها الأجيال العربية على سبيل التذكار وتعزيز الروح العلمية وتحفيزها .

بل إن كثيراً من اتجاهات الإحياء في عصر النهضة - متمثلة في جهود الأفراد والمؤسسات والمجامع - قد عملت في استثماره بنقل بعض مصطلحاته إلى دائرة المصطلحات العلمية الحديثة سعيا نحو تنمية اللغة العربية تنمية ذاتية ، وإذن تكون بقية صالحة منه رافداً لحياة العربية بالقوة على أن بعضها ما يزال متداولا - ولو على نطاق محدود - بالفعل .

والعربية هي لسان هذا التراث جميعا ، على هذا المدى الزماني المتطاول . وهذه - عندنا ولعلها عند غيرنا - مزية .

---

(1) اللغة العربية وتحديات العولمة لحسين نصار ، العربي - العدد 503 - أكتوبر 2000م ، ص25 .

(2) المرجع السابق في الموضع السابق .

(3) نظرية التراث ، ص 31 .

(4) المرجع السابق ص 30 .

وتبلغ هذه المزية ذروتها عند عبد السلام المسدي(1)، إذ يقارن بين حال العربي وغيره من هذه الجهة ؛ فغيرنا "يتحدث عن لغته بما هي الآن، وقد ينتقل إلى الحديث عنها بما هي لغته كما كانت في زمن مضى منذ قرن أو منذ قرون"(2)، أما عندنا فإن "المسافة بين تاريخ لغوي وحاضر لغوي تكاد تنعدم"(3) إذ "ترى التاريخ والحاضر منصهرين : ليسا تاريخا وحاضراً، وإنما هما "التاريخ الحاضر" وهما كذلك "الحاضر التاريخي"(4) أو كما قال .

ويروقنا، طبعا، أن نذهب مع الأقوال المتواترة في هذه المزية . ولنا أن نستأنس، عند ذلك، بأن كتاب تعليم العربية للناشئة في الفضاء العربي ينتظم بثبات قواعد العربية الأساسية في أبنيتها وتراكيبها وأعاريبها وأساليبها كما جاءت في كتب علماء اللغة : النحو والصرف والبلاغة، وينتظم نصوص العربية عبر الزمن على نحو مُحايث ؛ إذ نجد فيه شعر زهير وعنترة والحطيئة وعمر بن أبي ربيعة وجميل بن معمر وقيس بن الملوح وجرير والفرزدق وأبي تمام والبحتري والمتنبي وأبي العلاء والبهاء زهير وابن زيدون . . . إلى جانب شعر البارودي وشوقي ومحمود حسن إسماعيل والسياب ومحمود درويش . ونجد فيه خطبة قس بن ساعدة وخطبة الإمام علي وخطبة الحجاج وأمثال العرب وحكمهم ووصاياهم ورسالة عبد الحميد الكاتب إلى أهله وقصص كليلة ودمنة وحكايات الجاحظ ومقامات البديع . . . إلى جانب رسائل السكاكيني ومقالات المازني وأحمد أمين وأحمد حسن الزيات وطه حسين والعقاد وقصص محمود تيمور ونجيب محفوظ ومقالات أحمد زكي . . ويستوي لدى مؤلفي الكتاب والمعلمين أن يختاروا من هذا كله، بل يستقيم لديهم أن يتخذوا معه من نشرات الأخبار وافتتاحيات الصحف والمقالات الصحفية على تنوعها، وذلك كله في سياق واحد دون أن يجدوا في ذلك حرجاً ولا استهجاناً .

ولنا أن نحتفي بأن كثيراً من "مهجور" المعجم العربي الذي لا يكاد يستعمل حتى في الفصيحة المعاصرة يتخذ مداره في الزمان ويتخطى القرون ليكون "رصيدا" ماثلا للتعبير في تنمية ألفاظ العربية بالنقل المجازي . وما ألفاظ الهاتف والجريدة والقافلة والقاطرة والسيارة والنفّاثة إلا غيض من فيض هذا .

---

(1) فقد تفاوتت العبارة عن هذه المزية ولكنها منعقدة على جوهر مضمونها بإجماع . وينظر في تقرير هذه المزية : أباطيل وأسمار لمحمود محمد شاكر 1/167-168 ؛ ومجلة المعرفة، العدد 178، ص229 ؛ ومجلة مجمع اللغة العربية في القاهرة، الجزء 15، ص127 ؛ وعرب الماء والإنسان لعبد الكريم غرايبة، ص77 .

(2) فن التعبير الشفهي "المحادثة" باللغة العربية ودوره في المناشط اللغوية التي يحتاج إليها الإنسان العربي، الموسم الثقافي الثاني والعشرون لمجمع اللغة العربية الأردني، منشورات المجمع 1425هـ-2004م، ص 94 .

(3) المصدر السابق، ص96 .

(4) المصدر نفسه، ص96 .

حتى إن ترجمة المسلسلات والأفلام مما يتناول شؤونا يوميّة عادية حين اتخذت الفصحى قد استرفدت هذا "المهجور" وأعادته إلى دورة الاستعمال ألفاظا وتعابير أصبحت جارية مألوفة بعد أن كانت قد أُهْمِلَتْ وسُلِكَتْ في المُسْتَهْجَن ونسبت إلى التقعّر (1) .

ولا ينأى المرء عن الحق إذا هو قال في ضوء هذا وأمثاله : كأن زمان العربية دائري يُشْبِه أولُه أن يكون آخرَه ويشبه آخرُه أن يكون أولَه .

ولكن تحقيق هذه المزية يقتضينا أن نراجع المقولات المكرورة في شأنها وأن نتساءل :

- أحقا أن هذا الجيل العربي -على العموم- يُوقِن بهذه المزية ويأْنَس بما تفتح له العربية من هذا الكتاب ، كتاب الزمان العربي الإسلامي؟

- أحقا أن مناهجنا في التناول "التأليفي" و "التعليمي" تَنْقُب عما في هذا التراث من بدائع الفطن وجماليات التشكيل ما يُزَيِّنه لدى الناشئة فَيُشْغَفون به ويَحْتَفُون بما يَرْفِدهم به من متاع عقلي وبصائر معرفية ورؤى خلاقة؟

- أليس حقاً أن في نصوص العربية الأولى من الغريب ما يستغلق على الناشئة ويقتضينا جهدا منهجيا نوعيا وتأويلا مقنعا لجعلهم يتقبلونه على نحو وظيفي أو تاريخي آثاري إن اقتضت الحال؟

- أليس حقا أنَّ جُلَّ موادِّ لسان العرب قد أصبحت مهجورة غير متداولة؟

- أحقا أننا نتخذ في اختيار النصوص ما لا ينبو عن أذواق الناشئة وأفهامهم في زمان أصبح فيه فضاء التلقي مفتوحا على الطريف والشائق والمستلطف من معاني الحياة وتجاربها وأشكال التعبير المتفنن عنها؟ وذلك شأن تربوي وهو شأننا نحن إن شئنا أن نستثمر هذه المزية .

وصفوة القول أن التراث - بما هو منجز إنساني تاريخي- متفاوت في قِيَمه البقائية . ولكن شطرا عظيما منه -على تعاقب القرون- ما يزال صالحاً باقياً بل معاصراً بل مرشحا للخلود ، ويمثل رافدا لبقاء العربية واستمرارها على الزمان .

ويظل فرز هذا الشطر العميم من الباقيات الصالحات ، وتطوير "مناهج" مناسبة لقراءتها ، وتقريب متناولها إلى الناشئة ، واستعمالها واستلهامها ، مطلباً إحيائيا حيويا لتحقيق هذه المزية الفريدة التي تفتح لنا بها العربية كتاب التراث العربي الإسلامي .

---

(1) تنظر أمثلة ذلك في مبحث الترجمة من هذا الكتاب .

الفصل الثالث

العربية والهوية

مرآة الآخر

"هذا الرِّضى الذي أحْصُل عليه من أحاديثي التي تمتد من أكسفورد إلى كاليفورنيا لا يرضيني ، لكن ما يرضيني هو أن أتحدث بالعربية في عالمنا العربي" .

إدوارد سعيد

"إن اللغة التي تُرافِق المرء وتحرّكه حتى أعمق أغوارِ تفكيره وإرادته هي التي تجعل (من الناطقين بها) مجتمعا متماسكا يدبره عقل واحد .

إن الذين يتكلمون لغة واحدة يؤلفون من أنفسهم كتلة موحدة ربطت الطبيعة بين أجزائها بروابط متينة ، وإن كنا لا نراها . إن الحدود التي تستحق أن تسمى حدوداً طبيعية بين الشعوب هي التي ترسمها اللغات" .

فيخته

تنطوي "الهوية" على تقابل ثنائي يفترق فيه مبناها ومعناها . فمبناها مبنى المصدر الصناعي مِنْ "هُوَ" فهي بذلك مُعادِل : ما هو (أو كينونة الآخر) ، أما معناها فهو : ما أنا (أو كينونة الذات) .

وهو تقابل يترجم عن واقع الحال في تداول مصطلح الهوية ؛ ذلك أنها إنما تستعلن لتنبئ عن الذات في مواجهة الآخر ، حتى بطاقة الهوية – وهي رمز الذاتية – فإننا إنما نتعرف بها عند "الآخَر" هو غَيْرُنا .

وإذن تستعلن اللغة عَلَمَ الهوية ورمزَ الذات القومية في إعلانِ "وجود" ينكره الآخر ، ولعل هذا تأويل صرخة محمود درويش : سجِّل أنا عربي . ويصبح إعلانها كالكتابة عند درجة الصفر إذا وقع في سياق الذات نفسها ، ولعل هذا ، كذلك ، تأويل ما يُحْكى أنه استهجن أن يُردِّدها في بيروت .

ويشبه اقتران العربية والهوية أن يكون مرادفا لاقتران النسب بين العرب والعربية بما هي لغة ؛ شأنه شأن اقتران النسب بين الرجل وقومه . "قال الأزهري :

"وجعل الله ، عز وجل ، القرآن المنزل على النبي المرسل محمد ، صلى الله عليه وسلم ، عربيا ؛ لأنه نسبه إلى العرب الذين أنزله بلسانهم وهم النبي والمهاجرون والأنصار الذين صيغةُ لسانهم لغةُ العرب في باديتها وقراها العربية . وجعل النبي ، صلى الله عليه وسلم ، عربيا لأنه من صريح العرب"(1) .

وقد تجاوز الإسلام بالعرب حدود القبيلة إذ زاوج بين النسب إلى القبيلة والنسب إلى "الأمة" ، ويأتلف في الآثار المشهورة عن النبي (ﷺ) انتسابه إلى قريش واسترضاعه في بني سعد بن بكر وانتسابه إلى العرب ، بل إنه مَدَّ في مفهوم النسب إذ أدخل فيه الموالي بقوله : "مولى القوم منهم"(2) وقوله : "الولاء لحمة كلُحمة النسب"(3) .

وتَرْجَم الإسلام حتى في بداياته الأولى عن علاقة خاصة بالعرب من حيث هم عرب . ويتلمس قسطنطين زريق هذه العلاقة متمثلة في شعور عربي عميق حتى في فجر الإسلام حين كان الشعور الديني ما يزال في ذروة عنفوانه ؛ إذ عامل المسلمون بني تغلب وسائر العرب المسيحيين على

---

(1) اللسان (عرب) .

(2) رسالة في النابتة ص 21 ، وينظر فتح الباري 41/12 .

(3) رسالة في النابتة ص 21 .

نحو مغاير تماما لما عاملوا به المسيحيين غير العرب ؛ وأسهمت بعض القبائل المسيحية في الفتوح المبكرة وحاربوا مع المسلمين جنبا إلى جنب[1] .

وقد ائتلف من العرب والعربية والقرآن مُثَلَّثٌ عضويُّ الارتباط . وأفضى انتشار الإسلام إلى توسع العربية وامتدادها . ولكن "العربية هي التي رسمت الحدود الجغرافية البشرية للأمة العربية في نهاية الأمر"[2] .

وتتخذ هذه العلاقة بين العربية من حيث هي لسان والعرب من حيث هم أمة والإسلام بما هو دين أنحاء من التواصل والتفاصل ؛ ذلك أن مبدأها كان نزول القرآن باللسان العربي ، لسان العرب ، قوم النبي (ص.) فاندغم اللغوي والقومي والديني .

وكان اقتران العربية بالإسلام عاملاً في انتشار العربية وتعريب الأمصار كما يستقريه عبد العزيز الدوري إذ "أصبحت المراكز العربية في العصر الأموي أسواقاً للأرياف حولها"[3] ، كما "أن جماعات من الصناع والعمال جاءت إلى هذه المراكز لتوفير الخدمات اللازمة ، وبذلك تعرضت لنمط الحياة العربية وللغة العربية"[4] .

وكان للولاء - وهو نظام جاهلي امتد في الإسلام- دور في انتشار العربية[5] ، كما كان لتعريب الدواوين الذي بدأ به عبد الملك أثر مهم في التمكين للعربية[6] . وقد أسهم استقرار العرب في القرى والأرياف في أواخر القرنين الأول والثاني في تعريب الريف[7] ، كما ساعدت الفعاليات التجارية بين العرب وغير العرب قبيل نهاية العصر الأموي على قيام صلات واسعة ومصالح مشتركة بين العرب وغيرهم ويسرت انتشار العربية[8] .

وهكذا كان امتداد العربية بانتشار الإسلام عاملا في تأسيس الهوية العربية وامتدادها . وقد تهيأ للعرب بهذه الأسباب أن يتميزوا "أمة" ، وتهيأ للعرب بهذا التميز امتيازات على غير العرب تتواتر بها الروايات إلى حد الغلو[9] .

---

(1)The Arabic Language and National Identity pp. 234

(2) التكوين التاريخي للأمة العربية ، عبد العزيز الدوري ، في : دراسات إسلامية ، تحرير فهمي جدعان ، جامعة اليرموك ، 1983 ، ص 163 .

(3) المرجع السابق ، ص168 .

(4) المرجع نفسه ، ص168 .

(5) المرجع نفسه ، ص168 ، 169 .

(6) المرجع نفسه ، ص 169 .

(7) المرجع نفسه ، ص 170 .

(8) المرجع نفسه ، ص170 .

(9) ينظر في هذا : المعجم العربي نشأته وتطوره ص 15-16 خاصة .

ونجم عن هذا التقابل بين العربي والعجمي استعلان الهوية العربية ، وبضدها تتمايز الأشياء ، كما نجم عنه ، في أسباب أخرى ، اعتناء خاص خالص باللغة العربية عنوانا لهذه الهوية(1) .

فإذا بلغنا العصر العباسي أصبح التمايز بين عرب وعجم حَدِّياً ، "وصارت العجم إلى مذهب الشعوبية" أو كما قال الجاحظ(2) .

وكان لظهور حركة الشعوبية دور متنام في بلورة هوية العرب بما هم أمة(3) متميزة . واستعلن هذا التمايز بالمقارنة بين العرب والأمم الأخرى كالفرس ، واليونان ، والهند(4) ، والصينيين ، والترك(5) . بل "يدافع ابن قتيبة عن العربية والعرب كأمة قبل الإسلام وبعده ، ويتحدث المسعودي عن الأمم الرئيسية في التاريخ ويشخص العناصر المكونة لها – البيئة الطبيعية التي تؤثر على الخصائص الجسمية والسجايا ، واللغة . . . وهو يعطي اللغة – وبخاصة مع العرب – الدور الأول في تكوين الأمة"(6) .

واتخذت هذه العلاقة بين اللغة والأمة والدين بعدا جديدا يقوم على أن الدين أوسع من العرق(7) فهو ينتظم العرب والفرس والترك أمّا اللغات فتنحاز إلى أعراقها .

تَمَيُّزَ العرب ، إذن ، بما هم أمة ، ولكن علاقات الأمم التي دخلت الإسلام بالعربية بقيت موصولة كما تقدم في المبحث الأول من هذا الكتاب .

ويتوسع ساطع الحصري في الإلحاح على هذا التمايز ؛ إذ كانت العربية لسان الإسلام وأداة تعريب الشعوب في الممالك المفتوحة ، كما في فارس ، ولكن العربية لم تلبث أن تراجعت هناك ، إذ عاد الفرس إلى لغتهم القومية مع أنهم ظلوا مسلمين . وذلك ، أيضا ، شأن الأتراك ، فهم مسلمون ولكنهم يتخذون التركية لسانا قوميا . وكأنما يقوم هذا التمايز في بعض مستخلصه على أن العلاقة بين العربية والإسلام تفارق العلاقة بين العربية والمسلمين ، إذ إن المسلم قد يكون عربيا ، وإذن تجتمع العربية والعروبة والإسلام في منظومة ثلاثية واحدة . ولكن المسلم قد يكون غير عربي وإذن يكون الماليزي والإيراني والتركي مسلمين ولكنهم يمثلون أمما أخرى أو قوميات أخرى غير عربية .

---

(1) المرجع السابق ص 17 .

(2) رسالة في النابتة ، رسائل الجاحظ 20/2 .

(3) التكوين التاريخي للأمة العربية ص178 .

(4) كتاب العصا من البيان والتبيين للجاحظ 5/3 وما بعدها .

(5) مناقب الترك ، رسائل الجاحظ 1/67-70 .

(6) التكوين التاريخي للأمة العربية ص 175 .

(7) مناقب الترك ، رسائل الجاحظ 51/1 .

ويتوقف الحصري إلى أمثلة من اقتران العربية بالعرب دون الإسلام كما في حال المسيحيين العرب إذ العربية لغتهم والصلاة في الكنائس بالعربية(1) ، وإذن تكون العربية لسانا جامعا لأمة متميزة على اختلاف عقائد الناطقين بها ، وتتخذ "المعادلة" بين الدين واللغة صيغة مقابلة إذ تصبح اللغة – وهي رأس مقومات الأمة في الفكر القومي – فضاء رحبا لأديان شتى .

وتتقاطع العلاقة بين العروبة والإسلام والعلاقة بين العربية والإسلام وتفترقان(2) . ولكن انحياز اللغة إلى الهوية إنما يستعلن في ظروف "الصراع" مع هوية أخرى و الإقصاء السافر لِلُغَةِ الآخَر . وهو انحياز يتمظهرعلى المستويين الجمعي والفردي .

ومَثَلُ الأول ما كان من أمر العربية في الشرق العربي في مواجهة التتريك ، وفي المغرب العربي في مواجهة الفَرْنَسَة . وهو مثل بل مثلان مشتهران مشهودان .

ومَثَلُ الثاني ما يحكيه إدوارد سعيد من تجربته في كلية فيكتوريا وهي كلية كانت تعليماتها تشرع عقوبة من يتحدث بغير اللغة الإنجليزية ؛ إذ برع طلابها العرب على اختلاف مشاربهم في ابتكار فنون من السخرية والإصرار على التحدث بالعربية فيما بينهم نكاية بالكلية ومعلميها(3) .

وحقا أن العلاقة بين العربية والهوية متقادمة ، وأن وقائع استعلانها في العصر الحديث قد تجسدت في مواجهة الإلغاء كما تقدم . ولكن العلاقة بين اللغة والهوية القومية في بعدها "الإيديولوجي" قد نَسَلَها العصر الحديث والعوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي ولدت فيه(4) ، وقد تأثرها القوميون العرب ، وكانت العربية عندهم كالعقيدة .

---

(1) في اللغة والأدب وعلاقتهما بالقومية ص 155 .

(2) وقفني الدكتور محمد شاهين إلى احتراس بصير حقا في شأن هذه العلاقة ، وأنا أصوغ مضمون احتراسه كما أراه على النحو التالي : إن التمايز بين عناصر هذا الثالوث : اللغوي والقومي والديني إنما هو تمايز قائم على التغريب والتغليب ، وهو نظير التمايز الذي يقيمه اللسانيون بين عناصر النظام اللغوي مثلاً ، لأغراض التأطير المنهجي الشكلي ، وذلك أن فك الارتباط بين هذه العناصر لا يستقيم على إطلاقه . إن العربية تسري في المسلمين من غير العرب بما هي "روح" كما أن الإسلام يسري في حياة العرب المسيحيين بما هو "ثقافة" ويكفي أن نستحضر في هذا المقام ما كان من : إسهام اللغويين المسيحيين اللبنانيين في خدمة العربية ونهضتها في العصر الحديث ، وإسهام إدوارد سعيد في الانتصاف للعربية والقرآن والإسلام في كتابيه "العالم والنص والناقد" و "تغطية الإسلام" ، وتخصيص خليل السكاكيني للمعلم الذي كان يرى لسانه يلحن بالعربية على أن يقرأ القرآن .

(3)Out of Place, pp. 184

(4) أنبه الدكتور محمد شاهين هنا على أن اللغة ما تزال تمثل خطًا أحمر لدى دول السوق الأوروبية المشتركة ؛ إذ إنها تتمسك بالحفاظ على اللغات القومية المتمايزة في سياق الانصهار والتضامن على مستويات أخرى .

يقرر قسطنطين زريق منذ وقت مبكر (1938) أن واجب العربي الواعي قوميا أن يتفقه في لغته ليعرف منشأها وجوهرها الخاص الذي مكنها من أن تسود فضاءات شاسعة . وهو يحتفي بأن العربية قد أنبأت عن حيوية عظيمة في بنيتها البالغة الإحكام ومدى انتشارها ومرونتها مما جعلها موائمة للتعبير عن علوم وفنون متعددة . ويدعو العرب إلى استكشاف أسرار هذه الحيوية ليضعوا أيديهم على هذه القوى الفريدة التي تمثلها العربية حتى يستثمروها في تنظيم حاضرهم وبناء مستقبلهم[1] .

وفي هذا السياق من الزهو بالعربية أنشأ زكي الأرسوزي كتابه : **العبقرية العربية في لسانها** . وقد جهد أن يشحذ هذا الشعور بضروب من النظر في العربية متخذا لذلك أداتين : أداة فيلولوجية تتبصر في نظام العربية مستفيدة من مقولات النظرية الثنائية والروابط الدلالية بين الكلم ، وأداة من النظر العقلي الوجداني مستفيدة من مقولات الاجتماع والطبيعة الإنسانية . وهما تتعاضدان في إيقاظ الوعي بأسرار العربية والافتتان بسحرها وتلتقيان على القول بعبقريتها تعزيزاً لموقعها في بنية الأمة من حيث هي رأس مقوماتها .

وتنامى الخطاب القومي و "اشتدّ عوده في مراحل الاستقلال القطري ووصل أوجه في العهد الناصري"[2] وكأنما كان مشروعه يرنو إلى الدولة الواحدة . ولكنه - وإن تراجع عن هذا الطموح لما اعترى الأمة من ظروف ومتغيرات أحوال - ما يزال مفهوما قائما للأمة الواحدة بمنطوياته الوجدانية والثقافية ورمزه المشترك الجامع وهو "الأمة العربية" .

وقد نأسى في هذا المقام إذا قارنا بين خطابين لمنظّر قوميّ مرموق هو قسطنطين زريق ؛ فإنه في خطابه الذي قبسنا [3] منه قبلا يتعبد العربية ، كان ذلك سنة 1938 . أما في خطابه الثاني بعد ستين سنة (1998) الموسوم بـ : **ما العمل؟ حديث إلى الأجيال العربية الطالعة** [4] فإنه لم يَعْرِضْ لذكْر العربية ، وجعل محور خطابه أن نتخذ ما دعاه بالعقلانية الخلقية من جانبنا ، وأن نأخذ بأسباب التقدم والرقي مما عند الآخر ، وأن ندع ما يتنافى مع الفضيلة من نمطه الثقافي .

وإنما أقول : نأسى ، ناظرا إلى انزواء العربية تماما بل غيابها عن هذا الخطاب إلا أن تكون من قبيل المفروغ منه لديه .

ولكن جدل العربية والهوية - وإن ظل قائماً في الوجدان العربي بالقوة - يظل مرشحا لأن يترجم عن نفسه بالفعل وفقاً لناموسه الإيديولوجي المتمثل في "الأنا" بإزاء "الآخر" .

---

(1) The Arabic Language and National Identity pp.66

(2) رياح العصر لفهمي جدعان ، ص 482-484 .

(3) بترجمتنا لما جاء في : The Arabic Language and National Identity pp. 66

(4) بيروت 1998 ، عن : كتاب في جريدة (العدد 87) ، جريدة الدستور 2 تشرين الثاني 2005م .

إنه بعد عام واحد (أي عام 1999) من الخطاب الثاني المشار إليه آنفا ، قام أمارة ومرعي بدراسة في فلسطين المحتلة تناولت استطلاع مواقف الطلبة العرب من لغات ثلاث هي العربية والعبرية والإنجليزية في نواح متنوعة حول اللغة : "الناحية الرمزية ، واختلاط اللغات ، واختيار اللغة ، وتعليم اللغات ، وأساسية اللغة في نظر المتكلم ، واستعمال اللغة لأغراض عملية ، والمعرفة اللغوية ، والأهمية الثقافية للغة ، والأهمية السياسية والمكانة العالية التي تمنحها اللغة لمستعمليها" .

وقد شمل الاستطلاع 999 مستجيبا هم طلبة في مدارس ثانوية وكليات عربية في تسع قرى ومدن عربية ومدن مختلطة من مناطق جغرافية مختلفة في فلسطين المحتلة .

وقد أظهرت الدراسة أن "الجانب الرمزي" فيما يتعلق باللغة العربية كان "هو الأكثر أهمية لأن العبارات الخمس التي عالجت هذا الموضوع حصلت على التقييم الأعلى (مثل "إنها لغتي القومية" ، إني فخور باللغة العربية" ، إلخ) (1) .

وإذا كانت نتائج هذه الدراسة منسجمة مع جدل العلاقة بين العربية والهوية من حيث العربية رمز عند مواجهة الآخر فإن تجربة(2) أخرى في سياق عربي أجراها وليد العناتي تبين أن إيقاظ الوعي بهذه العلاقة لدى الشباب العربي أدنى مما قد يذهب إليه خاطر اليائس . وهي تجربة منهجية جامعية تقوم على إقحام الطلبة في وجوه القضية اللغوية في العربية .

هاجس النقاء والهوية

يمثل "النقاء اللغوي"– وهو مثال غير متاح بمعناه الخالص –(3) هاجسا للناطقين باللغة . كان مطلب النقاء مرجع علماء العربية عندما تَصَدَّروا لوصفها ، فإنهم تَحَرَّوا أن يأخذوها عمن خلصت ألسنتهم من تأثير الاختلاط بالأمم الأخرى(4) .

ولعل جهود علماء العربية ، فيما بعد ، في بحث أمر المعرّب في القرآن وخاصة منكري وقوعه(5) كان يَصْدُرُ عن مثل هذا الهاجس ، كما كانت جهودهم في بيان المعرب(6) في لسان العرب من هذا القبيل .

(1) ينظر في ما تقدم عن هذه الدراسة : النسيج اللغوي الاجتماعي للفلسطينيين في إسرائيل لمحمد أمارة في : اللغة والهوية في إسرائيل ص108 .
(2) ينظر في تفصيل هذه التجربة : العربي وسؤال الهوية في : اللغة العربية وتحديات العصر ص233–246 .
(3) إذ ليس شيء مفرد في هذا الكون خالصا بإطلاق كما انتهى إليه إدوارد سعيد في آخر كتابه : الثقافة والإمبريالية .
(4) وذلك مستفاد بما ورد لدى الفارابي في كتاب الحروف .
(5) الصاحبي لابن فارس ص29 .
(6) كما في المعرب للجواليقي وشفاء الغليل للخفاجي والألفاظ الفارسية المعربة لأدي شير وغيرها .

ويستعلن عنوان النقاء لدى "الآخر" كما في منشورات جمعية الإنجليزية النقية (Society for Pure English) ، إذ خصصت أحدها للكلمات العربية في الإنجليزية (Arabic Words in English) ، كأنما تريد أن تُنَبِّه عليها بِمِثْل الإيماء إلى "الغرباء" .

ولم يكن هذا الهاجس بحائل دون اقتراض العربية ألفاظا من لغات أخرى ؛ فذلك حاصل التواصل بين العرب وغيرهم في فضاء المكان ودورة الزمان .

والاقتراض ناموس نافذ في اللغات جميعاً . وليس في العالم لغة خالصة النقاء ، والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصى . فقد تغلغلت العربية ، مثلا ، في لغات شتى أوروبية وإفريقية وآسيوية تغلغلاً عبر عنه سابير (Sapir) في فواتح القرن الماضي بمثل "الغيرة" . ويبين لنا الاقتراض – بعبارة بلومفيلد- (Bloomfield) كيف علمت أُمَّةٌ أُمَّةً أخرى ، وهو يشير إلى ألفاظ "التجميل" المستعارة من الفرنسية ، مثلا (1) .

وإذن يكون الاقتراض ، من بعض الوجوه ، دليلاً على "الترافد" اللغوي والتواشج الحضاري بين الأمم .

ويظهر للخاطر الأول ، وهو غير مُضَلِّل بالضرورة ، أن دخول "الكلمات" الأجنبية من لغة إلى أخرى ليس بضائر "شخصية" اللغة المدخولة . فكثيرة هي الألفاظ العربية في الفارسية حتى قيل إنها تمثل نصف ألفاظها(2) ، ولكن الفارسية لم تفارق سَمْتَها الخاصّ ، وليس العربي الذي يستمع إلى الفارسية بقادر على أن يتلقى ما يستمع إليه منها إلى حد الفهم بَلْهَ درجةَ التواصُل .

إن إشفاق أهل العربية من الألفاظ الأجنبية في هذا الزمان مرجعه إلى أمور متشابكة :

أولها ارتباط اللغة بالهوية وإن يكن غير مستعلن صراحة ، وثانيها شعور بأن هذه الظاهرة تشبه أن تكون "غزوا"(3) لما تحمله من دلالة على تغلغل "الآخر" بألفاظه ومحمولاتها في العربية وحَمَلَتها ، وثالثها ضيقٌ بِسَعَةِ المدى الذي احتلته هذه الألفاظ من فضاء المعجم العربي المتداول .

وإذا كانت هذه الألفاظ الأجنبية "فيضا" في بدايات القرن الماضي فإنها غدت "طوفانا" في

---

(1)Language pp. 458

(2) ينظر في هذا وأضرابه : دلالة الألفاظ لإبراهيم أنيس ، ص147 .

(3) بل تصبح الظاهرة غزوا على الحقيقة بل "احتلالا" حين تأتي في ركاب استعمار استيطاني . وقد التفت بي الدكتور موسى الناظر في هذا السياق إلى ما يتداوله الفلسطينيون في الأرض المحتلة من ألفاظ عبرية أصبحت تجري على ألسنتهم تلقائيا كما في تعبيرهم عن إشارة المرور الضوئية بـ "رمزون" وتعبيرهم عن الحاجز العسكري بـ "محسوم" ... إلخ .

زمن العولمة حين انهارت الحواجز وانفتح المشهد الكوني وأصبحت اللغة ساحة مكشوفة لكل ما ابتكره الآخر .

إن ملحظ "الكم" هنا هو الذي يمثل مصدر القلق المؤرّق للمشتغلين بالعربية . ولكن منطوى هذا الكم هو الذي ينبغي أن يكون مصدر القلق والحافز على التدبير . إن هذا الكم إنما ينبع عن تفوق الآخر في مجال العلم والتكنولوجيا (1) والصنائع والبضائع والبدائع . وهو أمر يتجاوز طاقة "اللغوي" ويستنهض العلاقة بين اللغة والأمة من أول ؛ فاللغة قادرة بالقوة أما قدرتها بالفعل فمرهونة بالأمة .

هاجس الازدواج

وينضاف إلى هاجس النقاء -وهو وافد- هاجس الازدواج - وهو طارئ بل لعله مقيم ولو إلى حين- بعد أن دال مشروع الدولة العربية وآل إلى مفهوم الأمة .

واستمرت العلاقة بين اللغة والهوية بما هي ارتباط العربية والأمة . ولكن الأمة قد أصبحت دولاً شتى تتعدد سيمياءاتها حتى في أسمائها ، فبعضها يتسمى باسم القطر ، وبعضها يتعرف بالنسب ، وبعضها يتعرف بالنظام ، وقد يتعرف بَعْضُ ذلك بِسِمَتَيْن أو أكثر ، وقد يحتفظ بعضها بسيمائه القومية (العربية) إلى جنب ذلك ، ولكن القُطْرِيّة قد أصبحت هي السمة الغالبة . واستتبعت هذه السمة سمات أخر تمايزت لها أعلام تلك الدول وجوازات سفرها وأناشيدها . وامتدت هذه السيمياءات القطرية إلى السمات الثقافية العليا كالشعر والمسرح والدراما والسينما والأغنية (2) .

وحقاً أن "القُطْرِيّ" ينطوي في مفهومه لدينا بالضرورة على "العربي" وأن من يستعمل : الشعر العراقي ، أو الأدب الجزائري ، أو الرواية المصرية . . . فإنما يريد "تحديداً" فحسب ، ذلك أن الصفة القُطْرِية عنده تحيل تلقائياً إلى "القومي" .

ولكن تنامي هذه السيمياءات القُطْرِية واستقرارها في السائد يستثير لدى ذوي الحساسية القومية اعتراضاً حاسماً ، واقتراحاً محدداً أن يستبدل بأمثال ذلك : الشعر العربي في العراق ، والأدب العربي في الجزائر ، والرواية العربية في مصر (3) .

---

(1) رأى الدكتور محمد شاهين أنه "لا بُدّ من التقليل من أهمية التقدّم التكنولوجي في استنهاض همّة اللغة" لأنه يجعل أكبر المعوّل في هذا الأمر على "الإنساني" ويرى أن مناط الأمر هو "الثقافة" فيما سمعته يلحّ عليه في سياقات شتى .

(2) The Arabic Language and National Identity, by Yasir Suleiman pp. 228

(3) إلا أن تكون الهوية القطرية مهددة كما في الحالة الفلسطينية وإنما يكون التشبث بالنسبة القطرية عند ذاك في مواجهة الآخر النقيض .

وحقا أن اللغة العربية لم تُوسَم بالقُطْرِيّة (1) إلا لدى "الآخر" الذي يسمي اللهجة المصرية ، مثلا : العربية المصرية .. إلخ وذلك مكر قديم متجدد لدى المستعربين .

ولكن اللهجات القطرية في ظل الدولة القطرية أخذت تشهد امتداداً واضحاً تجاوز فضاءاتها المحلية . وهي ظاهرة تقلقل سكينة "القومي" الذي يرى هويته في العربية الجامعة ويشفق أن يفضي تطاول اللهجات القطرية إلى تطاول الحواجز واستفحال التباين الجهوي وتنائي الحلم العربي .

بيد أن مما يُؤْنس ، من وجه آخر مقابل ، أن العربية الفصيحة تكون هي الخيار الوحيد بإزاء الآخر وما يأتينا من الآخر ، وآية ذلك أن العربية الفصيحة -دون أية لهجة أخرى- هي التي تُتَّخذ لسانا للترجمة عن اللغات الأخرى حتى ما تبثّه الفضائيات من الدراما الاجتماعية والرومانسية والأفلام الأجنبية .

الآخَر وَعَوْدٌ على بَدْء

وإذا كان الوعي القومي بهذه العلاقة قَدْ رانَ عليه الفتور فلعل التذكار المباشر بالآخرين في موقفهم من لغاتهم القومية أن يهزّ الوَسْنَ العربي ويطلق لدى العربي وعيا مستأنفا .

حقا أن محورية اللغة في كينونة الأمة قد بلغت ذروتها في أثناء صعود القوميات في أوروبا ، ولكن اللغة ، بما هي رمز للهوية ، ما تزال تستعلن حتى هذه الأيام عنواناً للسياسات لدى كثير من الأمم والطموحات لدى كثير من الأعراق ، وكفى بفرنسا مثالا على الأول ، والبربر والأكراد مثالين على الآخر (2) .

أما موقف الآخر "النقيض" فيعبر عنه قول رئيس المحكمة العليا الإسرائيلي (أهارون باراك) :

إن إحياء دولة إسرائيل مرتبط بإحياء اللغة العبرية . خذ من دولة إسرائيل اللغة العبرية ، وكأنك أخذت منها روحها (3) .

ويتخذ هذا الموقف من العربية وجها آخر يتمثل في الاستعمال الإسرائيلي للعربية ؛ إذ إنه -حين لم يَمْلِك نَفْيَها- يهمّشها ويتلعّب بها فيستعملها استعمالاً ركيكاً يسيء إلى نسقها واتساقها لا جهلاً بل مكراً مُبَيَّتاً كما في المنشورات العسكرية والمقابلات العربية المكتوبة التي يتخذها لنظائرها العبرية والإنجليزية على الجسور والمعابر (4) .

---

(1) The Arabic Language and National Identity, pp 228

(2) مقدمة لدراسة اللغة وهوية الأمة ، لناصر الدين الأسد ، في : النهوض العربي ومواكبة العصر ، ص27-28 .

(3) العربية في إسرائيل لغة مهمشة رغم الاعتراف الرسمي ، لنمر سلطاني ، جريدة فلسطين ، العدد 12796 ، 2005/10/3 .

(4) من الحق عليّ أن أسند هذا الملحظ إلى الدكتور موسى الناظر فهو الذي أنبه عليه في سياق محاوراتنا (أيار 2006) .

الفصل الرابع

أمر التعليم

مدار المراجعة

إنَّ مَنْ يُؤْثِر السلامة وينْشُد السكينة في هذا المقام ، يمكنه أن يَرْكَنَ إلى ما يقرره المشتغلون بهاجس "موت اللغات" ، ذلك أنهم يرون أن تعليم اللغة للناشئة وحضورها القوي في النظام التربوي[1] يمثل ضمانة لبقاء اللغة وحمايتها من الاندثار . وإذن تكون العربية ، من هذه الناحية ، بأمان ؛ فلا ريب أن حال العربية مختلفة عن حال كثير من آلاف اللغات المتداولة في العالم اليوم . ولكنه ليس كافيا ، في حال العربية ، أن نرضى لها بمجرد البقاء لمجرد أننا نراها ركنا ثابتا في مناهج تعليم الناشئة .

إن مَنْ يتبصَّر في تعليم العربية للناشئة في وضعنا اللغوي الازدواجي يرى أن جهودنا في هذه السبيل كانت "فشلا ذريعا"[2] .

وبيان ذلك أن الناشئ العربي يكتسب لهجته المحكية المحلية في العادة ويبرمجها الدماغ فتستولي على ملكته اللغوية التلقائية ، وتستحكم لديه وتمتد في أدائه وسلوكه اللغويين امتداداً قسريا لا واعيا .

ثمّ يَشْرَع الناشئ في تعلّم العربية بأصواتها ، وقواعد كتابتها ، وأبنيتها ، وتراكيبها ، وأعاريبها ، وأساليبها ، ومعجمها .

ولعله يَلْحَظ أن بين لهجته المكتسبة وهذه اللغة شبها كبيرا وأن الفروق بينهما هينة[3] فيقع في وَهْم أنّه يمكنه أن يستغني بالمكتسب من اللهجة عن بذل الجهد المطلوب لاستدخال منظومة العربية الفصيحة . إنه لا يستقبل اللغة العربية الفصيحة استقبال لغة ثانية لأن الشبه المشار إليه قبلا يفضي به إلى مِثْل الإِلْف ، والإِلْفُ يُعْقِب الزِّراية أو اللامبالاة كما في المثل الإنجليزي[4] .

---

(1)Language Endangerment -Encarta

ومراجعة داني – يي (Danny Yee) لكتاب ديفيد كريستال : موت اللغة

Danny Yee© 2000. http://danny reviews.com

وينطبق هذا التعميم على العربية في أحد ظروفها الاستثنائية ، ذلك أن الإبقاء على تدريسها والتدريس بها قد ساعد في الحفاظ عليها في المشهد اللغوي – الاجتماعي الإسرائيلي . النسيج اللغوي الاجتماعي للفلسطينيين في إسرائيل ، لمحمد أمارة ، في : اللغة والهوية في إسرائيل ، ص102 .

(2) Lectures on Language Problems, by Bjorn Jernudd, pp. 10

(3) ولعل ما يتجاذبه الناطقون بالعربية حتى المشتغلون بها من دعوى كل منهم أن لهجته أقرب اللهجات إلى العربية الفصحى هو الذي أفضى بالمتعلمين إلى الركون والتراخي في أخذ العربية مأخذ الجد ؛ نظاما لغويا ينضبط على نحو يغاير اللهجات المحكية مغايرة جوهرية في أنه يتميز بنظام الإعراب ، وضبط صرفي مختلف ، واختيار معجمي خاص ، ووظائف تداولية مختلفة .

(4) وذلك قولهم: Familiarity breeds contempt

إن هذه العلاقة الملتبسة بين اللهجة المكتسبة والعربية الفصيحة المُتَعَلَّمة هي علّة العلل في تعليم العربية . أما سائر العلل فتتمثل في مجموعة من الشروط المركبة التي تتمثل في غيبة الأهداف المقنعة ، وضبابية بنية المنهاج ، ونأْي الكتاب المقرر عن الإمتاع والجاذبية ، وقصور حال المعلم في رؤيته لموضوعه وتمثّله لأسلوبٍ تناوله إلى ما يدخل عليه من تصنيف الهيئة الاجتماعية له وما يلحق به من الغَبْن في معاشه .

وإنما نتوقف إلى علة العلل أولا ، وهي ، كما قدمنا ، هذه العلاقة الملتبسة بين العامية والفصيحة ، لأنها تفسر لنا حال الطلبة مع العربية الفصيحة جملة . وأول مظاهر هذه الحال إعراضُهم عنها لشعورهم "الموهوم" بلا جدوى الجهد المبذول في تعلمها وغياب دهشتهم بها دهشة الجديد لذلك القرب الذي يشبه الإلف . وأنكى هذه المظاهر أن العامية تتسلل إلى قراءتهم على امتداد حياتهم في التعلم وتبقى هي البرنامج اللغوي أو النموذج اللغوي الذي يسيطر على أدائهم حتى نهاية التعليم العام . وما هذه المقررات العامة في الكفاية اللغوية التي تأخذ الجامعاتُ الطلبةَ بدراستها إلا دليل على أن الطالب العربي يتخرج في التعليم العام وهو قاصر عن بلوغ الكفاية اللغوية الأساسية . إنه لم يستفد إلا تحويل الرموز المكتوبة إلى أصوات . إن مَنْ يسأل طالبا عربيا متخرجا في التعليم العام أو ملتحقا بالجامعة أن يقرأ نصا ، يُوقع نفسه في ورطة كبرى . سيجد أن هذا الطالب وهو ينطلق في قراءة النص كأنه معه في سيارة ينطلق بها سائق فَقَدَ السيطرة عليها وهي تتسارع بهما إلى قاع واد سحيق ، إذ تنثال الأخطاء تترى على نحوٍ تتعذر السيطرة عليه . فهو يقرأ وكأنه لا يقرأ : يحوّل الرموز المكتوبة بين يديه كيفما اتفق ، لا يبالي أَفَهِمَ أم لم يفهم ، بل يقرأ دون أن تعني له قراءته أنه مسؤول عن فهم ما قرأ ، فقد يقرأ نصا غرائبيا جريئا ، أو نصا يدعو مضمونه إلى الأسى ، أو نصا يستضحك الثكلى فيمرّ به على إيقاع صوتي رتيب دون أن يبدي أي انفعال على أي نحو . وربما قرأ نصا قديما فيه ألفاظ مستهجنة مكشوفة – في معايير هذه الأيام – فَمَرّ عليها دون أن تبدو عليه دهشة كالتي تعتريه حين يسمع هذه الألفاظ أو نظائرها في سياق الكلام اليومي . وهو يضبط الألفاظ على وَفْق ما يَحْضُره في ضبطها من الاستعمال الجاري على علاته أو من لهجته المحكية . وهو يقرأ النص فيه اللفظ الغريب الذي يجهل معناه فلا يتوقّفُ توقُّفَ المُسْتَثْبِت . وهو يَغْفُل عن تصحيح الإعراب يَخْبِطُ فيه خَبْطَ عشواء .

فإذا كان النص متخصصا تَعْرِض فيه أعلام ، أو إشارات تاريخية ، أو لمحات لطيفة تومئ إلى مواقف في السياق الثقافي الحضاري للعربية كان الخطبُ أعظمَ ، إذ عند ذلك يستعجم النص ، ويكون الطالب كالمنقطع عمّا يقرأ .

يقرأ فلا تَشِفُّ قراءته عن المعاني المتنوعة التي يتضمنها النص ، يستوي لديه أداء التعجب

المفعم بالدهشة ، وأداء التقرير القاطع ، وأداء النفي الجازم ، وأداء الاستفهام المشحون بالفضول أو الاستهجان ، فيؤدي ذلك كله على وتيرة واحدة تنزلق على لسانه كأنما يلقي بالنص كله عن كاهله تخففاً ورجاءَ الخلاص(1) .

وهذه حال من الضعف عامة ، تكاد تنطبق على أبناء العربية بشِبْه إطلاق ؛ لقد أصبح ضعف الطلبة في اللغة العربية عنوانا على "بلاء عام" يتداوله المتخصصون والكافة على حد سواء .

وينضاف إلى هذا العنوان "ضعف الطلبة" عنوانات أخَر أحدها "اللجلجة"(2) بعبارة شكري فيصل ، وهو ترجمة لحال العربي في أدائه اللغوي ، جملة ، ومنها أن العربية "مهزوزة"(3) بعبارة كمال بشر ، لما يرى من هذه المظاهر في أدائها أداء متعثرا على ألسنة العلميين والمعلمين والمتعلمين والإعلاميين . وتشبه العربية من هذه الجهة ما توصف به الإنجليزية على ألسنة كثير من الناطقين بها من الناطقين بغيرها إذ توصف بالمكسورة أوالمكسرة(4) .

وتتطور هذه الحال بأعيننا إلى موقف يتجاوز ما يفضي إليه الإلف ، موقف تفقد فيه العربية "اعتبارها" المعنوي في نفوس الناطقين بها . ويتمثل ذلك بجلاء في إعراض الطلبة عن العربية وتصنيف التخصص فيها تصنيفا دونيا بل تصنيف معلميها في مرتبة أدنى من معلمي سائر المواد بَلْهَ اللغةَ الإنجليزية .

إن ما تتمتع به أية لغة من مزية "الاعتبار" يمثل عاملاً رئيساً في التمكين لها من الحياة والاستمرار والازدهار(5) .

إن تحليل هذه الظاهرة يقتضينا أن نستأنف في بعض وجوهها ضروبا من التفسير .

---

(1) منهج قراءة النص العربي . . . وعود على بدء ، لنهاد الموسى ، تدريس مهارات اللغة العربية ، جامعة فيلادلفيا ، 2002 ، ص9 ، 10 .

(2) من قضايا اللغة العربية المعاصرة ، ص39 .

(3) ندوة قضايا اللغة العربية في عصر الحوسبة والعولمة ص 16 .

(4)Broken English

(5) يرى ديفيد كريستال (David Crystal) أن عاملا رئيسا (إلى جنب عوامل أخر) في موت لغة ما يتمثل في الموقف السلبي من اللغة على المستوى الرسمي والمستوى الاجتماعي أي موقف الناطقين بها ، وأن بث روح إيجابية فيها يتمثل في تعظيم اعتبارها أو تصاعد منزلتها . وتنظر مراجعة داني – يي (Danny -Yee) لكتاب كريستال (موت اللغة - Language Death) على موقع :

Danny Yee - @2000 Http://danny reviews.com .

(1)

قبل البدء

وأوّلُ ما نتناوله هنا ما كان تعليم العربية يعتني به من تهيئة الطفل للقراءة، قبل أن ينتقل به إلى تعلُّم العربية بما هي نظام من الرموز. وقد أنشئت في ذلك المؤلفات(1). كان المشتغلون بتعليم العربية يُصَدِّرون كتاب القراءة للصف الأول بتدريبات تمهيدية أجْلَ تهيئة الطفل للقراءة (كتمييز الألوان والأطوال والأحجام والمتشابه والمختلف وعلاقة الجزء بالكل .. إلخ) يحاولون بذلك أن يعوّضوا ما يفوت الأطفالَ الذين لا يتسنى لهم الالتحاق برياض الأطفال، وما تزال هذه التدريبات تتصدر كتاب الصف الأول على الرغم من أنها أصبحت الآن غير لازمة، إذْ إنّ ما انفتح للأطفال منذ سن مبكرة جدا يتيح لهم هذه الأيام خبرات ومدركات تتجاوز هذه التداريب التي تبدو ساذجة مسبوقة. تَهَيّأ للأطفال ما يُغْنيهم عن هذه المقدمات. ولكن المدرسة (التقليدية) بل المدارس الخاصة التي يحتاج فيها الأطفال إلى ثلاث سنوات حتى يتخرجوا إلى الصف الأول لم تَبْن على هذه الخبرات المُحَصَّلة نموذجا لغويا متناميا. وليس هذا مقام تفصيل، ولعل المثال يجزئ، فبدلا من أن تُسْتَثْمَر هذه المرحلة من التهيئة التي تمتد ثلاث سنوات في المدارس الخاصة في تداريب وظيفية تعرّض الأطفال لأنماط الخطاب، مثلا، يكون سؤال الوالدين للطفل النجيب في نهاية السنة الثالثة من التهيئة: ما الحرف الذي تعلمته اليوم؟ ويجيب الطفل الفطن: العين.

هل عاد الزمان التربوي القهقرى؟ هل يكون منتهى اجتهادنا أن نعود بالطفل إلى الحرف؟ وماذا يعني له (العين) في سياق إنشاء منظومة اللغة لديه؟ هل أَلْغَتْ المدرسة نظرية "الجشتالت" إذا كانت في غيبة عما طورته المدارس التربوية واللسانية في شأن تعليم اللغات واكتسابها؟!

(2)

في المبتدأ

أما تعليم القراءة للمبتدئين فقد تداول فيه المؤلفون مناهج شتى: جزئية (أبجدية، أو صوتية)، وكلية (جُمْلِيّة) .. إلخ ولكنهم فاؤوا آخر الأمر إلى نهج ائتلافي، إلى الطريقة التحليلية التركيبية التي تبدأ بالكل (الجملة) فالكلمة فالمقاطع والحروف على مستوى التحليل، ثم تتخذ مدارا تركيبيا يقوم على تأليف الكلمات من الحروف والجمل من الكلمات، وتقوم قبل ذلك كله على الانتقال من

---

(1) وكان من عنواناتها، مثلا، الطفل يستعد للقراءة.

المعلوم (الصورة ، مثلا) إلى المجهول (الجملة أو الكلمة) وتقرن بينهما في كل تلك أَجْلَ تقريب الفهم . . . إلخ .

فهل تجاوز تعليم العربية أن يستغرق تناول الحروف بأشكالها المختلفة والحركات والضوابط إلى أن ينشئ لدى الناشئ من تلك العناصر نظاما رمزيا للحياة من حوله وبرنامجا لغويا يعمل به عقل المتعلم بحيوية خلاقة لا متناهية؟

(3)

وسادَ مناهجَ تعليم العربية أن تجعل العربية فروعا ؛ فهذه قراءة في المرحلة الابتدائية يرددها التلاميذ على وتيرة رتيبة واحدة ، وهذه مطالعة في المرحلتين الإعدادية والثانوية تعالج فيها النصوص معالجة عشوائية ، وهذه أناشيد للمرحلة الابتدائية الدنيا يرددها الشادون لبعث الجرأة وروح الفريق ، وهذه محفوظات أقصى الغاية منها تدريب الذاكرة على الاستظهار ، وهذه قواعد للنحو وقواعد للصرف تُبَيَّن بأمثلة مصنوعة في الغالب ويتعثر فيها التلاميذ بين النظرية والتطبيق ، وهذا تعبير أو إنشاء . . . إلخ هذه العناوين . ولم تكن هذه العناوين تستهدي برؤية أو بصيرة تعليمية ناظمة . بل إنها ، مثلا ، كانت ترى الإنشاء موضوعا مفتوحا بلا دليل منهجي كأنما هو محصلة تلقائية تتأدى إلى الطالب مباشرة وعفوا . كان درس الإنشاء مثّلَ استراحة المحارب لدى المعلمين ، أما تقويمه فقد كان -إن كان- وما يزال "مزاجيا" غير خاضع لقيـــــاس مقنن ، ويتفاوت فيه المقومـــون -لذلك- تفاوتا محيرا يستعصي على التفسير .

وتَقَدَّمَ بعض التربويين تَحَوَّلَمَّ شتات الفروع ، وتمثلوا أن يكون الفرع جزءا من اللغة – مهما يكن– ولكنهم لم يستبصروا بأصل ناظم يضع هذه الفروع مواضعها .

وحقاً أنهم فاؤوا بعد ذلك إلى ملحظ "المهارات" ورددوا -وما يزالون- القولَ في أن اللغة تتمثل عند الأداء الوظيفي في مهارات أربع هي : القراءة الصامتة والقراءة الجهرية ، والاستماع ، والمحادثة ، والتعبير الكتابي . ورسموا لذلك أهدافا لم تتحقق ، فلم يكن التلميذ – ولا يزال – يقصّر عن أن يقرأ قراءة صامتة بسرعة (قياسية) وفَهْم خاطف للفقرة بنظرة اعتراضية . . إلخ ولم يكن التلميذ – ولا يزال – يقصر عن أن يقرأ قراءة جهرية معبرة ، ولا يزال التلميذ لا يحسن الاستماع كما ينبغي له . أما المحادثة فما تزال تغلبها "اللجلجة" بين العامية والفصيحة ، وأما التعبير الكتابي فما يزال بلا نسق متدرج إذ هو كَمٌّ من المعطيات من أشتات العبارات التي تفتقر إلى الترابط ، الخالية من أدلة التمييز إذ تغفل علامات الترقيم ، مثلاً ، وتتوسّطها استشهادات قلقة إذ لا توضع مواضعها بإحكام وانسجام ، أما أخطاء الإملاء والقواعد فهي ظاهرة سائدة مشتركة .

(4)

فإذا تجاوزنا ذلك إلى النظر في خطة تعليم العربية وجدنا كأنما الخطة ألا تكون خطة . وذلك أن تعليم العربية بمناهجه وكتبه المقررة وأداء المعلمين ما يزال متروكا لمسار التراكم العفوي .

فليس لمناهج اللغة العربية منطلقات متسقة منظمة ؛ فهي موادُ وملاحظات متراكمة لا ينتظمها نسق واضح منسجم ، وهي لا تتكشف انكشافا ذاتيا يشف عن طبيعة متميزة خاصة .

إنها أشبه شيء بخليط ائتلافي من مواد تاريخية وجغرافية واجتماعية . . . إلخ يصح أن توصف بكل شيء إلا أن تكون مناهج للغة العربية بالمعنى اللغوي الذي يتميز تَمَيُّزَه الخاص .

وليس لكتب اللغة العربية التي تُوضَع ، بطبيعة الحال ، في ضوء تلك المناهج بنيان متسلسل محكم ؛ ذلك أن بنية الكتب ومحتواها كان يعوم ويضيع . ويظل المعلم ينتظر تَقَدُّمَ الطالب في السن وارتقاء مستواه بعوامل النمو الخارجية لتسعفه في تطوير مستواه اللغوي . ولم يكن المعلم ولا المؤلف يعرفان حدًا ولو تقريبيا بين الصف الثاني والصف الثالث ، أو بين الصف الثالث والصف الرابع على مستوى البنية اللغوية لكتاب كل صف . ولو أن معلما جعل كتاب الصف السادس موضع كتاب الصف الخامس ، مثلا ، لما تأثر سير خطة التعليم بما يُشْعِر أنْ قد عَرَضَ خَلَلٌ ينافي تسلسلا أو اتساقا .

وليس لأداء المعلمين نهج علمي واضح منظم ؛ فالذين رسموا للمعلمين أساليب تعليم اللغة العربية (أو الطرق الخاصة في تدريسها على ما يختار بعض الناس أن يعبروا به) ، قد اعتمدوا في المقام الأول الغالب على ما أتيح لهم من معطيات مستفادة من أصول التربية وعلم النفس . غير أن عنصراً رئيسا من عناصر القول في هذه المسألة ظل غائبا . ولم يتوفر أحد ، فيمن أعرف ، على البيان عنه والكشف عما يكون له من آثار في توجيه المعلمين . والعنصر الذي أعنيه هنا هو اللغة نفسها ، بطبيعتها الخاصة ، ونظامها الذاتي ، وأشكال تحققها في مواقف الاستعمال ، والمسلمات في طريقة اكتسابها ، ونظريات درسها ؛ ذلك أن النظر في طبيعة الموضوع لا يقل أهمية عن النظر في طبيعة المتعلم عند أية محاولة لتشكيل طريقة تعليمه .

ولم يكن المعلم ، وهو يعالج تعليم اللغة من خلال تلك المناهج والكتب القائمة على الاختلاط والتراكم ليَصْدُرَ ، على مستوى الموضوع ، صدوراً لغويا منظما محسوبا .

بل أصبحت صورةُ معلم اللغة العربية صورةَ معلّم غير متخصص . ولعل كثيراً ممن ينتحلون مهنة التعليم لم يكونوا يجدون استصعابا ولا حرجا في أن يتولوا تدريس اللغة العربية ؛ ذلك أن معلم اللغة العربية لا يتميز بأنه يتناول مادة منضبطة بأصول لا يجترئ عليها إلا مَنْ وَعَى عِلْمَ ذلك كلّه .

مَنْ منّا – معلمي اللغة العربية – يذهب إلى صفه وهو يعرف على وجه التحديد – المطلق أو شبه المطلق – ما الذي يقصد أن يبنيه في لغة التلاميذ؟ من منا يعرف ، مثلا ، كم كلمة جديدة يضيف كتاب الصف السادس إلى معجم الطالب؟ من منا يعرف في أي صف وفي أي درس من دروس ذلك الصف سيدرب تلاميذه على الأداء الجهري المعبر عن أسلوب الاستفهام الإنكاري ، مثلا؟ من منا يعرف في أي صف وفي أي درس من دروس ذلك الصف سيدرب تلاميذه على ترتيب عناصر موضوع إنشائي معين ترتيبا متسلسلا منطقيا؟ إلخ .

(5)

ولكن مقتضى الإنصاف أن نعرض لوقائع من تعليم العربية في القرن الماضي ، وهي وقائع تُنْبِئ عن ملامح مراحلَ سابقة ومحاولات متعاقبة ، نوردها على سبيل المثال والتذكار وإن لم تكن غيّرت من واقع الحال في التشخيص المتقدم شيئا ذا بال . كما أن من مقتضى الإنصاف أن نعرض لتجارب في التطوير تلاحقت منذ الربع الأخير من القرن الماضي وما يزال بعضها في طور التشكل ، نوردها على سبيل المذاكرة والأمل!

* * *

يستذكر قدامى المعلمين كتاب قواعد اللغة العربية لحفني ناصف في مطلع القرن الماضي إذ كان كتابا ملخصا قاصدا . ولكنه جاء في زمن "النخبة" أو "الصفوة" حين كان التعليم فرصة نادرة ، وكان الزمان غَيْرَ الزمان .

وكانت تجربة خليل السكاكيني في تأليف سلسلة "الجديد" في تعليم القراءة للصفوف الأربعة الأولى في العقد الثالث من القرن الماضي مَعْلَما متميزاً فائقاً . أقام السكاكيني كتابه للصف الأول على ضبط رياضي غاية في الإحكام ؛ إذ إنه أقامه على استيعاب الحروف العربية على اختلاف أشكالها في مواقعها استيعابا تاماً إلى جانب ما يتعلق بذلك من الحركات والضوابط .

وحقا أن مقتضى هذا الضبط الرياضي قد اضطره إلى اختيار كلمات غريبة في رأي بعض مَنْ أخَذَ عليه ، كاتخاذه كلمتي "زاغ" وهو الغراب الصغير و "غال" وهو القُفْل مدخلا لتعليم حرف الغين متصلا ومنفصلا ، ولعل عذره في ذلك أن الكلمتين كانتا مقترنتين بالصورتين الدالتين .

أما كتبه الثلاثة للصفوف الثاني والثالث والرابع فكانت نموذجا متقدما على ما أنشئ لتعليم العربية في هذه الصفوف حتى يومنا هذا ؛ إذ إنه أقام الدروس في تلك الكتب على نصوص اختارها

أو أنشأها وهي نصوص يأتلف في لغتها الشكل والعقل ، نصوص تكون اللغة فيها وعاء للفطن ، فكل نص منها يمثل مُلْحَة طريفة ، أو لمحة دالة ، أو حكمة بالغة ، أو عبرة نافعة ، أو تجربة حية .

وكفى دليلا على فرادة تلك الكتب أن من يستذكرونها اليوم ما يزالون يستحضرونها أو يستظهرون نصوصها معجبين بما انطوت عليه من بصائر وفطن ومُلَح .

ولكن محاولات تكييفها فيما بعد في بعض التجارب العربية قد أخَلَّتْ بمزاياها إذ استبدلت باللمحة الدالة في النصوص التقريرَ المباشر واستبدلت بالعمق التسطيحَ وَهْماً منها أنها تنشد التبسير ، ثم كان ما كان بعد ذلك من مآل نصوص الكتب إلى التنميط الرتيب بالتصرف في النصوص الأصول جملة ، وهي آفة ما تزال مستشرية في كتب تعليم العربية .

وكان كتاب علي الجارم ومصطفى أمين "النحو الواضح" -بمنهجه الاستقرائي ونسق بناء الدروس- إنجازاً في تقريب صورة النحو وتناوله ، ولكنه جاء أيضا في زمن "الصفوة" التي لم يكن يختلط صفو تركيزها على الدرس بضجيج الصوارف التي نجمت فيما بعد .

واستعار التربويون والنفسانيون خطوات هربارت الخمس في تناول الدروس فكانت خطة هيكلية واضحة قَرَّبَتْ على المعلمين أسلوب التناول .

واستعار المتبصرون بالأنظار اللسانية تصوراً بنائيا للغة على مستوى موضوعي في تناول نظام اللغة ، ومستوى وظيفي في تنمية مهاراتها ، وكان نهجا جديراً أن يُعَزَّزَ ولكن تطبيقه في بعض التجارب العربية كان آنيا (كما في التجربة العمانية التي بدأت سنة 1975 وقد أسهم فيها الباحث) . ونَهَجَ آخرون نَهْجَ تعليم القواعد من خلال النصوص (كما في التجربة التونسية) .

واستضاف بعضُ اتجاهات التطوير صيغةً أخرى لمنهاج قائم على "النتاجات" التعليمية المنشودة (كما في التجربة اليمنية 1990–1993 ، 1999–2000 والتجربة الأردنية في تطوير تعليم اللغة العربية نحو الاقتصاد المعرفي وقد أسهم الباحث فيهما ، أيضا) . ولم يكن ذلك الضرب من المنهاج في جوهره إلا خطوة في تفصيل الأهداف ، ولم يبلغ في تَوْقِه إلى منح المتعلم دورا مركزيا في العملية التربوية أن يجسد النموذج المنشود . وينبغي علي أن أحترس من الإطلاق ؛ إذ انقطع ما بيني وبين التجربة اليمنية ، كما أن التجربة الأردنية ما تزال جارية .

ولكن مما يحتمله المقام هنا أن نقرر أن مقتضيات هذه التجارب مركبة ، وأنها محتاجة في المقام الأول إلى وعي شامل لأبعادها وأساليب تناولها وهو وعي يبدأ بالمعلمين ويمتدّ إلى التلاميذ بل إلى الهيئة الاجتماعية جميعا .

وتسعى بعض الجهات العربية (كما في التجربة القطرية) إلى نهج في التطوير يبدأ من تصميم اختبارات الكفاية اللغوية على مثال الاختبارات في الدول المتقدمة في تعليم الإنجليزية .

وهو نهج شائق من بعض الوجوه إذ إنه يحفز على التفكير في تقرير الأبدال باتخاذه طريقة الأسئلة الموضوعية . ولكنه تحليلي في المقام الغالب ، وإذن فهو يقيس الكفاية (Competence) وهو يتناول جزئيات التمييز الكتابي والصوتي ، والمعجمي ، والصرفي ، والنحوي ، والاستيعاب ، والتذوق الجمالي ، كما يطمح بالطريقة نفسها إلى قياس القدرة على تشكيل النص مستهديا بمنهج تحليل الخطاب ونحو النصّ . وهذا كله شطر استدخال النظام اللغوي على مستوى التحليل . أما التركيب أو الإنشاء وهو المطلب النهائي للتحصيل ، المتمثل في الأداء فإنه استضيف على نحو مقتضب من أسئلة مقالية عامة .

ومقتضى التحوط أن ندع لهذه التجارب (التجربة الأردنية والتجربة القطرية وتجارب عربية مقبلة على نحو قريب من هذا المنحى) أن ندع لهذه التجارب أن تأخذ مداها قبل الحكم على جدواها .

على أن التجارب المستحدثة والمستقبلة تتمثل محاكاة النموذج الذي طوره الآخر ، ولكنها تغلو في التعويل على الحاسوب إلى حَدٍّ كأنما يصبح معه الحاسوب غاية لا وسيلة . والحاسوب ، على الرغم من مزاياه وإمكاناته : مُسْتَخْرَجُه هو مُسْتَدْخَلُه أو هو Garbage in Garbage out كما يقول خبراؤه ، وإذن يظل المُعَوَّل على مقدار ما يطوره الإنسان ويستدخله فيه . بل إن طلائع التحدي الذي يفرضه علينا هي أن يُوَجَّه المتعلمون إلى استثمار مزاياه على نحو إيجابي بناء ، وأن يمارسوا به تعلما ذاتيا ، وأن يسهموا في محاورة معطياته بالاستنتاج والاستنباط ، وأن لا يركنوا إلى أدنى الجهد فيكتفوا بالاستنساخ -كما تنبئ عنه الوقائع الجارية في حال التلاميذ الذين يستخرجون ما يطلب إليهم إعداده من التقارير ، من الإنترنت ، ونادراً ما يكلفون أنفسهم عناء النظر فيها ، بَلْهَ أن يستثمروها في إنشاء "تقرير" يأخذ منها ويضيف إليها .

على أن هذه التجارب في تطوير تعليم العربية – وإن آنسْتُنَا بحضور العربية – تحمل في طياتها محذورين متقابلين : أحدهما يأتي من جهة الأخر ، والثاني يأتي من جهتنا :

أما ما يأتينا من جهة الأخر صراحة فهو يتمثل في تحييد المضمون الذي تقوم عليه الاختبارات ؛ ذلك أنه يقتضي أن تكون نصوص اختبار الاستيعاب خاصة ذات طبيعة معرفية أو سردية عامة ، وأن تكون بمعزل عن الخصوصية الثقافية حتى لا تقلقل سكينة الطالب الممتحن وتكدر مزاجه في موقف الامتحان فيما يرون .

أما ما يأتينا من جهتنا فهو غلوّ من وَجْه آخر ؛ إذ كان يتراءى لمن يَصْدُرون عن موقف "مناهض" لتدخّل الآخَر أن يمعنوا في الخصوصي الثقافي أو الإبداعي .

ولكنهم يضعونه في غير موضعه فيفسدون من حيث يظنون أنهم يريدون إصلاحا . كان أحدهم ربما جاء بنص للشنفرى اعتباطا ليدرس من خلاله باب اسم الفاعل . ويكون نص الشنفرى مُقْحَماً في هذا السياق ؛ إذ إنه يؤتى به لغرض صرفي ، ويكون مستغلقا على فهم الطالب بعيدا عن أن يتذوقه على أي نحو ، لأن ذلك يقتضيه تدريبا لغويا منهجيا في تحليل النص ، وهو ما لا يسمح به المقام . وينحرف التعليم عن قصده فبدلا من أن يقدم اسم الفاعل للمتعلم في سياق وظيفي حي بأمثلة من الزارع والصانع والعامل والمعلم والممرض . . . يُقَدَّم له اعتباطا في نصٍّ فَوْقَ مُتناوَله يُشْبِه لغرابته أن يكون مستعجما .

إن هذا المنحى المقابل من جهتنا كان كفيلا – لو مضينا معه – أن يفسد علينا أمرنا مع اللغة والناشئة إذ إنه سيجعل تعلمها غير ذي معنى ، وسينفّرهم من نصوصها التي نُقَدِّر نَحْنُ ما تنطوي عليه من قيم جمالية ، ولكن بتناول منهجي خاص في سياق مختلف آخر .

وحسبنا أن نشير هنا إلى أن المعلمين كما التلاميذ وأهليهم كانوا ينظرون إلى الكتب المؤلفة على هذا النهج –وهو نهج يقوم على شيء كثير من التعلم الذاتي ، وينتظم الكتاب بموجبه أدوارا للمتعلمين إلى جانب المادة التعليمية –كان المعلمون والتلاميذ وأهلوهم ينظرون إلى الكتب المؤلفة على هذا النهج نظرتهم إلى الكتب التقليدية التي تقرر المادة المعرفية فحسب ، ويكون دور المعلم فيها تلقينا ، ويكون دور المتعلم فيها تَلَقِّياً . وهكذا كان المعلمون يتساءلون : ماذا نعلّم؟ وكان التلاميذ يتساءلون : ماذا نحفظ؟ بل إن بعض المعلمين كانت تلتبس عليهم أمور أولية ؛ إذ إن أحدهم– في التجربة الأردنية الجارية الآن– قد كَتَبَ للتلاميذ النصَّ المخصص للتدريب على "الاستماع" ، كَتَبَه على السبّورة!!

وإذا كان مألوفا سائدا أن يُسْأل التلميذُ الطفلُ : ماذا تريد أن تكون في المستقبل؟ ولماذا؟ فسوف يكون تدبيرا "معقولا" أن تنشئ لديه ولدى أهليه منذ البدء بخطاب صريح وَعْياً للمقاصد التي يمكنه أن يبلغها بتعلم العربية الفصيحة ، وذلك باستثارته لطرح الأسئلة عن العربية ، واللغة الثانية . وهو وعي لازم للتلاميذ والتلميذات والآباء والأمهات بمثل ما هو لازم للمعلمين والمعلمات(1) .

أما الكتاب التعليمي فحسبنا أن نشير إلى أن تصميمه وإخراجه بَلْهَ بِنْيَتَهَ وجاذبيته ، يقصّر تقصيرا فادحا عن أن يضاهي تصميم أية بضاعة مما يشتريه التلميذ من السوق .

---

(1) ينظر في مسألة "وعي اللغة" في السياق التعليمي :

Awareness of Language: An Introduction, by Eric Hawkins, Cambridge Univ. Press, 1987.

فإذا أطْلَلْنا على المشهد الكلي أمكننا أن نقرر - دون تحفظ ولا أسى - أن تعليم العربية ينشد أن ينافس تعليم الإنجليزية (أو الفرنسية) في اتساق مناهجه، وجاذبية تأليفه، وتوافر وسائله، ووظيفيته، وتأهيل المعلم، وتمكين المتعلّم. ولكننا نجد أن هذا - في حال العربية - ما يزال واقعا في إطار الرغبة ولم يبلغ أن يبلغ منزلة الإنجاز.

وإذا كان الإرجاء والرجاء يمثلان ما نحن فيه نحو هذا الطموح فإن علة تعليم العربية المزمنة تتمثل من جهة رئيسة في أننا نعلم الفصيحة بالعامية فنكون كالتي جعلت غَزْلَها مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أنكاثا، وأننا نعلم العربية على أنها "معلومات" لا معرفة نظامية تقضي بالمتعلم إلى استدخال برنامج لغوي يعمل بدينامية خلاقة. ويمثل التلقين أبرز أعراض تلك الطريقة العقيمة والعلّة المزمنة المقيمة.

وقد يَتوهّم بعض معلمي النحو، مثلا، أنهم ييسرونه على الطلبة بتقرير القواعد مباشرة وتوضيحها ببعض الأمثلة المصنوعة. ولكن هذه القواعد "المعلومات" تظل واقعة في حدود "الذاكرة"، فإذا لم تُفَعَّل بالاستعمال والمداومة على الاستحضار والتطبيق ذهبت هباء، وتلك حال الطلبة الذين يعربون (الحال) ويعرفون حكمها فإذا أعربوا جملة فيها (حال) وقع في أجابتهم خطأ في استعمالها إذ يقولون مثلا في إعراب (فرحين) في: عاد المسافرون فرحين: حال منصوب، وقد وقع الحال (منصوب) بالياء لأنه جمع مذكر سالم، فينقضون عملاً ما حفظوه نظراً. وهذا مثال وحسب وإنما التدبير أن يستدخل التلاميذ "النحو" نظاما عقليا يبرمجه التعلم كما يحدث في حال "الاكتساب".

وتمتد هذه الحال، من بعد ذلك، إلى التعليم الجامعي. وإذا كانت المساقات العامة التي تفرض على الطلبة في إطار متطلبات الجامعة تُمَثِّل، من وجه غير خفيّ، اعترافا بفشل التعليم العام في تبليغ الطلبة مستوى الكفاية اللغوية الأساسية، فإن التخصص في اللغة العربية على المستوى الجامعي العربي لم ينجح في تحقيق هذه الكفاية، بل انضافت إلى ذلك عوامل خارجية أنكى؛ إذ تراجع موقع التخصص في الجامعات الرسمية وأُلغي في بعض الجامعات الخاصة. ولعل مَرْجِعَ هذا التراجع أو الإقصاء إلى طغيان "الاستثمار" العجلان والنظر إلى التخصص في العربية بمقياس السلع والرواج(1).

وعلى حين يُمْلَى على بعض الجامعات العربية أن تقلص أقسام اللغة العربية وآدابها إلى

---

(1) ينظر في تفصيل مقارب لهذه الحال، مثلا: تقويم خطط أقسام اللغة العربية في الجامعات المصرية أكاديميا وعلميا، الموسم الثقافي السابع عشر لمجمع اللغة العربية الأردني، 1420هـ-1999م، ص15، وما بعدها.

وحدات محدودة ، يَدْهَش الناظر في الخطة الدراسية لدائرة اللغة الإنجليزية (في جامعة هارفارد ، مثلا)[1] ؛ إذ إنها لا تكاد تدع عَلَما ، أو حقبة ، أو ظاهرة ذات علاقة ، أو فنّا في الأدب الأمريكي والإنجليزي قديماً وحديثاً . وتمتد العناوين التي تنتظمها الخطة إلى زهاء مئة وعشرين . وهي تفسح بهذا الاتساع مجالات اختيارات متنوعة للطلبة على وَفْق اهتماماتهم واستعداداتهم حتى ليصبح التخصص في اللغة الإنجليزية ؛ آدابها "تخصصات" منذ المرحلة الجامعية الأولى . وهي خطة تكاد تقتصر على الأدب وحده وهو أدب عمره أربعة قرون (لا يكاد يستثنى من ذلك غير حكايات كانتربري لتشوسر) . فما الذي تتكشف عنه المقارنة الحسابية إذا استذكرنا أن الأدب العربي عمره أربعة أضعاف عمر الأدب الإنجليزي والأمريكي ، وأن قسم اللغة العربية في الجامعات العربية لا يقتصر على آدابها إذ إنه ينتظم علوم العربية أيضا؟

ثم إنه نجم في السنوات الأولى من هذا القرن اتجاه إلى البدء بتعليم الإنجليزية منذ الصف الأول ، وهو اتجاه تتخذه دول عربية وإسلامية تنشد مواكبة اقتصاد المعرفة وعصر العلم والحوسبة . ولعلها ترى في ذلك أداة تمكن المتعلمين من استثمار الحاسوب وتقنياته ، بل يراه بعضها سبيلا إلى تمكين المواطنين من المعرفة العلمية[2] . وهو اتجاه يتنازع الناس في أمره على الصعيدين : العربيّ الإسلامي ، والغربي في آن معا . فعلى حين يتبنى فريق من أصحاب القرار على الصعيد الأول هذا الاتجاه ، يراه أهل الرأي اللغوي المحافظ أمراً خاطئا[3] . ويتداولون على هذا الصعيد أطروحة ثابتة مدارها على أن تحصيلَ المعرفة العلمية الصحيحة واستنباتَها في النشء ورَفْدَها لنهضة الأمة إنما يكون باللغة القومية . ويَعْضُد هذا المنحى ، في بعض ما تنبئ عنه بعض البحوث والتجارب أن تعليم اللغة (الإنجليزية) في هذه الحال يطغى على تعليم العلوم إذ يُسْتَنْفَد معظم الجهد في تعليم التلاميذ اللغة الإنجليزية لبلوغ المقاصد ، وتنحسر فرصتهم لاستيعاب المفاهيم العلمية في أبعادها التنموية المقصودة .

---

(1) ينظر موقع :

Http: //www.registrar.fas.harvard.edu/courses/English and American Literature and Language 20/09/2005

(2) Bridging the Learning of Science and English: Considerations in the Development of Interdisciplinary Materials for Elementary Students, by Sabariah Md Rashid and Chan Mei Yuit. in ELT Teaching Materials: Theory and Practice, edited by Shameem Rafiq-Galea, Sabadi sdn. Bhd, Malaysia, 2004, pp. 130

(3) الموسم الثقافي الثالث والعشرون لمجمع اللغة العربية الأردني (المقدمة) لعبد الكريم خليفة ، ص9 .

أما على الصعيد الغربي فتتفاصل التجربة الكندية والأوروبية ، والتجربة الأمريكية في أمر تعليم اللغة الثانية للنشء منذ البدء ؛ إذ "انتهت بعض الدراسات التي أجريت في كندا وبعض الأقطار الأوربية إلى القول بإمكانية وجود علاقة إيجابية متبادلة بين تعلم اللغة الأجنبية واكتساب المهارات في اللغة الأم"(1) ، على حين "ظهرت في الولايات المتحدة في الستينيات نظرية تربوية تعد ثورية ، وتعتبر أن جدوى استيعاب المفاهيم والتصورات الأساسية إنما تتحسن إذا ما تعرض الطفل الدارس إلى هذه المفاهيم والتصورات باللغة التي نشأ عليها ، أي اللغة الأم"(2) .

وتبرز في سياق هذا السجال مقولة جديرة باهتمام خاص تتمثل في أن البدء بتعليم لغة ثانيـــة(3) وخاصة تعليم العلوم بلغة ثانية يلقي على نفوس المتعلمين شكوكا حول لغتهم القومية .

ويقرر أحد أهل العلم (4)- وقد دَرَّسَ العلوم بالإنجليزية على المستوى الجامعي عقودا – أنه لم يكن يجد فرقا في الكفاية اللغوية يتميز به من تعلموا الإنجليزية من الصف الأول على من تعلموها بدءا من الصف الخامس . ويبدو لنا ، من وجه آخَر ، أن الكفاية اللغوية في الإنجليزية لدى الأطفال في المدارس الخاصة التي تنحو هذا المنحى تجور على كفايتهم في العربية جملة .

وحقا أن حديث تعليم العلوم بالإنجليزية ذو شجون . وحسبنا أن نلمح هنا إلى المرافعة المعرفية المتداولة(5) ، من الجانب العربي ، عن أن تعليم العلوم بالعربية هو الصراط القويم القديم للنهضة العلمية القابلة للتحقيق . وقد رفدت هذه المرافعة تجارب مجمعية وفردية وجامعية . أما المجمعية فهي تجربة مجمع اللغة العربية الأردني في ترجماته(6) وتطبيقها في تعليم العلوم زمنا قصيرا ، وأما الفردية فمثلها تجربة عادل جرار(7) .

---

(1) عن : اكتساب الطفل العربي للغته الأم في زمن العولمة ، لأحمد الخطيب ، في : اللغة العربية وتحديات العصر ، ص108 . (عن مصادره) .

(2) المرجع السابق .

(3) ينظر في معالجة مستفيضة لآثار تعليم اللغة الأجنبية للناشئة ومحاورة الآراء والدراسات التي تناولتها : اللغة الأجنبية والهوية الثقافية للناشئة في عصر العولمة ، زبيدة عرقسوسي ، ندوة اللغات في عصر العولمة ، ص269 وما بعدها .

(4) هو الدكتور موسى الناظر ، أستاذ الكيمياء في الجامعة الأردنية ، محاورتنا في أيلول 2005 .

(5) يجزئ هنا أن نشير إلى الأعروضة المستفيضة في هذا الشأن الموسومة بـ : اللغة العربية في القرن الحادي والعشرين في المؤسسات التعليمية في الأردن (الواقع والتحديات واستشراف المستقبل) لسليمان الطراونة ، الموسم الثقافي الثالث والعشرون لمجمع اللغةالعربية الأردني ، 1426هـ-2005م .

(6) ينظر في المستدرك على هذه التجربة ما جاء عند موردها في فصل الترجمة من هذا البحث .

(7) تعريب العلوم ، ص127 وما بعدها .

وأما الجامعية فمثلها اليتيم هو التجربة السورية وهي تجربة مشهودة ، وهي جديرة بدراسة مفردة ذلك أنها أكثر التجارب امتدادا حتى الآن ولو إلى حد . (والمراد بالحد هنا هو الحد الجغرافي من جهة والحد العلمي من جهة أخرى إذ إنها تقف عند تخوم الدراسات العليا التي تدع متخرجيها – في الطب خاصة – لمتابعتها في جامعات الآخر) .

وقد مثَّلَ تحوُّلُ الجامعة الأمريكية في بيروت عن العربية إلى الإنجليزية في تعليم العلوم منذ قرن ونيف خذلانا عظيما . وكان تدريس العلوم بالعربية –لو قدر له أن يستمر– جديراً بأن يَرْفِدَ عربيّةَ العِلْم بمَدَدٍ إضافي في البحث والتجريب والتأليف .

وبضدها تتمايز الأشياء

كان التدريس في أوساط المهاجرين اليهود إلى فلسطين بلغات مختلفة "ففي المستوطنات الزراعية كان التدريس باللغة الفرنسية ، أو باللغة الألمانية ، وفي القدس كان التدريس باللغة الإنجليزية" ، وفاقا للمنظمات التي كانت تشرف على التعليم .

ولكن الحركة الصهيونية "أصرت على التدريس بالعبرية" ، ولما لم تنصع تلك المنظمات لهذا الأمر نشبت "حرب اللغات" التي وصلت إلى ذروتها سنتي 1913–1914 . ففي سنة 1913 سيطرت اللغة الألمانية على اليهود في فلسطين ، وحينئذ أرادوا إنشاء التخنيون (معهد الهندسة التطبيقية) ومدرسة ثانوية ومعهد لتدريس العلوم التقنية في حيفا ، وفي 1913/10/13 اتخذ مجلس أمناء المشروع قراراً يبقي التدريس باللغة الألمانية ، وذلك لإكساب المتعلمين الثقافة الغربية ولتسهيل الحصول على المعرفة . واعترض الأعضاء الصهيونيون في المجلس على القرار إذ رأوا فيه ضربة لإحياء العبرية وقدموا استقالاتهم من المجلس وتوجهوا إلى المربين وأعضاء نقابة المعلمين معلنين الإضراب في المستوطنات اليهودية ، ولم تثن كل الذرائع التي استخدمت .. لإنهاء الإضراب الصهيونيين عن مطلبهم . وأصبح التعليم بالعبرية في سنة 1914 بالفعل قرارا يلزم جميع المؤسسات اليهودية في فلسطين[1] .

تقاطع الغايات

ولكنّ التعليم يُسْهِم في نشر العربية من وجه آخر ؛ وذلك تعليم العربية للناطقين بغيرها . فهي

(1) ينظر في كل ما تقدم : اللغة والهوية في إسرائيل ص 47 ، 48 ، وإنما أفضنا في عرض هذا المثال الضد بالتفصيل لما ينطوي عليه من عبرة . وحقا أن كثيرا من دعاة التعريب قد ألحوا إليه وإلى غيره من تجارب الأمم الأخرى ولكن المفارقة في هذا المثال أن يقع الإصرار على أن تكون اللغة العبرية لغة التعليم وهي في طور الإحياء .

لغةً مما يَنْشُد كثيرون أن يتعلموها لأغراض شتى بل لأغراض متقابلة[1] . وتقوم على تعليمها في هذا المنحى مؤسسات تعليمية عربية في الفضاء العربي ، ومؤسسات تعليمية غير عربية .

وليس من مقاصد البحث هنا أن يستقري تلك المؤسسات[2] وأن يصف مناهجها[3] وأن يقوّم مخرجاتها . وإنما يجزئ في هذا المقام أن نشير إلى أن تعليم العربية للناطقين بغيرها يمثل رافدا لامتدادها في العالم ، وأن الذين يتعلمونها لغة ثانية هم في العادة على ثلاثة أضرب : أولهم المسلمون غير العرب الذين ينشدون تعلمها لغرض ديني في المقام الرئيس ولغرض اقتصادي مأمول . وثانيهم هذا الجيل من أبناء العرب المهاجرين في الغربين الأوروبي والأمريكي خاصّة . وفي هذه الحال يكون ارتباط العربية بالهوية ومحمولها الثقافي مثلا آخر في بقاء العربية وتداولها . أما الضرب الثالث فهم "الآخر" الذي يتعلم العربية لأغراض "سياسية" في المقام الأول وهنا تكون العربية سبيله لمعرفة أهلها ولو معرفة "الآخر" .

وإنما نقتصر على هذه الأضرب ، ونحن نعلم أن درس العربية قد يتخذ أشكالا أُخَر من خصوصية التخصص لأغراض أكاديمية أو معرفية خالصة قد تكون فردية مبرأة وقد تنتسب إلى الضرب الثالث في نهاية التحليل .

ويؤنسنا [4] على كل حال أن يكون تعلم العربية منشودا على نطاق واسع وأن تتواتر المؤلفات الموضوعة لتعليمها للناطقين بغيرها الملحظ يتعلق بالهاجس الرئيس لأطروحة هذا البحث .

وصفوة القول أن تعليم العربية على مستوى التعليم العام يحفظ لها وضعا من الاستمرار ، ولكن "سَمْت" العربية على ألسنة الناشئة وأقلامهم في المُحَصِّل بالتعليم يفتقر إلى "الاستقرار" ، كما أن بلوغ الكفاية اللغوية بالتدبير الجامعي الإضافي يشبه أن يكون كالتكرار وأنّه يمثل حالة مستديمة من الانتظار . أما تعلم العربية وتعليمها للناطقين بغيرها فيمثل رافدا جزئيا لتداولها بمقاصد الاستثمار أو الاستعمار ، وأما تعليم العلوم بالإنجليزية فإنه يهدد جانبا من فعالية العربية بالانحسار ؛ ذلك أن تجربة تعليمها بالعربية في أفق عربي واحد- مع كل ما تلقى من التقدير والاعتبار- بقيت موسومة بالمحدودية والاقتصار .

---

(1) استقرى الباحث هذه الأغراض في بحث عنوانه : التساؤل عن الهدف ، نشر في المجلة العربية للدراسات اللغوية ، معهد الخرطوم الدولي للغة العربية 1983 .

(2) استقرى الباحث خبرات الجامعات في العالم العربي في تعليم العربية للناطقين بغيرها من 1960-1990 في بحث ألقاه في مؤتمر : العربية في استراليا الذي عقد في جامعة ملبورن ، أيلول 1991 .

(3) ينظر في بعض هذا ما عرض له الباحث من التجربة الماليزية في مبحث العربية والنص المقدس .

(4) كما يؤنسنا في هذه السبيل أن عدد الملتحقين ببرامج تعليم اللغة العربية في الولايات المتحدة قد شهد ، مثلا ، تزايدا لافتا ؛ إذ إن عددهم سنة1990 بلغ 3475 على حين أصبح عددهم سنة 1995 ، 4444 بزيادة بلغت 27 .9% . (Towards a New Linguistic World Order, by Jacques Maurais, in Language in a Globalizing World pp. 24.). ولعله يتزايد الآن حتى ليصبح خطة سياسية

الفصل الثاني

طموح الترجمة

صخرة سيزيف (1)

(1) سيزيف في الأساطير اليونانية هو ملك كورنثيا - وقد حكمت عليه الآلهة أن يدحرج صخرة ضخمة من قاع الوادي إلى قمة الجبل حتى إذا فعل تدحرجت الصخرة إلى قاع الوادي وتعين عليه أن يستأنف العمل وهكذا دواليك... وقد أصبحت صخرة سيزيف رمزا للعمل المستفاد دون طائل . وهو وجه التمثيل بها هنا ولو بتأويل تقريبي خاص .

كانت الترجمة في دورة الحضارة أداة "معرفية" تستمد بها الحضارةُ الطالعة أحدَ شروطِ قوتها من الحضارة الآفِلة . كان هذا شأن الترجمة في عصور الإسلام الزاهرة ؛ إذ ترجم العرب حكمة الهند وسياسة الفرس وعلوم الإغريق وطبهم وفلسفتهم ، وكانت بغداد وجنديسابور مركزين عالميين في هذا الشأن .

وكان هذا ، أيضاً ، شأن الترجمة في بواكير النهضة الأوربية ، فعلى حين كانت حضارة العرب في الأندلس تنحسر تَجرَّدَ الأوربيون لترجمة النصوص العربية ؛ ففي القرنين العاشر والحادي عشر تُرْجِمَتْ في (الأندلس) نصوص في الفلك والرياضيات ، كما ظهرت في القرن الحادي عشر ترجمات في الطب جنوبيَّ إيطاليا ، وفي أواسط القرن الثاني عشر أُنجزت أُولى الأعمال الفلسفية على هَدْي مدرسة طليطلة . وقبل نهاية القرن الثاني عشر ترجمت سلسلة واسعة من الأعمال العلمية والفلسفية في إسبانيا . واستمرت الحال على هذا النحو من ترجمة النصوص العربية حتى تُرْجِمَتْ إلى اللاتينية كل مادة ظُنَّ أنها جديرة بذلك ، إمّا في إسبانيا وإما في غيرها[1] .

ومَثَّلَتْ الترجمة وسيلة للتواصل المعرفي و "التخصيب المتبادل"[2] بين الحضارات منذ أزمان متقادمة (كما في مصر وبابل والصين) [3] ، وكانت أداة للنهضة والتقدم في الأزمنة الحديثة (كما في اليابان والاتحاد السوفيتي السابق)[4] . وما تزال الترجمة رافداً لمعرفة إضافية وأغراض خاصة في هذا العصر حتى في الدول المتقدمة كالولايات المتحدة[5] ، مثلاً .

وإنما نعْرِض للترجمة ، من الجانب العربي ، في هذا السياق لوجهين : أحدهما محمولات الترجمة من المعارف المستفادة ، والثاني لغةُ الترجمةِ العربيةُ . وهما مطلبان مترابطان ، ولكنه يحسن تمييز القول في كل منهما ؛ لأن الأول يمثل ، في أصل الغاية ، رافداً للعربية تغتني به إذ هو مدد

---

(1) Arabic in Medieval Latin, by J.D. Latham. Journal of Semitic Studies. Vol. XVII. Manchester Univ. Press, 1972 pp. 30

(2) الترجمة وتفاعل الثقافات : الواقع والمأمول ، لبهاء شاهين ، في : ملخصات أبحاث الترجمة وتفاعل الثقافات ، المجلس الأعلى للثقافة بمصر ، 29 مايو إلى 1 يونيو 2004 ، ص18 .

(3) الترجمة في العالم العربي : الواقع والتحدي في ضوء مقارنة إحصائية واضحة الدلالة ، لشوقي جلال ، المجلس الأعلى للثقافة بمصر ، 1999 ، ص14 .

(4) المرجع السابق ، ص18 .

(5) المرجع نفسه ، ص21 ، 22 .

معرفي لها وعامل في حيويتها وحياتها بل تطويرها تطويراً ذاتياً[1] . والثاني يمثّل ما تُدْخِلُه الترجمة على صورة العربية في نظام بنائها .

ونقتصر في القول عن الترجمة على هذين المطلبين لنحترس بأننا لا نقدم هنا تاريخاً مستقصى للترجمة إلى العربية في العصر الحديث ، وإنما نستطلع بعض المعالم الدالة على هذا النشاط مما يتعلق بأطروحة هذا البحث فحسب .

ونستفتح بالقول إن الترجمة ووعي الدور الذي تؤديه والتطلع إلى بلوغ الغاية منها ، كل ذلك لم يَبْرَحْ خاطرَ أهل العربية والعاملين عليها منذ بداية عصر النهضة حتى يومنا هذا .

نحو النهضة

وكانت بداية الترجمة في مصر أيام محمد علي ، وكان رائدها يومذاك هو رفاعة الطهطاوي إذ "ترجم هو وتلامذته أكثر من 2000 كتاب!! ، وترجم ، وحده ، وهو في باريس اثني عشر كتابا"[2] . وأَظْهَرُ ما نتوقّف إليه في أمر هذا المشروع الرائد أنه اتجه إلى ترجمة كتب العلم والصنائع . وكان هذا منسجماً مع طموح محمد علي لتحقيق استقلال مصر بتحديث جيشها[3] ، وكانت النهضة في العلوم والصناعات هي السبيل . ولكن هذا المشروع قد انحسر بعد أن تصدت أوروبا لمشروع محمد علي ووقف امتداده الكاسح .

أما الترجمة في فلسطين فقد بدأت في نهاية القرن التاسع عشر وغَلَبَ عليها ، في البدء ، الطابع الأدبي وخاصة في مجال الرواية . وبرز في هذا المجال خليل بيدس[4] إذ ترجم ثلاث روايات عن الروسية ، ونجاتي صدقي[5] إذ قدم للدوريات ترجمات متعددة عن الروسية أيضا ، وأحمد شاكر الكرمي إذ أسهم بترجمات متنوعة لنماذج من "أجمل ثمرات الأدب العالمي"[6] . وتُمَثِّل ترجمات عادل زعيتر بُعْداً آخر إذ تَوَجَّهَ إلى الترجمة عن الفرنسية متخيراً أعمالاً لمفكريها الكبار[7] .

---

(1) عودة إلى المسألة اللغوية ، للطاهر لبيب ، في : النهوض العربي ومواكبة العصر ، مراجعة وتقديم صلاح جرار ، مؤسسة عبد الحميد شومان ، عمان – الأردن ، 2005 ، ص180 .

(2) الترجمة في العالم العربي ، ص57 .

(3) المرجع السابق ، ص27 .

(4) حركة الترجمة الفلسطينية ، لحسام الخطيب ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت 1995 ، ص17 .

(5) المرجع السابق ، ص18 .

(6) المرجع نفسه ، ص21 ، 22 .

(7) المرجع نفسه ، ص27 ، 28 .

ويتميز في حركة الترجمة في فلسطين اتجاه إلى الترجمة السياسية[1] أمْلَتْه التحولات التراجيدية وظروف الصراع كما في ترجمات ناجي علوش وخيري حماد[2] وصبحي الجابي[3] ومحمود فلاحة[4] . على أن ما "يلفت النظر . . . غياب الترجمات العلمية"[5] . ثم تُسْتَأْنف ، بعنوان ظاهر ، الترجمة الأدبية (عن الإنجليزية هذه المرة) كما في ترجمات جبرا إبراهيم جبرا ، والإسبانية كما في ترجمات صالح علماني عن أدب أمريكا اللاتينية خاصة[6] .

ولكن حقيقا بالتقدير هنا أن هذه التجربة - وإن تميزت بغلبة الأدبي عليها ، وانعطافها إلى السياسي وفاقا لخصوصية وضعها لم تكن مغلقة ولا منغلقة ؛ إذ كانت ممتدة في آفاق الطموح العربي إلى النهضة الثقافية جملة .

آفاق الأماني

وتمثل الترجمة وتنشيطها وتنسيقها في إطار مشروع قومي عنواناً ثابتاً في صيرورة المؤسسات ذات العلاقة في إطار الجامعة العربية منذ إنشاء الإدارة الثقافية 1945 إلى إنشاء المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم 1970 . إنه عنوان ينتظم معاهدات (1945) ومواثيق (1962) وندوات (1973 ، 1982) تنبثق عنها دعوات وتوصيات ، فإذا فَتَّشْتَ تَحْتَه وجدت الرؤى كبارا جامعة ووجدت الإنجازات قليلة شتى . إنه مثال عربي بامتياز على التفاصُل بين آخِرِ الفكرة وأوّلِ العمل[7] أو ترجمتها إلى عَمَل إلى منتهى الأمل .

أما مشروع "الألف كتاب" الأول و"الألف كتاب" الثاني في مصر فقد مثل طموحاً ضخماً بمقاييس العدد في أيامه الأولى ، ولكنه يقصُر عن أن يكون منافساً أو كافيا في هذا العصر الرقمي ؛ كما أنه لا ينكشف عن غاية محددة جامعة .

الترجمة العلمية

وظلت الترجمة العلمية القاصدة إلى "إنشاء قاعدة علمية عربية" للنهضة عرضة للنكوص

---

(1) المرجع نفسه ، ص44 ، وما بعدها .
(2) ينظر في بيان جهودهما خاصة : حركة الترجمة الفلسطينية ص125 ، ص134-135 .
(3) المرجع السابق ص136 .
(4) المرجع نفسه ص137 .
(5) المرجع نفسه ص42 .
(6) المرجع نفسه ص136 وما بعدها .
(7) ينظر في تفصيل هذا : الترجمة في العالم العربي ص 43 وما بعدها .

كما في تجربة رفاعة الطهطاوي ، أو غائبة تقريباً كما في الترجمات الفلسطينية أو محدودة في نطاقها المحلي كما في التجربة السورية على ما تتصف به من مثابرة وثبات . ثم استأنف مجمع اللغة العربية الأردني طموحاً عريضاً في هذا الاتجاه إذ رسم لنفسه "أن تصبح اللغة العربية لغة التعليم في جميع مراحله العامة والثانوية والجامعية ، وأن تكون العربية لغة التدريس والبحث العلمي في جميع مجالات المعرفة والتخصصات العلمية" . واختار أن يبدأ بكلية العلوم ؛ "لأنها هي الكلية المحورية التي تنشأ حولها الكليات العلمية الأخرى مثل الطب والصيدلة وطب الأسنان والتمريض والهندسة والزراعة . . . إلخ واختار المجمع نخبة من العلماء المتخصصين من أعضائه وأعضاء هيئة التدريس في الجامعة الأردنية وجامعة اليرموك لترجمة أفضل الكتب العلمية وأحدثها التي تدرس في أعرق الجامعات في حقول الفيزياء والرياضيات والكيمياء والأحياء والجيولوجيا . . . واستمر المجمع . . في حملته من أجل تعريب التعليم الجامعي وأصدر حوالي عشرين مصدراً في مختلف فروع العلوم"[1] .

وحقاً أن إقامة قاعدة علمية بالعربية تقتضي إحاطة شاملة ومتابعة فورية مطردة لما بلغته العلوم في الدول المتقدمة ، ولكن هذا الإنجاز – على كل حال – كان قمينا –لو فُعّل– أن يمثل خطوة على طريق الإحاطة وحافزا على متابعة كل مستحدث ، فيما بعد ، على وفق خطة منهجية مطردة[2] .

---

(1) من كلمة عبد الكريم خليفة في : ندوة قضايا اللغة العربية في عصر الحوسبة والعولمة ص7 ، 8 .

إنما جئت بهذه التجربة في سياق الكلام على الترجمة في ضوء منظور البحث ، ولم يكن من مقاصدي تقويم التجربة واستقراء ما أحاط بها من ملابسات ؛ فذلك أمر جدير ببحث مستقل . وليس التصريح المرسل في الإعلام بمثل المفارقة الدرامية كافيا ، كأن يقول قائل : إن العودة عن تدريس الكتب المترجمة في الجامعة إنما كانت لأن نسبة نجاح الطلبة قد ارتفعت . وإنما أكتفي منها بما استدركه علي الدكتور موسى الناظر وهو استدراك جدير بالإثبات هنا : إنه يعتقد أن الكتاب المقرر للتدريس لا يصلح أن يكون كتابا مترجما ؛ ذلك أن الكتاب المقرر للتدريس ينبغي أن يراعي خصوصية الطالب الجامعي العربي في وجه حاجته إلى المقرر وتقدير الأستاذ لهذه الحاجة في ضوء شروط البيئة الجامعية والاجتماعية . وهو يرى أن التدبير السديد في هذه السبيل هو أن يكون الكتاب المقرر مؤلفا بالعربية تأليفا يستوفي الشروط اللغوية والعلمية والخصوصية المنهجية ؛ ذلك أن التدريس الجامعي يقتضي الطالب أن يتمثل المادة وأن ينشئ حولها تصورات ومفاهيم وأن يطور هذه التصورات والمفاهيم بتفسيرها والتماس تطبيقاتها على نحو يجعله مشاركا فعالا في المعرفة العلمية .

وليس هذا لدى الدكتور الناظر بحائل دون أن تترجم أصولا أمهات تمثل مراجع معتمدة كبارا .

وقد رجعت النظر في محاوراتنا حول هذا الموضوع واستذكرت ما ورد لدى مصطفى الشهابي في كتابه المصطلحات العلمية في اللغة العربية في القديم والحديث (ص48 ، 49 ، 65 ، 66 ، 67) أن الاتجاه إلى التأليف العلمي باللغة العربية قد بدأ فعلا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر في لبنان وأوائل القرن العشرين في سوريا ، ولكنه انحسر في لبنان بعد أن تحولت الجامعة الأمريكية إلى التدريس بالإنجليزية ، وانحصر في سورية . فكان شأن التأليف في ذلك شأن الترجمة ؛ جزرا معزولة في المحيط العربي بأمواجه المتقلبة في دورة هذا الزمان .

(2) أنبه الدكتور إبراهيم أبو هشهش عند هذا الموضع إلى أنه "قامت مثل هذه التجربة في اليابان قبل قرنين مصحوبة بتطوير اللغة اليابانية نفسها" .

ويمكننا أن ننسب إلى الترجمة العلمية – بقليل من التجوز – هذه "المعاجم الاصطلاحية"(1)، الموضوعة في ضروب مختلفة من العلوم ؛ إذ إنها تعتمد الترجمة المباشرة إلى جنب وسائل لغوية أخرى في وضع المقابلات العربية للمصطلحات الأجنبية . بل إن هذه المعاجم تنكشف عن مفارقة ذات دلالة إذ إنها تنتظم تعددا في المقابلات العربية للمصطلح الأجنبي الواحد حتى ليصبح العمل المُقْتَضَى هو توحيد المصطلحات! ولكن هذه الظاهرة – في وجهها اللغوي الخالص – تمثل دليلا على أن العربية قادرة بالقوة فحسب ؛ ذلك أن هذه المقابلات لم "تُفَعَّلْ" في قاعات الدرس والمختبرات ومجالات التأليف والبحث .

الحصيلة

وما تزال الترجمة إلى العربية جارية ، يتولاها أفراد ومؤسسات في آفاق عربية شتى . ولكن حصيلتها ما تزال قاصرة .

ولعل في البيان الإجمالي المقارن بين حال الترجمة لدينا وحالها في بعض البلدان المصنفة بين البلدان النامية : في نهايات القرن الماضي ، دليلا كافيا :

- "متوسط إجمالي الترجمة في جميع البلدان العربية (250 مليون نسمة!!)

  450 عنواناً — أي حوالي كتابين لكل مليون

- متوسط إجمالي الترجمة في إسبانيا (39 مليون نسمة)

  9500 عنوان — أي حوالي 240 عنوانا لكل مليون

- متوسط إجمالي الترجمة في المجر (10.5 مليون نسمة)

  1200 عنوان — أي حوالي 100 عنوان لكل مليون"(2)

---

(1) كما في معجم المصطلحات العلمية والفنية التي أقرها مجمع القاهرة بأجزائه المتعددة ، والمعاجم التي وضعت في إطار مكتب تنسيق التعريب بالرباط واتحاد المجامع العلمية العربية . وكفى بالمعاجم التي تصدرها مكتبة لبنان مثلا . وذلك وغيره مما تجزئ الإشارة إليه فحسب في هذا السياق .

(2) الترجمة في العالم العربي ص106 .

وحقا أن هذه الإحصاءات تظل ذات دلالة ، ولكن "الكمي" يقتضينا أن لا نغفل عن "النوعي" ؛ ذلك أن التنقيل إلى الترجمة إنما تمثل في الفرز والبحث عن "ما يستحق الترجمة" وأن الترجمات المشهودة في تاريخ التثاقف إنما كانت ترجمات الأعمال الكبرى . وهو أمر ينطبق على العربية وغيرها قديما وحديثا . إن هذا الاختيار النوعي ماثل في الترجمات المبكرة إلى العربية في عصر النهضة (كما في ترجمات تشيخوف والمفكرين الفرنسيين) ، وهوماثل في ترجمة كليلة ودمنة إلى العربية قديما ، وترجمة ألف ليلة وليلة إلى الإنجليزية وغيرها ، وترجمة المقدمة لابن خلدون وترجمة ابن سينا وابن رشد . . . الخ .

عود إلى أفق الأماني

ومازال الدعوة إلى التنسيق في شأنها تتجدد ، ولكنها تشبه أن تكون عودا على بدء أو وعدا ينتظر الإنجاز .

فقد نظم مركز دراسات الوحدة العربية في نهايات القرن الماضي ندوة فكرية كان موضوعها : الترجمة في الوطن العربي : نحو إنشاء مؤسسة عربية للترجمة . وكأنما استأنفت الندوة مشروعا[1] بدأته الأمة في أواسط القرن التاسع عشر . ولكن المشروع يومذاك قد تميز بالإنجاز الفعلي – ولوجزئيا منقطعا– أما بعد قرن ونصف فإنه يدخل في نطاق الأماني إلا ما أثير فيه من دور الترجمة الآلية وإنجازات بعض المؤسسات في هذه السبيل ، وهي إنجازات موسومة ، مع ذلك ، بالتوزع والحوافز الاستثمارية ولم تبلغ حتى الآن أن تكون مشروعا عربيا متماسكا .

ولكن ، كأنما لم يتغير أي شيء . فقد صدر تقرير التنمية الإنسانية العربية لعام 2003 ، وجاء فيه أن مجموع الكتب المترجمة إلى اللغة العربية حتى 2002 يوازي تقريبا ما تترجمه إسبانيا في عام واحد ، وأن العالم العربي يترجم سنويا ما يقرب من ثلاثمئة وثلاثين كتابا وهو خُمْس ما تترجمه اليونان .

المنجز والمأمول

وإذا كانت حال الترجمة من حال الأمة على العموم فإن من الحق أن نحتفي بالترجمة الأدبية والترجمة الروائية خاصة فإنها أسهمت في ازدهار فن الرواية العربية[2] ازدهاراً مشهوداً . وهو إسهام يمتدّ بالعربية ويمدّ في حياتها في الحياة العربية مستقبلاً إذا صحت النبوءات التي ترشّح الرواية للاتساع وتذهب إلى أن الشعر آيلٌ إلى الانحسار .

بل إنه حتى على مستوى العلم والتكنولوجيا تلوح في الأفق بوادر إنجاز تتمثل في تعريب تقنيات الحاسوب ولو بدافع استثماري وفي نطاق قطاعات خاصة – كما تقدم[3] .

---

(1) ينظر في هذا المشروع : الترجمة في الوطن العربي : نحو إنشاء مؤسسة عربية للترجمة ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، 2000 .

(2) دون أن نغفل أثر ألف ليلة وليلة في السرد الغربي جملة ، ولا أن نغفل ماكان في التراث العربي من فنون الحكاية والمقامة وضروب شتى من السرد الفني . وإنما نريد هنا إلى الرواية بمفهومها الفني "الغربي" كما تشكلت عليه عند النقوم .

(3) ينظر في أمثلة ذلك : الترجمة في الوطن العربي : نحو إنشاء مؤسسة عربية للترجمة ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، 2000م .

إن تطوير هذه البوادر نحو مشروعات للترجمة الآلية بين العربية والإنجليزية ، وبين العربية واللغات المتقدمة سيفتح للترجمة إلى العربية باباً تنفتح به على منجزات الآخرين في العلم والتكنولوجيا من جهة ومنجزاتهم في سائر فنون الإبداع من جهة أخرى .

وليس هذا مقام التفصيل في مطالب الترجمة الآلية : ولكنه يجزئ أن نقول بأوجز عبارة : تقتضي الترجمة (البشرية) كفاية في اللغتين (المترجم عنها والمترجم إليها) كما تقتضي كفاية في معرفة موضوع الترجمة معرفة المتخصص . وتقتضي الترجمة الآلية تمثيل الكفاية في اللغتين للحاسوب ، وذلك أمر متعارف لدى المشتغلين باللسانيات الحاسوبية ، ولعله أصبح متعارفا على نطاق واسع في أوساط كثير من المشتغلين بحوسبة العربية ، بل إن برامج للترجمة الآلية بين العربية والإنجليزية ، مثلا ، قد أنجزت بالفعل ، وإنْ بدرجات متفاوتة وحاجة إلى التحرير البعدي (Post-editing) ولكنّ مِنْ تمام الشروط لتحقيق هذا المطلب العزيز شرط المعرفة المتخصصة بموضوعات الترجمة . وهو شرط محتاج إلى فهرسة كل ما أنجز من معاجم المصطلحات والمصطلحات الواردة في الكتب المترجمة على اختلافها وخاصة العلمية ، كما يحتاج على المستوى العلمي إلى جهد مستأنف جامع ومتابعة لكل ما أنجزه الآخر ، وهو أمر قد يحفز القائمين عليه أن يحققوا له هذا الشرط على جسامته إذا هم أيقنوا بجدواه الاقتصادية أو ارتبط لدى أصحاب القرار ارتباطا مقنعا بالتنمية . وإنما يفتح باب الأمل في هذه السبيل أن دراسات عربية قد أبانت عن جدوى ذلك على أصعدة شتى وخاصة الجدوى الاقتصادية(1) .

إن ربط المشروع بالتنمية واقترانه بالجدوى الاقتصادية سيمثل حافزاً وَمُقنعاً لأهل العلوم الذين ما يزالون يؤثرون السلامة ويستشعرون أن اللحاق بركب العلم الحديث المتسارع بالإنجليزية يُمَثِّل مَطْلبا عسير المنال .

الترجمة الفضائية: حصان طروادة

وقد نَجَم في المشهد العربي بانتشار الفضائيات في الآونة الأخيرة ضرب آخر من الترجمة إلى العربية . وإنما نفرده بالتناول هنا لأن الترجمة فيه أصبحت على تماسٍّ يومي مباشر مع قطاع عريض من الجمهور العربي .

وينضوي هذا الضرب من الترجمة تحت عنوان بارز يَقْرِنُ الترجمة بالتواصل الثقافي ، وقد صيغ

---

(1) ينظر في هذا الشأن ، مثلا : عودة إلى المسألة اللغوية ، للطاهر لبيب ، في : النهوض العربي ومواكبة العصر ، ص 174 ، وحاشيتها وما بعدها .

لهذه العلاقة المتبادلة مصدران دالاّن على المشاركة هما التثاقف والمثاقفة ، وروّج لهما ناسٌ كثير . وحقا أن الترجمة والتثاقف يمثّلان ثنائياً شاملاً لدور الترجمة في التواصل بين اللغات في محمولاتها الثقافية جملة ، ولكننا نؤثر ، هنا ، أن نقيد هذه العلاقة بالنظر إلى أنها تدور في فلك عصر العولمة الثقافية الذي يشبه أن يهيمن عليه النموذج الثقافي الأمريكي ؛ ذلك أن هذا النموذج الذي يسعى إلى تنميط[1] العالم على مثاله يتحيّف خصوصيةَ الثقافة العربية بل يروم تقويضها .

إن الترجمة الثقافية إلى العربية محتاجة إلى ترشيد أو معيار للفرْز قادر على ميز ما ينفع واطّراح ما يضرّ .

وقديماً قصدت الترجمة العربية عن اليونانية إلى "المادة الفلسفية والعلمية وتجاهلت ميثولوجيا اليونانية وخرافاتهم وأدبهم لتعارض ذلك إما مع العقيدة كما في الميثولوجيا وإما مع الذوق المحلي كما في حال الأدب"[2] .

إن على الترجمة الثقافية أن تتجاوز "التبعية والارتهان"[3] بالآخر ، كما أن على المترجم أن يرعى جانب القارئ العربي المستهدف بالترجمة[4] ؛ إذ إنه حامل اللغة بمحمولاتها المستفادة ، وهو العنصر الحاسم في تفعيل رصيدها المكتسب مما أنجزه الآخر . إنه ينبغي أن يكون للترجمة معيار يحتكم إليه في اختيار ما يترجم وفاقا لفرز ما يستحق الترجمة في ضوء منظور مستنير للتثاقف ؛ إذ ليس كل ما يصدر عن الآخر جديراً بالترجمة وليس اختيار المترجم مرتهنا بالعشوائية المزاجية .

وليس هذا كله بالأمر السهل ، ولكن الترجمة حين تكون بنداً في مشروع للتنمية بمعناها الشامل ستجد لها دليلاً هادياً إلى تقرير ما يترجم في نطاق الإبداع الإنساني الذي ينتصر للحياة ، ولن تكون القصص البوليسية لأجاثا كريستي ، مثلا ، بالتي تطغى على ما يترجم لشكسبير (كما تكشف عنه بعض فهارس الكتب المترجمة إلى العربية) .

---

(1) ينظر في فصل بيان عن هذه المسألة مبحث العولمة من هذا البحث .

(2) اللغة العربية والشعوب الإسلامية ، لتمام حسان ، في : من قضايا اللغة العربية المعاصرة ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، تونس 1990 ، ص76 .

وقد أنبه الدكتور إبراهيم أبو هشهش بي هذا الموضع إلى سبب آخر لتجاهل الميثولوجيا والتراجيديا اليونانية يتمثل في أن هذه المصادر لم تكن متاحة إذ "تحفظت" عليها الكنيسة لتناقضها مع المعتقدات المسيحية .

(3) ينظر في هذا المعنى وأبعاده : النص الأدبي المترجم : الصورة والظل ، لرزان إبراهيم ، في : اللغة العربية وتحديات العصر ، جامعة البترا ، 2005 ، ص193-203 .

(4) مسؤولية المترجمين بين لغة الأصل ولغة النقل ، لسعد زهران ، في : ملخصات أبحاث الترجمة وتفاعل الثقافات ، المجلس الأعلى للثقافة بمصر ، 2004 ، ص44 .

وإنما نلح على هذا الاحتراس لأننا نشهد إلى جانب الترجمات التقليدية ضرباً جديداً من الترجمة ، هو ترجمة ما يغزونا من القنوات الفضائية المتخصصة أو شبه المتخصصة بعرض المسلسلات والأفلام الأجنبية وخاصة أفلام هوليود .

وإنما نتوقف هنا إلى الجانب الثقافي بما هو مضمون اللغة بكل ما ينطوي عليه استدخالُ ما يأتينا به من مخاطر لا تستثني من ذلك برامج الصور المتحركة الموجهة إلى الأطفال وإن ترجمت إلى لسان عربي فصيح ذي أثر إيجابي على "لغة" الطفل العربي لا ينكر .

وقد أصبحت الترجمة إلى العربية في هذه "الحقول" وغيرها من الحقول المعرفية العامة والأفلام الوثائقية والتقارير السياسية ظاهرة يومية . وهي تؤنسنا -لا ريب- بطواعية العربية ، كما أن كثيراً من محمولاتها يرفدنا بمعرفة وبصائر جمة . وإنما نتوقف هنا إلى بعدين خالصين حيويين : بعد ثقافي يشبه أن يكون اختراقاً ، وبعد لغوي . وإنما نتناولهما من جهة ما يتصل بأطروحة البحث أي أثرهما في التحول بالعربية عن منظومتها "القيمية" أو نظامها اللغوي .

ونتخذ للبعد الأول ، مثلاً واحداً دالاً وحسب .

هل يقصد "الآخر" (إسرائيل) حين يحرص على ترجمة مسلسل الحسان والشجعان إلى العربية أن يراعي حقوق المشاهدين الفلسطينيين في الاعتراف بلغتهم وترويج تداوُلها؟

ألا تحمل الترجمة تناقضا حديا بين "الشكل اللغوي العربي" و "المضمون الثقافي الغربي"؟

ألا تكون العرَبية في مثل هذه الحال مطية لتصدير النموذج الثقافي للآخر واختراق القيم الثقافية العربية؟

ونتكرر في هذا المسلسل (ونظائره) ظواهر شتى :

- زواج المرأة من الابن ثم من أبيه (نكاية بحماتها) ثم من أخيه (نكاية بمنافستها على الزوج الأول) ثم بأخ آخر يظهر فجأة ويتجه إلى الزواج من ابنتها وفيما بين ذلك تحمل من روج ابنة لها فيصبح المولود أخا للابنة من زوجها بدلاً من أن يكون ابناً لها منه .

- خروج البنت مع صديقها بمباركة الوالدين ودعواتهما للصديقين بأن يستمتعا ، وترسيخ "المواعدة"(1) سلوكاً اجتماعياً طبيعياً .

- ذهاب الولد أو البنت أو الأخوين في الرابعة عشرة من عمرهما ليشهدا أخيرا حفل زفاف الوالدين!

(1) وتبقى المواعدة في المجتمع الأمريكي هاجسا يقلق سكينة المهاجرين العرب هناك .

أما على المستوى اللغوي الخالص فإن ترجمة هذه المسلسلات والأفلام المناظرة تنطوي على مفارقة لافتة . فهي -كما قدمنا- تنطوي على مزايا في تطويع العربية الفصيحة لأداء "وظائف" المحكية . إذ تقدم نموذجا للخطاب بالفصيحة في شؤون يومية عادية ، وهو خطاب ذو تشكيل خاص يجري على منوال لغة المشافهة في اطراح الروابط مُعَوِّلاً على السياق ، ولكنه -على كل حال- ينتمي إلى مستوى العربية الفصيحة المعاصرة .

وإنما المفارقة الحقيقة بالاحتفاء هنا أن الترجمة المكتوبة على الشاشة للأفلام الأجنبية "تفضح" المنطوق في الأفلام والمسلسلات العربية ؛ إذ إن الأولى - بامتثالها لأمر الكتابة وحافز الانتشار وغياب الانتماء الجهوي- تتخذ الفصيحة ، على حين تَسْتَنِيم الثانية إلى اللهجة تعللاً بالواقعية وركونا إلى تلقائية الأداء بالحد الأدنى من الجهد .

فإذا مضينا مع هذه المفارقة وجدنا أن الترجمة ، أيضاً ، قد تحيي أنماطاً تعبيرية تراثية مأثورة وتكون متقبّلة في سياقها كما في :

- هاك يا سيدي
- هاك يا صاح
- مهلا يا صاح
- لا تعوّل عليه
- عمت مساء
- يا أختاه
- على حين غرة
- هيا
- إليك عني
- صه
- خسئت

وقد نتحرّى ما يُعْتَدُّ وجهاً أفصح كما في اختيار :

الشيء نفسه بدلاً من نفس الشيء .... إلخ

وليست هذه فضيلة خالصة لهذه الترجمات ، ذلك أنها ليست سواء إذ تتفاوت بتفاوت كفايات

المترجمين . فقد يعرض فيها ما يعرض في كتابات الطلبة وسواء الكتاب من الأخطاء الشائعة ، كما في مثل :

خطأ الترجمة	صوابه
لن أنسَه	لن أنساه
ناهيك عن كونه مكتظاً	ناهيك عن كونه مكتظا
نلتقي السابعة مساءاً	نلتقي السابعة مساءً
عمت مساءاً	عمت مساءً
لا داعِ للشكر	لا داعي للشكر
الأمهات لا توافقن	الأمهات لا يوافقن
أعتقد أن على النساء أن يبقين نساءاً	أعتقد أن على النساء أن يبقين نساءً
لا تصلح لأن نكون أبواها	لا تصلح لأن نكون أبويها
هل أخبرت أبيك	هل أخبرت أباك
لوحده	وحده . . إلخ

ولكن هذه الترجمة اليومية تعكس على العربية أثرين لغويين مباشرين آخرين لافتين : يتعلق أولهما بالمعجم ، ويتعلق الثاني بالنُّظُم .

أمّا ما يتعلق بالمعجم فيتمثل في التصرف بالترجمة ؛ إذ يُسْتَبْدل بالمقابل العربيّ "الدقيق" مقابلٌ غير "أمين" ؛ وذلك في المواقف التي تتناول موضوعات الجنس والدين والسياسة ؛ إذ يعمد المترجم إلى استبدال :

دار العبادة ← الكنيس

والعلاقة الحميمية
والملاطفة
والتصادق ← الجماع
واللهو

والأكثر حماسة ب الأكثر شبقا

والقدر ب الله

ويا للهول ب يا مسيح

وهذا التصرف الذي يمارسه المترجم بتوجيه الرقيب الذاتي و المباشر - وإن كان ظاهر القصد به حسنا أو مراعيا للحساسية الثقافية - هذا التصرف يُفْضِي إلى تأثير عكسي على مدلولات الألفاظ في العربية وتداولها ؛ إذ يجعل **العلاقة الحميمية** (حتى بين الأم وأبنائها) تستدعي الوقائع التي عبر عنها المترجم بهذه العبارة ، ويصبح **التصادق** بين الأقران لفظاً منبوذاً ويفقد قيمته الاجتماعية الجميلة ، ويصبح **اللهو** كله في أذهان المتلقين ضرباً واحداً غير بريء ، وتصبح **الحماسة** حالةً تُدْخِل المرأة مداخل الريبة .

ثم إنه تصرف مزيف مكشوف لأن ما يكتنف **"الخطاب اللفظي"** من الموقف المشخص بالصورة والحركة يفضح المدلول الحقيقي الذي حاول المترجم تعميته بملاءة من **"الستر اللفظي"**!

بل إن ما يبدو احتراسا في بعض الترجمات قد يستثير فضولاً ويكون أعمق تأثيراً حين يتبين للمشاهد أن اللفظ يروغ عن ذكر الرموز المتعلقة بالنازية واليهود والهولوكوست مباشرة ، وإنما يقحمها عرضا في سياقات تبدو - للخاطر الأول - عابرة ، إذ تُلْقَى على نحو تلقائي . ولكن المشاهد لن يخطئ تأويل ذلك وهو في حقيقة القصد ضرب من المكر الخفيّ لأنه يساق كأنما هو من المرجعيات الثقافية المفروغ منها .

وأما ما يتعلق بالنظم فأَظْهَرُ أمثلته تحويلُ تركيب العربية من لغة يتقدم فيها الجار على المجرور (Pre-Positional) إلى سَمْت اللغات التي يأتي فيها الجار بعد المجرور (Post-Positional) وذلك في استعمال **"حتى"** ، مثلاً ، في بعض الترجمات ، إذ ترد العبارة التي مقتضاها أن تكون ، مثلا : **لقد كان غاضباً حتى إنه لم يكلمني** ، على هذا النحو : **لقد كان غاضبا إنه لم يكلمني حتى** . ونظائر هذا متواترة!

عَوْد على بَدْء: في لغة الترجمة في نماذج معاصرة

ولعلّ من تمام هذا المطلب في أثر الترجمة أن نعرض لنماذج من لغة الكتب المترجمة المنشورة لعام 2005 في موضوعات معرفية معاصرة وأسئلة كونية مشتركة .

وتتفاوت الترجمات كالمعتاد ، من هذا البعد اللغوي ، على وفق مقادير الشروط المتوافرة من أهلية المترجم وكفايته .

- فقد يجتهد المترجم أن يسوق النص العربيّ بسلامة بل يجتهد أن يتأنق، ولكنه لا يملك مع ذلك أن ينجو من "أخطاء شائعة"[1] كما في ترجمة بسام حجار لكتاب أندره كونت سبونفيل : هل الرأسمالية أخلاقية[2] ؟

- وقد ينحو المترجم منحى الترجمة الحرفية العجلى مع افتقاره إلى الكفاية اللغوية، فينفرط عقد النص ويغيب عنه النسق ويفارق شروط الصواب اللغوي الأولية كما في ترجمة ندى السيد لكتاب أميتاي إتزيوني : الخير العام (إشكاليات الفرد والمجتمع في العصر الحديث) [3] .

- وقد يكون الكتاب المترجم علمياً موضوعاً على نهج السرد الروائي، فتحمل الترجمة بعض سماته من السلاسة المشوقة، ولكنها تظل مشوبة بالأخطاء الشائعة[4] كما في ترجمة[5] تانيا ناجيا لكتاب : الأسبرين : قصة استثنائية لعقار أعجوبي، لـ ديارمويد جيفريز .

وصفوة القول أن الترجمة في العصر الحديث كانت مرآة لحال الأمة في التردد بين النهوض والعثار، والانفصام بين الفكرة والإنجاز . وكان دورها في رفد اللغة على وفق ذلك . بل إنه يمكننا أن نستعير للعربية والأمة والترجمة وصفاً متعارفاً لحال المريض حيث يقال إنها مستقرة !

---

(1) كما في ص 29 (المباعة بدل المبيعة) وص 37 (أفسحوا بدل فسحوا) وص 69 (يُثْني بدل يَثْني) . . .

(2) صدر الكتاب عن مركز البابطين للترجمة (الكويت) ودار الساقي (بيروت) سنة 2005 .

(3) صدر الكتاب عن دار الساقي ومركز البابطين للترجمة، بيروت 2005 .

(4) كما في : والأمر سيّان (ص12) بدلاً من : والأمر هو نفسه أو والأمر غير مختلف (إذ ليس الأمر مثنّى فيكون الخبر عنه مثنّى، وسيّان مثنّى سيٍ أي مِثْل)

سيما وأنه (ص12) و (ص21) بدلا من ولا سيما أنه

الرئيسيتين (ص22) بدلا من الرئيسين

كمزودي (ص22) بدلا من مزودي

الثلاثة آلاف عام (ص22) بدلا من ثلاثة آلاف العام

وطأ (ص23) بدلا من وطئ

هذه الأخير (ص25) بدلا من هذا الأخير

ثماني (ص25) بدلا من ثمانيا

كلا البرديتين كان قديما (ص25) بدلا من كلتا البرديتين كانت قديمة

ومثل ذلك كثير!

(5) صدرت عن دار الساقي ومركز البابطين للترجمة، بيروت 2005 .

الفصل السادس

فضاء الإعلام

برج بابل

"إنَّ مَنْ يتأمَّل اللغة لَيَجِدُ أنها لا تساهم في التواصل أكثر من مساهمتها في عدم التواصل" .

عبد القادر الفاسي الفهري

الوعد

يستبشر مَنْ يَتَرَقَّبون اعتماد العربية[1] في الفضائيات ، ويرى مَنْ يرصد وضع اللغات في تيار العولمة أن الفضائيات – بذلك – تسهم في بث العربية وانتشارها[2] ؛ ذلك أنها – إذ تتخطى الحواجز الجغرافية – تمنح المغتربين في الآفاق القصيّة وسيلة تربطهم بثقافتهم وتراثهم ، كما أنها – حتى بمستوياتها الحكية المتنوعة – تلغي عزلة المهاجرين العرب خارج الوطن العربي ، وتفسح للناشئة من أبناء المغتربين سبل التعرف على تراثهم اللغوي ، وتتيح لهم فُرَصاً لتعلّم العربية من خلال البرامج التعليمية التي تبثّها[3] .

الوعيد

ويُشْفِق مَنْ يتبصّرون في محتوى الفضائيات من تهديد العربية في محمولاتها الفكرية . وهل ينفكّ اللغويّ عن الفكريّ [4]؟ ويتمثل هذا المحذور فيما "تقصد إليه محطات الإذاعة والتلفزة" "الموجهة" العربية وغير العربية "المترجمة إلى عربية فصيحة" ، التي تحترف الانصراف إلى المقطع الشبابي من مجتمعاتنا فلا تبث له على مدى الساعات الأربع والعشرين إلا منتجات الغريزة المدمّرة لقواعد العقل والعلم والمعرفة والقيم الجمالية والأخلاقية الرفيعة"[5] .

مَحْمَل الأضداد

وتبدو العربية في الإعلام على الجملة كالحايدة ؛ إذ إنها تُتَّخذ لساناً للإعلام العربي كما أنها تتخذ لساناً لإعلام "الآخَر" . وليس بخاف أننا نجد بإزاء الإذاعات والتلفزة الفضائية والصحافة العربية إذاعات وتلفزة فضائية وصحفاً بالعربية تصدرها أو تُوَجِّهها جهات أخرى مناورة أو مناوئة أو معادية .

(1) تقرير التنمية الإنسانية العربية للعام 2003 ص3 .

(2)Arabic and the New Technologies, by Foued Laroussi, in Languages in a Globalizing World pp. 251.

(3) المرجع السابق ، ص252 .

(4) مقدمة لدراسة اللغة وهوية الأمة ، لناصر الدين الأسد ، في : النهوض العربي ومواكبة العصر ص25 .

(5) رياح العصر ، الفهمي جدعان ص18 ، 19 .

من التواصل إلى التفاصل

بل يبدو لمن يَرْقُب الفضائياتِ العربيةَ التي أطلقت مساحة للحوار في الخلافيّ والمسكوت عنه أنها قد طوعت العربية بما هي "شكل" لضروبٍ من التصرف البارع على نحو مُعْجِب ، ولكن التواصل السجالي قد كرّس التقابل الثنائي بين أطرافه ، وبقي الرأي والرأي الآخر متفاصلين تفاصلاً حدّيا .

تضليل المصطلح

بل إن الإعلام في مدلوله الحرفي المباشر يحمل دلالة مضللة تشبه من بعض الوجوه ما انطوى عليه المكر أوالغفلة من إطلاق "الاستعمار" لفظاً دالاً على الغزو والاستغلال الأجنبي ؛ ذلك أن الإعلام – على اختلاف وسائله واستفاضة موارده – لا يقدم إلينا من العلم أكثر مما يحجبه عنا وأنه بانتقائيته وتحيزاته ومقاصده يُعَمّي علينا كثيراً من الحقائق(1) .

التفكيك

لكن هذه الثنائيات والشبهات لا تعني أننا نجحد دوره المحوري في حياة العربية ، بل إنها تقتضينا أن نفكك هذه العلاقة .

ضبط اللامتناهي

يبدو للنظرة المباشرة أن الإعلام بوسائله الثلاث قد هيمن على فضائنا اليومي ، وأنه يشبه أن يكون سجلاً تاريخياً يومياً لفضائنا الكوني ، وأنه يشبه أن يكون لا متناهيا كالكون نفسه -فيما هجس به أينشتاين . وإذن فغاية ما نحاوله لحصر ما لا ينحصر أن نجعل العربية محوراً ضابطاً ومنطلقاً ثابتاً وأن نتتبعها في تجلياتها في التلفزة الفضائية والإذاعة وهما – على التقريب – صنوان ، ولكننا نجعل أكبر المعوّل على التلفزة الفضائية لاشتهارها وغلبتها ، كما نتتبعها في الصحافة ، ملاحظين الافتراق بين الأولين والثالثة إذ هما مسموعتان منطوقتان إلا المكتوبَ المقروء من المُتَرْجَم في التلفزة ؛ أما الصحافة فهي مكتوبة مقروءة .

---

(1) ولعل العبارة السائرة على ألسنة العامة وكثير من الخاصة في وصف ما لا يعول على مصداقيته وهي قولهم : كلام جرائد ، يعضد ما نذهب إليه في هذا المقام .

تجليات العربية في التلفزة الفضائية: استقراء ناقص

ولعل استقراء جزئيا آنيا أن يكون كافيا دالا – وذلك هو شأن الاستقراء اللغوي وهو الممكن على كل حال – لأن الاستقراء التام للعربية في الفضائيات جميعا على تعاقب الليل والنهار يدخل في دائرة المحال .

إن من يتتبع عدداً من القنوات الفضائية بمثل هذا الاستقراء الجزئي الآني على تَوالٍ تلقائي يسمع هذه التجليات من الأداء :

- يسمع في أولاها عربية فصيحة (مترجمة مدبلجة) يزجيها جون وماري في ترويج جهاز لتخفيف الوزن أو تنظيف البيت أو البشرة . . . إلخ . وإذن يكون المسموع لساناً عربياً فصيحاً معبراً والرسالة إعلاناً دعائياً والهدف هو المستهلك العربي من المحيط إلى الخليج .
- ويسمع في الثانية عربية بَيْنَ بَيْن في مقابلة تتناول سيرةً ذاتيةً في سياقها الاجتماعي لشيخ متعلم إذ يراوح بين لهجته المحلية المحكية المكتسبة وعبارات فصيحة مما وَعَى وتعلَّم .
- ويسمع في الثالثة عربية فصيحة تتناول "اقتصاد العولمة" في تقرير تحليلي وثائقي . وإذن يكون المسموع نصاً أُعِدَّ مكتوباً وتَهَيَّأ القارئ لأدائه .
- ويسمع في الرابعة عربية فصيحة : نشرة إخبارية تتخللها مقابلة مع سياسي عربي يستعمل عربيّة بين بين تتخللها سمات من لهجته المحلية يَعْقُبها تقرير من مراسل بعربية شبه فصيحة .

وإذن يجتمع في سياق واحد : فصيحة مقروءة لنص مكتوب يؤديها مذيع مُدَرَّب غايتها ممتدة إلى الفضاء العربي ، وعربية مزيج من أثر التعلم وتسرُّب المكتسب من اللهجة تلقائياً ، وعربية شبه فصيحة حاول المراسل الارتقاء بها لتقترب من المستوى اللغوي للنشرة ؛ لما قدَّمْنا ، ولدافع مهني ، وحافز وظيفي .

- ويسمع في الخامسة عامية شبه خالصة في دراما اجتماعية قُطْرِيّة ، وإذن يكون اللسان عامياً بدعوى الواقعية التي تنطوي على نزعة جِهَوِيّة ورُكون إلى الحدّ الأدنى من الجهد اللغوي .
- ويسمع في السادسة سجالاً بين متناظرين جُلُّه فصيح وتتسرب إليه "رواسم" من المحكية بين حين وآخر . وإذن يكون اللسان عربيًا فصيحا يقتضيه الموضوع وما يتسم به من الأهمية العريضة والجدية الفكرية ، ولكنه لا يملك أن يتخلص تماماً من المركوز في السليقة من العامية المكتسبة في الطفولة وأعراف المخاطبات اليومية .

- ويسمع في السابعة القرآن مرتلاً يليه شَرْحٌ يراوح بين الفصيحة والعامية . وإذن يكون المسموع هو الفصحى بما هي لسان التنزيل المقدس المصون من التغيير والتبديل ، والعربية التي تراوح بين الفصيحة بأثر التعلم والعامية المتسللة بِقَدَرِ المركوز في السليقة المكتسبة ودافع التقريب الناظرِ إلى عامة المتلقين .

- ويسمع في الثامنة مسابقة ثقافية أَغْلَبُها بالعامية وأقلُّها بالفصيحة . وإذن يكون الموضوع مرشحا للفصيحة ولكن المسموع يَتَرَجَّحُ بين الفصيحة بأثر التعلم ومقتضى الموضوع ، ولكنه لا يملك أن ينجو من المكتسب اللغوي الأول ؛ إذ اللهجة هي المستولية على البرنامج اللغوي الأول في الدماغ وللتراخي في التهيؤ لإجراء المسابقة والركون إلى الجهد اللغوي الأدنى بالمتاح التلقائي .

- ويستمع في التاسعة إلى غناء بإحدى اللهجات المحكية يليه غناء بالشعر الفصيح ، وإذن يكون اللسان عامياً يترجم عن وجدان محلي يحاول الامتداد إلى الوجدان الجمعي ؛ وفصيحا يجد الغناء فيه قيمة فنية جمالية من التراث أو من الحديث .

- ويشاهد في العاشرة دراما اجتماعية جامعة لناطقين بلهجات مختلفة متنوعة من الخليج إلى المحيط ، وإذن يكون اللسان عاميات يمثل الناطقون بها نزعة إلى التواصل العربي العريض بهويات لغوية جهوية .

- وتكون في الحادية عشرة تعليمية بعربية بين بين ، وإذن يكون اللسان عربياً وسطاً لم يَجْهَد الناطق به أن يتهيأ لما يقدمه كما ينبغي له من الاحتفاء بتحقيق شروط الأداء الفصيح جميعا .

- وتتمثل في الثانية عشرة عرضاً لطريقة إعداد طبق من الطعام بعربية مهجنة من العامي والأجنبي ، ويكون اللسان بذلك عربية عامية مشوبة بمفردات لمواد مستعارة وعبارات يومية من الدخيل (الإنجليزي والفرنسي) ؛ إذ الناطق إنما يصدر عن لهجته ومطالب مهنته كما تأدت إليه بعض مفرداتها ومن تشاركه في الإعداد تعبر عن هذا الشأن اليومي بلهجة التخاطب اليومي وتُطَعِّمُه بالمفردات والعبارات الأجنبية تَشَبُّها وتقليدا ونزوعاً إلى تصنيف ومزية .

- وتكون في الثالثة عشرة رسوماً متحركة للأطفال بالعربية الفصيحة ابتغاء الترويج على النطاق العربي .

- وتكون في الرابعة عشرة رسوماً متحركة للأطفال بالعربية الفصيحة مترجمة مكتوبة لمثل الغرض المتقدم .

- وتكون في الخامسة عشرة وصفاً لمشهد الحج بالعربية الفصيحة .

- وتكون في السادسة عشرة فِلْماً عربياً باللهجة المصرية على قناة فضائية غير مصرية .

- وتكون في السابعة عشرة برنامجاً طبياً عن العلاج بالأعشاب يقدم باللهجة اللبنانية .

- وتكون في الثامنة عشرة مسرحية خليجية باللهجة الكويتية تتخللّها على وجه الدعابة سماتٌ من اللهجة اللبنانية .

- وتكون في التاسعة عشرة إعلانا بالإنجليزية موسوما بالإغراء .

- وتكون في العشرين أغنية "شبابية" إغرائية بهامشها رسائل قصيرة بعاميات عربية مكتوبة بكيفيات لا نظام لها .

- وتكون في الحادية والعشرين تقريراً رياضياً بالعربية الفصيحة .

- وتكون في الثانية والعشرين حواراً دينياً بالعربية الوسطى .

- وتكون في الثالثة والعشرين فِلْما أجنبياً مترجما بعربية فصيحة مكتوبة .

- وتكون في الرابعة والعشرين برنامجا للأطفال يقدم بلهجة خليجية .

- وتكون في الخامسة والعشرين إعلانا عن برنامج أجنبي بالإنجليزية مترجمة إلى عربية فصيحة مكتوبة .

- وتكون في السادسة والعشرين برنامجاً فكاهياً يمزج من اللهجتين السورية واللبنانية .

- وتكون في السابعة والعشرين برنامجاً صحياً بمستويات لغوية ثلاثة : فصيح للمتقرير ، وعاميّ في مخاطبة الطفل ، وَوَسَط في وصف حالته .

- وتكون في الثامنة والعشرين مسلسلاً أجنبيا مترجماً بعربية فصيحة مكتوبة غير مشكولة .

- وتكون في التاسعة والعشرين فِلْماً أجنبيا مترجماً بعربية فصيحة مكتوبة غير مشكولة .

- وتكون في الثلاثين دراما اجتماعية باللهجة السورية على قناة فضائية تونسية .

- وتكون في الحادية والثلاثين دراما رومانسية من أمريكا اللاتينية مترجمة مدبلجة ناطقة بالعربية الفصيحة .

- وتكون في الثانية والثلاثين شعراً فصيحاً يلقيه مُبْدِعُه إلقاء أخاذا .

- وتكون في الثالثة والثلاثين دراما تاريخية تؤدى بعربية فصيحة .

- وتكون في الرابعة والثلاثين ندوة في شأن اجتماعي يتداول المشاركون والمشاركات فيه بخليط من عربية وسطى ولهجات محكية متباينة .

- وتكون في الخامسة والثلاثين مسابقة تؤديها المقدمة بلهجتها المحلية المحكية .... إلخ .

وإنما تكلّفنا سَرْدَ هذا ، وهو غَيْض من فَيْض ، أو ساعة في مدار الزمن الفضائي اللامتناهي ؛ لندل على ما أسلفنا ، ولعلنا نضبط تجليات العربية والشروط التي تثوي وراءها .

المستويات

ويمكننا أن نميز في التجليات اللغوية الخالصة مستويات محددة هي :

- الفصحى العليا في تلاوة التنزيل .
- الفصيحة "الإبداعية" بالفعل في إنشاد الشعر والغناء به ، والدراما الرومانسية المترجمة "المدبلجة" ، والدراما التاريخية .
- الفصيحة الصحيحة بالفعل في التقارير العلمية والاقتصادية والبرامج الوثائقية والنشرات الإخبارية عامة[1] .
- الفصيحة الصحيحة بالقوة وهي العربية المترجمة[2] المكتوبة .
- العربية شبه الفصيحة بالفعل وهي عربية كثير من مراسلي الفضائيات .
- العربية الوسطى المنطوقة وهي عربية المتعلمين والمثقفين والمتخصصين في المجالات المعرفية المختلفة (في مواقف الحوار والمشافهة) .
- اللهجات العربية المحكية العامية وهي ألسنة البرامج المحلية اليومية والترفيهية والمسلسلات والأفلام العربية .
- اللهجات المحكية المهجّنة بالإنجليزية أو الفرنسية .

الشروط

فإذا التمسنا الشروط التي تفسر هذه المستويات وجدناها على هذه الأنحاء :

- شرط "المقدس" الذي يقضي بأداء التنزيل مصوناً من أي تغيير أو تبديل .

(1) دون أن نغفل عما يؤخذ على أداء بعض المذيعين والمذيعات .

(2) وقد تقدم القول عليها في مبحث الترجمة - الترجمة الفضائية .

- شرط "التاريخي" الذي يتجاوز ادعاء أية لهجة وذلك في الدراما التاريخية وغناء الشعر .
- شرط الامتداد في الفضاء العربي ، وذلك في النشرات الإخبارية والتقارير العلمية والاقتصادية والبرامج الوثائقية وكثير من برامج الأطفال وأفلام الكرتون المدبلجة ؛ والمسلسلات الدرامية الرومانسية المترجمة المدبلجة .
- وشرط الاقتصاد الطامح إلى سوق استهلاكية عربية وهو شرط يلتقي الشرط المتقدم .
- شرط "المُتَرْجَم" عن لغة أخرى ، وهو يتجاوز ادِّعاءَ أية لهجة ؛ كما أنه يرنو إلى الامتداد في فضاء عربي شاسع ، كما يرنو إلى الرواج على نطاق واسع ، ويَخْبأ غرضا اقتصاديا في نهاية التحليل .
- شرط الاكتساب الذي يتمثل في استحكام السليقة العامية وتسللها العفوي التلقائي بل "القسري أو اللاوعي" إلى المخاطبات والحوارات والبرامج حتى التي تتناول المسائل الدينية .
- شرط الجهوية بدعوى الواقعية ، الذي يتمثل في فيض المسلسلات والأفلام العربية .
- شرط المتلقي وهو يتمثل في تبسيط الخطاب الديني لتقريبه إلى أفهام العامة ؛ أو جعله بالعربية الوسطى لسواء المتعلمين .
- شرط الكتابة فإنه يقتضي الفصيحة كما في ترجمة الأفلام والمسلسلات الأجنبية .
- شرط الحافز المهني وهو يتمثل في مقاربة الفصيحة كما في عربية مراسلي الفضائيات .
- شرط الحد الأدنى من الجهد ، وتلقائية "العواطف" لدى المرسلين وأمر المتفعة لدى المستقبلين وهو يتمثل في كتابة العامية في حواشي القنوات أو البرامج الترفيهية .
- شرط تلقائية الضرورة أو التباهي وهو يتمثّل في الخطاب المهجّن .

مفارقات

● **في تعليم العربية، وبرامج الأطفال، والمسلسلات الدرامية**

وتنطوي لغة الإعلام على مفارقات تنأى بها عن الانسجام أو تُخِلُّ بشروط خطابها الممتد ، وأنكاها ما يتعلق باستعمال الفصيحة والعامية في الدراما الاجتماعية .

ومن هذه المفارقات ما نشهده في البرامج التعليمية ؛ إن هذه البرامج تقدم دروساً تفتقرُ إلى الانسجام ، ومقتضى الانسجام أن يكون تعليم العربية الفصيحة بمثلها ولكن تعليم العربية فيها يتسم بالاستسهال والارتجال و "الاقتصاد في الجهد" . والظنُّ بدروسٍ تُقَدَّم لهذه القطاعات العريضة من

المشاهدين والمتعلمين أن تستوفي شروط الإتقان والجاذبية والسلامة . إنها تقدم الفصيحة بالعامية أو الوسطى وتقوم على أمثلة مصنوعة مشوبة باللحن(1) عند القراءة والكتابة على نحو يجعل البرنامج التلفزيوني نسخة من درس فردي "متخلف" ما تزال المؤسسة التعليمية تحاول أو ترفع شعار تطويره ليكون منافساً لدرس "متقدم" يقدم لتعليم إحدى اللغات "المتقدمة" أُمَمُها . وإذا كانت هذه حالَ درس يقدّمه معلم "ضعيف" في قرية نائية يفتقر إلى الحافز والتدريب -وليس هذا كله بعذر ولا مقبولاً - فكيف يستقيم أن يكون الدرس على هذا النحو وهو موجه إلى فضاء واسع ويقوم عليه فريق من الفنيّين والمتخصصين المدربين . . إلخ .

ومنها ما يتمثل في تعريب الشكل وتغريب المضمون ، وذلك في برامج الأطفال وأفلام الكرتون المترجمة حيث يكون الشكل ، في الغالب ، فصيحاً ، التماساً للرواج وسعة التداول ، ولكن المضمون يتجاوز التربويّ والخياليّ المُلْهم إلى مستوردات موسومة بالعنف الاجتماعي والمفاهيم الثقافية الاستلابية . إن الناظر في أثر هذه البرامج يجد أن أكثر انعكاسها يكون على سلوك الأطفال وأن أقله هو الذي يتسرب - إن تسرب - إلى ألسنتهم .

ومنها ما يتعلق بالدراما ، ووجه المفارقة فيه فاقع . يأسى عبد السلام المسدي لأن "نصيب الفصحى ما انفك يتقلص ، ونزعة الاستسهال بحكم قانون الجهود الأدنى ما فتئت تزرع الوهم بأن العربية لا تتلاءم مع برامج الحياة اليومية"(2) ، وهذا شأن الدراما الاجتماعية العربية جملة فإنها تتخذ اللهجات المحكية لساناً على حين تكون العربية الفصيحة هي المستوى اللغوي المتخذ للترجمة المدبلجة للمسلسلات والأفلام الأجنبية وخاصة من أمريكا اللاتينية على اختلاف موضوعاتها ؛ وجلها يتناول الحياة اليومية والشؤون اليومية ، ويتابعها جمهور عريض من الأميين بشغف ، ويصبح أبطالها من كساندرا واليخاندرو وفرناندو وألبسار ، شخوصاً حقيقيين مألوفين يتداولون الفصيحة في شؤون حياتهم الاجتماعية على حين يتشبث الممثلون العرب - ولا نسميهم - لئلا تستيقظ الحساسيات الجهوية - بلهجاتهم العامية!

---

(1) فحيناً يقول المقدم : سالمٌ فلاح ، فيصيب ،
ثم يقول من بعد ذلك : سالمُ يحب أرضه ، فيخطئ .
وحيناً يكون الرسم : سالمْ فلاحٌ ، بالضمة خطأ على الحالين ،
وحيناً يكون الرسم : ذهب سالمٌ إلى الطبيب ، وتكون
القراءة : سالمُ . . وهكذا ، وهو مثال وحسب مما شاهدته في برنامج لتعليم العربية في إحدى الفضائيات .
(2) فن التعبير الشفهي . . . الموسم الثقافي الثاني والعشرون لمجمع اللغة العربية الأردني ص77 .

حال العربية: وَجهٌ من التشخيص

ويذهب كمال بشر في تشخيص واقع الحال من هذه الجهة مذهباً إجمالياً يصيب جانباً من التفسير ، وذلك أنه يرى أن "أهم وسيلة لاكتساب اللسان المنطوق هي وسائل الإعلام المنطوقة .. الإذاعة والتلفزيون ؛ ذلك لأن هذا الجهاز الخطير يعبر عن الأمة كبيرها وصغيرها ، ولأنه هو الجهاز الناطق بلسان العرب ليل نهار . وإذا كانت الكلمة العربية مهزوزة ليل نهار ، فسوف تصل إلى ناطقها إلى المرأة وإلى الفلاح وإلى الصانع وإلى المثقف وإلى العامي مهزوزة أيضا ، وإذا خرجت الكلمة صحيحة استقرت صحيحة فصيحة في الأذهان ، وهكذا تستقر القواعد وتتماسك وتصل إلى بيئة لغوية صحيحة يستطيع الإنسان فيما بعد أن يستمد منها ما يشاء . واكتساب اللغة ، أية لغة على وجه الأرض يتلخص في جملة واحدة : اسْمَعْ وأَسْمِعْ . . ."(1) .

وهو يتوقف إلى الشائع مما تبثه الفضائيات على تفاوته ليرقب ما يكون من أثر ما يتلقاه السامعون من ضروب الأداء على تبايتها ، وخاصة تلك اللهجات المتباينة والثنائيات اللغوية ، والأنماط الدخيلة المتواترة ، وكأنما يفيء في رأيه هذا إلى ماقرره ابن خلدون قبلا : "أن السمع أبو الملكات اللسانية"(2) ، وإليه يعزى فساد السليقة العربية قديماً "بما ألقى إليها السمع من المخالفات التي للمتعربين من العجم"(3) "لجنوحها إليه باعتياد السمع"(4) .

إن وصفه الكلمة العربية بأنها مهزوزة – على الرغم من أنها تقلقل سكينتنا– يصيب جانبا من تفسير حالنا مع العربية هذه الأيام على الجملة . وهو نَظِيرٌ ما سمّاه شكري فيصل "اللجلجة"(5) التي تعترينا مِنْ قِبَل الازدواجية . ومستصفى هذا اننا بالمنظور المعياري الخالص لا نرى العربي يؤدي العربية بمثل طمأنينة الآخرين وطلاقتهم في لغاتهم . ولعل جمهرة الناطقين بالعربية غير المعنيين بوعي الظاهرة اللغوية وَعْيَ المتخصصين لا يجدون ما نجد ، بل يَجْرُون في استعمال اللغة على مثل النواميس التي جرى عليها المتكلمون باللغات قبل أن تُقَعَّد!

وإنما توسَّعْنا في سَوْق هذا كله لأننا نرى فيه ترجمة عما يترتب على هذا التنوع في المستويات اللغوية التي نتعرض لها في وسائل الإعلام .

---

(1) ندوة قضايا اللغة العربية في عصر الحوسبة والعولمة ص16 .

(2) المقدمة ، ص 1056 ، 1057 .

(3) المصدر السابق ص1056 .

(4) المصدر نفسه ص1057

(5) قضايا اللغة العربية المعاصرة (بحث في الإطار العام للموضوع) في : من قضايا اللغة العربية المعاصرة ص39 .

ولسنا ندفع هذا على الجملة فهو يصيب وجهاً رئيساً من التشخيص ، ولكن الإعلام-على انفساح مداه - ليس بمعزل عما يكتنفه من شروط .

فإذا كان تلهيج الثقافة - بعبارة المسدي(1) - يمثل مفارقة تنأى عن الانسجام ؛ إذ تجري العبارة عن الإبداعي بالعامي ، امتثالاً لقانون المجهود الأدنى ، فإن عاملا آخر قد دخل على وسائل الإعلام ، وذلك في أداء المراسلين . فإنهم بأمر انسجامهم مع مستوى النشرة التي تقرأ بعربية فصيحة صحيحة(2) ، وأمر الحافز المهني والمحافظة عليه ، والتهيؤ والممارسة قد طوروا مستوى أدائهم إلى مرتبة متدانية من الفصيحة . وهذا مثال وحسب على وجه إيجابي من وجوه التحول المنشودة نُذَيِّل به القول في "المفارقات المتقدمة" .

العربية في الصحافة - المزايا والتجليات

أما الصحافة فإن لها على الفضائيات مزية ؛ ذلك أنها تعتمد العربية مكتوبة ، فهي ، لذلك ، سجلّ عربي يومي مُدَوَّن ، ولها من هذه الجهة مزية إضافية ذلك أن "المكتوب" باق(3) والمنطوق أني عابر (3) . وإذن تقدم لنا الصحافة كل يوم عرضا للوقائع بالعربية المكتوبة - وهي فصيحة بالقوة - في المشهد المحلي (القُطْرِيّ) والعربي والدولي . وهو عرض شامل للأخبار والتحليلات السياسية ، والاقتصادية ، والرياضية ، والفنية . وكل ذلك بعربية صحيحة على الجملة(4) إلا حواشي هينة من رسوم الكاريكاتير ، وبعض الإعلانات التجارية بالعامية وبعض الإعلانات الواقعة في دوائر الأعمال والاقتصاد بالإنجليزية .

هي عربية ناطقة عن الحياة . وإنما ننوه هنا بأنها تتخذ الفصيحة لسان التعبير عن الشؤون اليومية العادية وإذن تطوعها للتعبير عن أمور كان العرف الاجتماعي يراها موضوعات للخطاب العامي .

وهي إلى ذلك كشكول بعبارة الأوائل تأخذ من كل مجال بطرف ؛ إذ هي تتجاوز المشترك من الموضوعات وتقدم العربية لسانا لأغراض خاصة بما تخصصه للاقتصاد ، والعلوم وتكنولوجيا

---

(1) فن التعبير الشفهي . . الموسم الثقافي الثاني والعشرون لمجمع اللغة العربية الأردني ص 87 .

(2) على الرغم مما يؤخذ على أداء بعضهم أو بعضهن في تحقيق الأصوات أو ضبط الأعلام ، مثلا!

(3) نقرر هذا على الإجمال ونحن نعلم أن العربي قد يقرأ الصحيفة ويطرحها ولكنها تظل محفوظة على الزمان في دائرتها وفي دوائر التوثيق الوطنية . ونحن نعلم أيضا أن بعض المنطوق في الفضائيات قد يدون في أقراص مدمجة . ولكن هذه التفاصيل تظل جزئية أو دالة في حد الاستثناء .

(4) ولسنا نغفل عما قد يقع فيها من أخطاء الطباعة والأخطاء الشائعة وذلك أمر لا تنفرد به الصحافة فهو مايزال ظاهرة في جل ما ينشر بالعربية .

المعلومات ، والرياضة ، والأدب . . . إلخ . وإذن يُذْكَر لها ، هنا ، أنها تجعل العربية لسانا لموضوعات ما تزال المؤسسة التربوية والأكاديمية تنأى بها عنها ؛ إذ تنحو هذه المؤسسات منحى اتخاذ الإنجليزية والتعليم بها في مجال الأعمال والتكنولوجيا . أما الصحافة فإنها تقدمها – ولو بقدر وعلى أنحاء أولية ميسرة – للقارئ العربي بالعربية . ومهما يكن الدافع الترويجي وراء ذلك فإنه يؤنس بأن القارئ العربي "المتلقي أو المستهلك" ما يزال مرْعيًا بعين الاعتبار .

وتتفاوت مستويات العربية في الصحافة ، وذلك أمر طبيعي عائد إلى الموضوع وإلى الأسلوب ، فلكل مقام مقال ، ولكل كاتب أسلوب . وقد تتباين هذه المستويات من الكتابة عند درجة الصفر–أو كما قال رولان بارت – إلى الكتابة بما يشبه أن يكون مجازاً على الجملة كما في الإعلام الرياضي ، حيث تصبح الكرة قذيفة واللاعب بطلاً أسطورياً ، والمدرب نجماً بل حيث يحس من يتابع أخبار المباريات كأنما هو يتابع عرضاً حياً يقدمه مراسلٌ عسكري من الميدان .

بل إن الإعلام الصحفي قد طَوَّعَ العربية لخطاب لغوي مشترك(1)واستدعى بما هو كذلك أن يتخلّى كثير من الكتاب عما عُرِفَتْ به أساليبهم من العسر وصعوبة المتناول أَجْلَ أن تصل "رسالتهم" إلى جمهور الصحافة العريض ، ومَثّل ذلك العقاد (2) . بل لعله لسَبَبِ هذا بَعْضُه طَوَّرَ كثيرون أساليب قريبة جذابة في تناول مسائل العلم الشائكة كما في كتابات أحمد زكي في مجلة العربي(3) . وهكذا أسهمت في تحقيق "ديمقراطية" القراءة!

وإذا كانت الصحافة بيانا لغويا آنيا إذ تقدم لنا ملامح المشهد في فضاء المكان هذا اليوم كما كان أمس (مثلا) . فإننا نستطيع أن نجعل (أمس) بما هو اليوم الذي قَبْلَ يومنا فحسب ، نجعله (الأمس) بما هو الماضي في دورة الزمان العربي الإسلامي بل الإنساني . ذلك أننا نقرأ فيها آثاراً من الحديث ، وأمثالاً وحكماً من أمثال العرب وحكمهم ، ومختارات من شعر الأوائل ، ونماذج من آداب الأمم الغابرة . . . إلخ .

إن يوم الصحيفة يطوي آفاق المكان الحالي كما ينطوي على صفحات من دفتر الزمان الماضي .

وجوه النقص

مَثَّلَتْ الصحافة منذ البدء في القرن التاسع عشر عاملاً في إذاعة العربية . لكنها كانت –في

---

(1) لغة الإعلام بين متطلبات : الرسالة والوسيلة والجمهور ، تيسير أبو عرجة ص3 .

(2) المرجع السابق ص3 .

(3) ونسبتها إلى الصحافة ليست مجازا كلها فإنها خطاب عربي ثقافي يتقاطع مع الصحافة بالضرورة في هذا الجانب على الأقل إذ إن ما تنتظمه من المواد يشبه ما نجده في الصحافة اليومية من العلمي والثقافي!

عهدها الأول ذاك– أدنى إلى الصنعة اللفظية[1] وكانت مشوبة بالركاكة . ثم اتسع نطاقها في تناول الحياة الواقعية وتطورت إلى ضرب من النثر المترسل الفصيح . ولكنه كان يقع فيها صنوف من اللحن والوجوه التي تقصر عن معيار الصواب الأعلى ، فأصبحت هدفاً للمشتغلين بالتصحيح اللغوي . وكان فاتحة ذلك كتاب إبراهيم اليازجي (لغة الجرائد) ، وكان منه بعد ذلك كتاب أسعد داغر (تذكرة الكاتب) ، وكتاب صلاح الدين الزعبلاوي (أخطاؤنا في الصحف والدواوين) . وما يزال المشتغلون بالعربية يرقبون لغة الصحافة ويرصدون أخطاءها النحوية والصرفية[2] والمعجمية والتركيبية[3] والإملائية[4] . وإن بقي أثر ذلك الرَصْد والتصحيح مِنْ قَبْلُ ومن بَعْدُ محدوداً . ولكن ذلك كله لا يخرج على المكتوب بالعربية ، في هذه الأيام ، عامة .

وتبقى لغة الصحافة عاملاً يومياً مستمراً ثابتاً في حضور العربية ، وهي جارية على قواعد النظام اللغوي . إنها فصيحة بالقوة ؛ إذ هي غير مشكولة[5] ، وتفصيحها بالفعل مرهون بالقارئ المدرب وتدابير المؤسسة التعليمية ، والمؤسسة العلمية والمؤسسة الإعلامية .

الخصائص

وقد يذهب بعض الباحثين في لغة الإعلام إلى أن اللغة الصحفية تُؤْثِر الفقرات القصيرة على الفقرات الطويلة [6] . وإذا كانت حدود الفقرة غير متعينة ، وإذن تكون هذه الخاصية غير محددة ؛ فإن في اللغة الصحفية – على هذا المستوى – ظاهرة لافتة . إنها ظاهرة يتولد فيها النقيض من النقيض . وبيان ذلك أننا نفترض أن الصحافة موجهة إلى جمهور عريض ، وأنها لذلك تتوخى اليسر والسهولة ، وأن الجمل القصيرة أقل تعقيدا من الجمل الطويلة ، ولكننا نجد أن الخبر الصحفي ، مثلاً ، يمثل تركيبا لوليبا ينتظم ضروبا من الجمل المتداخلة وأن الخبر كله يمثل – في التحليل النهائي – جملة واحدة . إن جملة الخبر الصحفي هي أطول الجمل العربية المستعملة على الإطلاق قديما

---

(1) تقويم لغة الصحافة العربية اليوم ، لتيسير أبو عرجة ، ندوة اللغة العربية ووسائل الإعلام ، ص15 وما بعدها .

(2) الأخطاء المعجمية والصرفية والنحوية ، لنهاد الموسى ، ندوة اللغة العربية ووسائل الإعلام ، ص103 وما بعدها .

(3) الأخطاء النحوية والتركيبية ، لجعفر عبابنة ، ندوة اللغة العربية ووسائل الإعلام ، ص119 وما بعدها .

(4) الأخطاء الإملائية الشائعة في الصحافة ، الشريف علاونة ، ندوة اللغة العربية ووسائل الإعلام ، ص129 وما بعدها .

(5) لعل ترك الشكل (إلا في مواضع محدودة ملبسة وفي نصوص محددة) عائد إلى الظن بأن الضبط غير لازم في معظم الأمر وأنه غير ملتبس على العربي ، وعائد إلى التساهل في أمر الإعراب وإلى سبب اقتصادي يتخذ من هذين السببين مسوغا لأن حركات الضبط والإعراب تستلزم نفقة إضافية .

(6) لغة الإعلام ، تيسير أبو عرجة ، ص7 .

وحديثا . إنها تبدأ مع بداية الخبر ولا تنتهي إلى معنى يحسن السكوت عليه إلا مع نهايته . إن الخبر الذي يقع تحت أي عنوان رئيس في صحيفة عربية يمثل نموذجاً مشخصاً لهذه الملاحظة . وإنما سُقْتُ هذه الملاحظة لأنها تفضي بنا إلى نقيض المذهب المتقدم قبلاً ؛ الجمهور عام فالجمل القصيرة أوضح له وأقرب متناولاً ، ولكن الخبر الرئيس الذي يتوجه إلى الجمهور يصاغ بجملة واحدة لا نظير لها في تراكيبها وطولها . وتفسير ذلك عندي أن هذه الجملة التي تحمل الخبر إنما تحيل إلى خبرة مشتركة واقعة في مألوف الجمهور فهو يتابعها دون أن يضل في مسالكها .

مظاهر التحول

ويتصل بالقول في لغة الصحافة على مستوى الشكل أن تركيب العناوين الرئيسة يغلب عليه أن يقوم على الجملة الاسمية التي خبرها جملة فعلية كما في :

- مجلس النواب يقر مشروع قانون الموازنة .
- الوكالة تقرر إغلاق ثلاثة معاهد بالضفة .
- المنتخب الوطني يفوز بالكأس الذهبية .
- الحكومة تقرر استحداث ديوان للمظالم ... إلخ .

وهو نمط في التركيب أشاعته العناوين الصحافية على نطاق واسع . وهو على كل حال أحد أنماط الجملة الاسمية في المُؤَسَّس من قواعد النحو وإن كان فريق من أهل العربية يحمله على تأثير الترجمة عن الإنجليزية التي هي لغة جملة اسمية أو (SVO) ؛ إذ يَرَوْن أن العربية في الأصل والغالب لغة جملة فعلية (VSO).

يضاف إلى هذا أن العناوين الصحفية الكبرى قد استبدلت بالقول أوالتصريح وتصاريفهما علامة الترقيم (:) إذ إن كثيراً من هذه العناوين يبدأ بالاسم تليه نقطتان تليهما عبارة القول أو التصريح كما في :

البابا : حرية التعبير لا تعني الإساءة إلى الرموز الدينية .

رئيس الوزراء : الوحدة الوطنية خط أحمر .. إلخ

آفة التحيز والغفلة

وإنما نتوقف بعد هذا إلى مطالب ثلاثة تتناول وجوهاً من العلاقة بين الصحافة واللغة على مستوى المقاصد والمنطويات : في العنوان ، والافتتاحيات ، والمعجم .

إن الصحافة –على الرغم مما تقدم– قد تكون مرآة مقعرة وقد تكون مرآة محدبة في آن معاً . ويتمثل ذلك على أنحاء شتى . نقتصر منها على **العنوان** . قد نفترض أن العنوان تدبير عملي تتخذه الصحيفة بأن تقدم للقارئ تلخيصاً[1] لما تحته من الخبر . ولكن العنوان يمثل نموذجاً فاقعاً لما قدمنا إذ إنه يخبأ هوى المحرر وانحيازه ؛ فقد يصوغه ليضيء معطى هامشياً من الخبر . ولعل مقارنة العناوين التي تصوغها صحف مختلفة للخبر الواحد كافية للاستدلال على هذا الملحظ ، بل إن التباين قد يتحول إلى ما يشبه التقابل الحدّي إذا كانت الصحف تنتمي إلى جهات ذات مواقف إيديولوجية متباينة!

وينطبق هذا على الافتتاحيات الصحفية المرتهنة بمواقف مالكي الصحيفة أو الخطوط الحمراء التي ترسمها الجهات الرسمية .

على أن اللغة الصحفية تتلعب بالمعجم اللغوي[2] هنا تلعُّباً بارعاً ويميز الإعلاميون الصحفي عن الأديب بأن الأول "مردد ، مقلد ، ناقل"[3] وأنه في سباق مع الزمن وأنه يحترق بالسرعة[3] .

إن هذه الصفات لا تستقيم على إطلاقها ذلك أنها تنعكس على اللغة ، في بعض الأحيان ، انعكاساً خطيراً .

فقد وَرَدَ في إحدى الصحف اليومية العربية في زماننا هذا خَبَرٌ هذا نصه :

ذكر المراسلون في الضفة الغربية أن شحنتين من المتفجرات انفجرتا بعد ظهر أمس في مستوطنتين يهوديتين في الضفة الغربية دون أن تسفرا عن ضحايا أو خسائر . وأشار المراقبون إلى أن هذه أول مرة تقع فيها اعتداءات إرهابية في القرى اليهودية في الضفة الغربية . وقد وقع الانفجاران في متجري بقالة في شيلو (السمارية) إحدى قرى جماعة غوش إمونيم "كتلة الإيمان" وكيريات عربا[4] الحي اليهودي في الخليل .

وهكذا أغفلت العجلةُ – إنْ أَحْسَنَّا الظن– الصحفيَّ عن فِعْلِ اللغة ؛ إذ إنه يُقِرُّ بها أن مقام الغاصب في أرضنا استيطان (طلب وطن) ، وأن مقاومتنا إياه (اعتداءات إرهابية) ، وأن له (قرى) في الضفة الغربية ، ويترجم غوش إمونيم بـ (كتلة الإيمان) . وَيمثِّل هذا يسرِّب إلى الإنسان العربي أن

---

(1) لغة الإعلام ، لتيسير أبو عرجة ، ص8 .

(2) ليس المقصود هنا تطور المعجم تطوره الطبيعي ، وإلا فإن الجريدة نفسها قد فارقت معناها الذي عرفه لها الأوائل ، إنما نقصد توجيه الألفاظ لأغراض إعلامية خاصة .

(3) لغة الإعلام لتيسير أبو عرجة .

(4) كذا في النص وصوابه (أربع) .

بلاده المغصوبة وطن الآخر المنشود ، وأن مدافعته للغاصب إرهاب واعتداء ، وأن مقام الآخر المحتل مستقر طبيعي (قرية) ، وأن الآخرين المتعصبين المتطرفين هم كتلة الإيمان[1] .

إن لنا أن نفترض أن الصحفي محترف ذو موقف يمكنه من تلقائية الفرز ، وأنه ذو حساسية لغوية تهديه أن يخرج بداعي السباق مع الزمن عن الجادة فتضل به سبل المسالك إلى مهاوي المهالك .

ومن هذا القبيل ما يجري في الصحافة من عبارات مثل : استحقاقات المرحلة ، وتحديد الأسعار وتنظيم الأسرة ، والمحادثات الصريحة ، والشفافية . إن الكلام على "استحقاقات المرحلة" يخرج بالكلمة عن أصل المراد بها في جذرها وهو "الحق" إلى إفادة ضرب من الامتثال البراغماتي ، وتنطوي على "تنازلات" لمفروض واقع "باطل" ، كما أن "تحديد الأسعار" يمثل تمويها لتخفيف وقع "رفع الأسعار" . أما "تنظيم الأسرة" فيمثل استثمارا للملحظ الإيجابي لمعنى "التنظيم" بديلا عن تحديد النسل الذي يستفز في الموروث الاجتماعي والثقافي شعورا بالمدافعة لشيء مُسْتَكْرَه .

وأما عبارة "المحادثات الصريحة" فهي عبارة غير صريحة في الدلالة على لقاء متفجر بالخلاف والإرغاء والإزباد . وأما "الشفافية" فحجاب كالليل دون شمس الحقيقة .

رَجْعُ النظر

وصفوة القول أن الإعلام يمثل إعلانا يوميا عن حضور العربية في المشهد العربي بل في الفضاء الكوني .

وهذا تقرير نرسله على الجملة ، فأما التفسير فيقتضينا أن نتوقف إلى مطلبين : مطلب لغوي خالص يتعلق بالعربية في ذاتها ، ومطلب خارجي يتعلق بالشروط التي تتجاذبها .

أما على مستوى المطلب اللغوي الخالص فإن العربية ، في الإعلام ، كما هو حالها في الفضاء العربي ، ليست عربية واحدة بل مستويات أو تنويعات متعددة ، وهي مستويات تتراوح بين الفصحى والفصيحة بالفعل والفصيحة بالقوة وشبه الفصيحة والوسطى واللهجات المحكية المتنوعة والخطاب الهجين .

وواضح أن الثبوت بمعنى البقاء على الصفة التاريخية المستمرة إنما يتمثل في الثلاث الأول ؛ ذلك أن سائر المستويات تمثل تحولات متفاوتة ، بل إن الفصيحة بالقوة وهي المكتوبة غير المشكولة – مهما تكن دواعيها ومقتضياتها – تحتمل أن تكون فصيحة بالفعل ولكنها في معظم الأحيان ليست كذلك لأن جمهرة مَنْ يقرأون بالعربية يخطئون قراءتها قراءة صحيحة .

---

(1) العربية والأمة ، في الثنائيات في قضايا اللغة العربية ، لنهاد الموسى ص235 .

فإذا التمسنا تفسير هذا التنوع على مستوى الشروط وجدنا أن الفصحى إنما تُلْتَزَم في "المقدس" وأن الفصيحة تُلْتَزَم في "التاريخي" (إذ إنه ليس ملكا للهجة) و "إزاء الآخر" (إذ إن الهوية العربية الجامعة عند ذلك هي المقابل) ، و "الفضاء العربي" (إذ إن لهجة بعينها لن تكون خياراً متقبلا) .

أما المستويات الأُخَر فإن تحوّل العربية فيها ناجم عن مكتسب العامية ؛ ذلك أنها تتسرب إلى ألسنة الناطقين بها على نحو تلقائي لا واع . فإذا جمعوا إلى مُكْتَسَب العامية تَعَلُّم الفصحى أصابوا عربية وسطى وغَدَتْ كالسليقة فيهم ، وإذا اجتمع إلى ذلك نزعة إلى "التباهي" ، مثلاً ، كان الخطاب هجيناً . على أن جديراً بالاحتفاء هنا أن نقرر أنه إذا توافر حافز مهني يقتضي التهيؤ ويقترن بالدربة وينشد الانسجام مع سياقه أصابوا شبه الفصيحة .

أما العاميات فهي إعلان جهوي خالص مهما تكن مسوغاته من دعوى الواقعية . إن العامية في الدراما غير منسجمة مع مطالب "الفن" الذي تتمثل واقعيته في "الممكن" ، ويفضح اتخاذها في المسلسلات العربية أن المسلسلات المترجمة والمدبلجة التي تعبر عن اليوميّ والاجتماعيّ والعاديّ تُتَرْجَم إلى العربية الفصيحة دون نكير ويتابعها الكبير والصغير!

الفصل السابع

آمر الاقتصاد

[illegible]

إنْ تَغَنَّيتُ قالَ : أَحْسَنْتَ! زِدْني

وَبِـــ (أحســـــت) لا يُباع دَقيـق

جَحْظة البرمكي

سأل مُديرُ السوق الكبرى الموظفةَ الشابة العاملة لديه :

- لماذا اخترتِ أن يكون دوامك مسائيا؟

- كي أوفّق بين "الدوام" وبرنامجي الجامعي .

- وفيم تتخصصين؟

- في اللغة العربية .

- وماذا تعملين باللغة العربية؟

التفتت الموظفةُ الشابةُ إلى قناة فضائية متخصصة في الإعلان ، فشاهد المديرُ رجلاً وامرأةً يدل سَمْتُهما على أنهما من الناطقين بالإنجليزية ، يُقَدِّمان جهازا للياقة البدنيّة ويروّجان مزاياه في نتائجه وسهولة استعماله ، كلّ ذلك بحوار جذاب بالعربية الفصيحة .

كان مدير السوق يرى الإنجليزية وسيلته في عقد الصفقات وما تستلزمه من الاتصالات والمراسلات ، ولكنه وجد مؤسسةً كبرى أخرى تتعهد تسويق ضروب من الأجهزة والمنتجات وتقصد إلى ترويجها لدى المستهلك العربي من المحيط إلى الخليج ، فاتخذت لذلك قناة فضائية جنّدت لها مترجمين ومدرّبين على الأداء العربي الفصيح وفنيين يوائمون بين هيئة المتحاورَيْن ليبدو حوارهما (المدبلج) بالعربية الفصيحة طبيعيا تلقائيا مقنعا . ويعكس الحوار بالعربية أفضل ما طوَّره الآخر من مناهج فن الإعلان للتسويق والترويج بالإغراء والتمثيل والإقناع . (وذلك دليل أن العربية قادرة على موازاة الإنجليزية فيما طورته من هذه الأساليب الفنية المتطورة في التسويق) .

ويلي كُلَّ إعلان عن كلِّ منتج توجيهٌ بالعربية الفصحى للراغبين يَسْرُد لهم أرقام الهواتف التي يمكنهم الاتصال بها للاستفسار والدفع بالعملات المحلية ، وهي هواتف موزعة على بلدان الفضاء العربي من الخليج إلى المحيط . (وهذا تفسير اتخاذهم للعربية الفصيحة ، فإن اتخاذ أية لهجة سيقصِّر بهم عن بلوغ أوسع مدى يطمحون في الوصول إليه) .

لعل هذه الواقعة المشخصة تمثل مدخلاً مناسباً لمحاورة هذه العلاقة المركبة بين العربية والاقتصاد . إنها تقع في آن واحد ، في سياق واحد هو السوق مَجْلَى التداول الاقتصادي المباشر حيث العرض والطلب والمنتج والمستهلك .

وإنما نقول إنها علاقة مركبة لأنها –عند تفكيكها – تفضي بنا إلى عناصر متشابكة يمثل أحدَها موقفُ مدير السوق ، وماهو – للخاطر الأول – بشاذ ، لكنه ، في الحقيقة محدود منقوص ، وهو – لسوء الحظ ليس موقفا فرديا إذ إنه شأن مَنْ يرون أنه "من المفروغ منه" "أن الشؤون الاقتصادية وخاصة التجارة لا يمكن استعمال اللغة العربية فيها (محليا وعربيا وعالميا) إذ استعمالها يعرقل المصالح"[1] .

بل إنه ليس مقتصراً على الاقتصادي العربي ؛ ذلك أن البنك الأهلي الألماني يستعمل الإنجليزية في تعاملاته على الرغم من أنه لا روابط بينه وبين الولايات المتحدة وبريطانيا[2] .

وليست "أفضلية" اللغة الإنجليزية أو تفضيلها في هذا السياق إلا وجهاً واحداً من وجوه تميزها على أنها لغة مشتركة (Lingua-Franca) يتعامل بها طرفان لا يعرف كل منهما لغة الآخر .

إن هذه "الأفضلية" تثوي وراءها عوامل متعددة جاءت في ركاب العولمة ، وبَعْضُ حديث ذلك آتٍ[3] .

وإنما نقتصر ، في هذا المبحث ، على هذا البعد ، لنقرر أن الجدوى والمنفعة يمثّلان واحداً من شروط الأفضلية . ولذلك أمثلة شتى من الماضي الأمريكي البعيد ، والحاضر العربي العتيد .

- – فقد انزوت الهولندية والفرنسية والألمانية والإيطالية من حيث هي لغات دارجة (Vernacular) في العالم الجديد (أمريكا) حتى قبل أن تنزوي بعض اللغات المحلية الأمريكية . ولم يكن الناطقون بالإنجليزية ، يومذاك ، بالضرورة ، أرقى "تعلّما" ، بل الحق أن قسما كبيراً منهم قبل "الثورة" لم يكونوا كذلك . لكن تنامي استعمال الإنجليزية في النظام الاقتصادي الإمبريالي – تعضده عوامل سياسية أخرى – هو الذي أدى إلى تفضيلها على اللغات الأخرى ؛ ذلك أن الإنجليزية كانت لغة واعدة بفرص لم تكن تتيحها اللغات الأخرى[4] .

– وتمثل الإنجليزية ، لدى قطاع عربي عريض ، لغة الفرص الموعودة . ولعل الإعراض عن العربية وتفضيل الإنجليزية عند اختيار التخصص الجامعي مَرْجِعُه إلى هذا الاعتقاد . وليس حسناً

(1) عودة إلى المسألة اللغوية ، الطاهر لبيب ، في : النهوض العربي ومواكبة العصر ، مراجعة وتقديم صلاح جرار ، مؤسسة عبد الحميد شومان ، عمان – الأردن 2005 ص173 .

(2)Language Based Issues of Globalization & the Internet, by Lauren Labrecque pp. 3

(3) ينظر مبحث أثر العولمة من هذا الكتاب .

(4) Languae Endangerment: What have Pride and Prestigue got to do with it, by Salikoko S. Mufwene.

ولكنه من قبيل التذكار أن نستحضر هنا أن أحد وزراء التربية في أحد الآفاق العربية – وهو ممن يوصفون بالتزامهم الإسلامي الصريح – قد منح معلمي اللغة الإنجليزية علاوة نُدْرة امتثالا لأمر السوق في العرض والطلب .

- ولكن ارتباط سيرورة اللغة والإقبال عليها بموضوع الجدوى "الاقتصادية" والفرص الموعودة يتخذ في العربية ظاهرة لافتة من المفارقة . فعلى حين يستفحل الإعراض عن التخصص في اللغة العربية حتى لَيَنْجُم عنه موقف مستبطن غير معلن ينتقص العربية ومعلميها ، يزداد الإقبال عليها وتشحذ الهمم لإتقانها قراءة وأداء لدى المذيعين ومعدّي برامج الأطفال وممثلي المسلسلات التاريخية بل الدراما العاطفية المدبلجة ؛ لما تمنحهم إياه العربية الفصيحة من مزايا "النجومية" والفرص المادية . . . إلخ[1] .

وتمثل "السوق" في الحياة العربية المعاصرة إعلاناً صريحاً عن هذه الأفضلية ، وإنْ اتخذت طابعاً ثنائياً . وهي تتجلى في صور متنوعة ، بعضها يتعلق بتسمية "المحال" ابتداء ، وبعضها يحمل سِمَتَه التي وَسَمَه بها "المنتج" ، وبعضها يترجم اسمه إلى الحروف اللاتينية . وتمثل هذه الثنائية "قذى" في عين اللغوي العربي خاصة . وقد تداول اللغويون هذه الظاهرة على أنها مظهر من مظاهر "الاستلاب"[2] و"انصياع المغلوب" ، وجأروا بالنكير عليها واستغاثوا بأولي الأمر ظانّين أن القرار السياسي هو الحل . وحين حاول بعض الباحثين[3] أن يتجاوز الإنكار والجَذْبَ إلى الحوار الصعب وجَهِد أن يكون موضوعياً ونزل إلى الشارع يسأل أصحاب المحال عن علة هذه العلة جاءه الجواب مباشراً يعلن عن أن الأمر لا يعدو اختيار "الرائج" واستثمار قدرته على الترويج ، فهذه الأسماء وهذه السمات التجارية قد اكتسبت لدى "المستهلك" صيتاً وجاذبيةً ، فالتاجرُ يسلك سبيل "المصلحة" و "المنفعة الذاتية" عن أقرب السبل . وأنّى له أن يسبح وحده ضد التيار؟

إن أمر السوق يمثل تحدياً لسيرورة اللغة على النحو الذي ينشده اللغويون . وأمر السوق في هذا

---

(1) بل إن الحافز الاقتصادي ووعد الفرص يثوي وراء إقبال كثير من الناطقين بغير العربية إلى تعلمها ، وقد شهدتُ ، فيما شهدتُ ، بعض دوائر الاستشراق في الغرب عزوفا عن دراساته التقليدية إلى تعلّم العربية لغاية نفعية مباشرة إبان الطفرة النفطية في السبعينيات من القرن الماضي .

(2) ينظر في تفصيل هذا الدراسة الميدانية التي أجراها عيسى برهومة وهي : اللغة والتواصل الإعلاني : مثل من انتشار الأسماء الأجنبية في اللافتات التجارية في الأردن ، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني ، العدد 69 ، السنة التاسعة والعشرون ، جمادى الآخرة - ذو القعدة 1426هـ تموز - كانون الأول 2005م ، وص 85-86 خاصة .

(3) العولمة اللغوية : التداول بالإنجليزية في العالم العربي ، مثل من الأردن ، لوليد العناتي ، في : العربية وتحديات العصر ، بتحرير خالد الجبر ، جامعة البترا 2005 ؛ ص 135-137 .

الزمان ينتظم كل ما ينتجه "الآخر" . وإن مما يؤسف له أن ما ينتجه الآخر قد أصبح جُلَّ مشربنا ومطعمنا وملبسنا ، وأصبح مركبنا في البر والبحر والجو ، واستغرق الضروري الحيوي والكمالي الجمالي ، مما نمتع به أبصارنا ونشنف به أسماعنا . هو حليب الأطفال وألعابهم ، وهو عالم الشبان بشعاراته على صدورهم وموسيقاه ورموزه التجارية من أعالي رؤوسهم إلى أخامص أقدامهم .

لقد أصبح المعجمُ العربي اليومي شبْهَ أعجمي . وقد تجاوز أمرُ السوق أمْرَ المفردات والأسماء إذ تغلغل إلى تركيب اللغة ، ولكنْ بالعامية هذه المرة ، ودخل حرم الجامعة فغلب الاقتصاديُّ الثقافيَّ والتربوي . وليس هذا التجاذب بين السوق واللغة حديثاً ، فمنذ العهود الإسلامية الأولى أطلق النحوي زفرته اليائسة - إذ رأى حمول التجار مكتوبا عليها من أبو فلان إلى أبو فلان : سبحان الله يلحنون ويربحون ونحن لا نلحن ولا نربح .

فإذا رجعنا النظر في علاقة العربية بالاقتصاد وجدناها تتخذ أنحاء شتى ؛ أولها من الواقع الراهن المتشخص في زمن العولمة ، وثانيها من الماضي البعيد الممتد في الفضاء الإسلامي ، وثالثها يفيء إلى الحاضر العربيّ .

أما الأول من الواقع الراهن فإن العربية فيه تمثل مطية لاقتصاد الاستهلاك بامتياز . إنها تترجم بفصاحة عالية منطوقة ، وكفاية مهنية تسويقية عالية غير مسبوقة ، عن كل ما أنتجه الآخر ، من المطعم والمشرب والمركب ، وأجهزة التصفيف والتنظيف والتنحيف ، بل إنها تترجم مكتوبةً كل ما يلزمنا استهلاكه من أجهزة وأغذية وأدوية!!!) وكأنما تسبق ، بدافع الجدوى والوصول إلى المستهلك ، دوائر تعريب العلوم كالطب والصيدلية (مثل ذلك هذه البيانات المتعلقة بتركيب الدواء ووجوه استعماله إلخ) .

وهذا بعد براغماتي خالص . فالبراغماتية تصف النشاط الإنساني ، والنشاط اللغوي نشاط إنساني تجري عليه نواميس سائر الأنشطة الإنسانية . إن الشروط التي تحكم "الكلام" من حيث هو إنتاج ، و "الفهم" من حيث هو استهلاك ليست مباينة لشروط "الإنتاج" و "الاستهلاك" في المجتمع بصورة عامة . ومنطوى هذا أن أي "ملفوظ" أو "نص" أو حتى جملة مفردة إنما هي ما يضعه أحدنا يرْفدُه في ذلك - ولو رفدٌ يسيرا - صديقٌ . وتشكل مقاصد المتحدث واستجابة السامع إنتاجاً و"استهلاكا" . إنّها ليست عملية في فراغ ، بل أمر يتشكل بشروط الواقع الفعلي بين المتخاطبين على نحو ما تكون عليه حال المنتج والمستهلك في مواقف التعامل الاجتماعي المادية(1) .

(1) Pragmalinguistics: Theory and Practice, by Jacob L. Mey, pp. 11

إن اتخاذ العربية الفصيحة ، إذن ، لساناً لترويج المنتجات وتخصيص قنوات فضائية لهذه الغاية يأتي في سياق فلسفة العولمة وخاصة مفهوم الليبرالية الجديدة التي "تدعو . . إلى معاملة جميع الأنشطة الإنسانية والمنتجات البشرية بما هي سلع"(1) ووَضْعها "بين يدي أصحاب المشاريع والشركات التجارية لدمجها في السوق وإدارتها وتنميتها بشكل أفضل بيعاً وشراء"(2) .

فإذا اقتصرنا على البعد اللغوي وجدنا العربية حية فاعلة إنتاجاً واستهلاكاً ، أما إذا مددنا الطرف إلى البعد الاقتصادي فإننا نجدها مطية ذلولا للاستهلاك وأداة طيعة للتعبير عن الإنتاج من موقف المتلقي فحسب .

إن ما تلقاه العربية من الإعراض وما يطغى على السوق العربية من هيمنة اللغة الثانية برموزها وأعلامها مرجعه إلى غياب الفعالية الاقتصادية المنتجة من جانب الأمة .

وإن التوسل بالشعار الثقافي والاستغاثة بالقرار السياسي ليسا كافيين ؛ لأنهما محتاجان إلى عنصر ثالث لازم ، هو الاقتصاد ، بما هو إنتاج . وهو مطلب بسيط في ظاهر الأمر مركّب شديد التعقيد حين يتأمل المرء في مقتضياته .

وأول ما يبتدرنا في هذا الشأن أن العلاقة بين الثقافي والاقتصادي في المشهد العربي مَثَّلَتْ - وما تزال - نموذجاً مضاداً للحالة الأوروبية . وذلك أمر متعارف ولكن دلالته في الحالة العربية أن الثقافي كان في قطيعة تكاد تكون مطلقة مع الاقتصادي .

والأنكى من هذا كله أن اقتصاد الاستهلاك والقصد إلى الربح الآني في وضع عربي "مهزوز" سيجعل أيّ عَقْد مقترح بين الاقتصادي والثقافي مدعاة للسخرية .

لست اقتصادياً ولا سياسياً بالمعنى المهني ، ولكن كل عربي قد أصبح بالضرورة ، على نحو ما ، شيئا من هذا وذاك . وهل يمكن عربياً أن ينفك عما يلقيه عليه السياسي أو يتلقاه من الاقتصادي أو يلقاه منهما معاً؟

سأجازف ، هنا ، بحافز لغوي ، منطلقا من أنّ اللغوي لا ينفك عن الاقتصادي ، باقتراح قد يبدو ساذجاً وما هو بذاك لو لم يكن العقد العربي منفرطاً بصورة تدعو إلى الأسى .

استفحلت ظاهرة من الاستلاب اللغوي والثقافي وخاصة في قطاع الشباب تتمثل في سيميائه في لباسه (وعَلَمُه الجينز) وهذه القمصان على هيئة حرف T اللاتيني . إن هذه القمصان بما تحمله

---

(1) رياح العصر ، لفهمي جدعان ، ص67 .

(2) المصدر السابق في الموضع السابق .

من شعارات وعبارات تمثّل قِيَمَ الآخر وتبلغ في كثير من الأحيان حد البذاءة والقحة تتغلغل في اتجاهات الشبّان والشابات وتفضي بهم إلى التقليد التلقائي .

فهل لدينا ، في هذا السياق العربي بكل تناقضاته وتعقيداته ، اقتصاديٌ عربي رشيد ذو نظر بعيد ، يحاوره وعي لغوي سديد ، يستطيع أن يطور مشروعاً إنتاجياً عربياً يقوم على قطن عربي يُنْسَج بأيد عربية ، وبصنع مثل تلك القمصان يطرزها بضروب من الأمثال والحكم والطرائف (وهل في لغة أخرى في العالم مثْلُ ما في العربية من ذلك؟) ويطور خطوطها التي تكتب بها مستعينا بالتصميم الخطي (Graphic Design) وما تتيحه تقنيات الحاسوب (وهل كان في خطوط أية لغة من لغات العالم ما للخط العربي من هذه المزية الفنية الخالدة)؟ ألا يكون هذا الحلم الرغائبي ، مثلاً ، مشروعاً عربياً جامعاً حقيقاً بأن يمثل استثماراً مثلّث الأبعاد ؛ يحيي قيما ثقافية بالعربية الفصحى ، ويزينُ الخط العربي في نفوس الشباب ، ويحررهم من هذا الاستلاب ، ويحقق لونا من ألوان "التنمية الذاتية الاقتصادية" في آن معاً؟

ولعل بعض اللغويين يتحفظ على مثل هذا لأنه ينظر إلى القضية اللغوية من موقع سدانته التي تأنف أن "تعتبر" جدل اللغة مع الحياة ، وتتجاهل تشابك العوامل التي تؤدي إلى ازدهارها وإحياء منطوياتها من القيم والفطن والبدائع في النشاط اليومي لجمهور الأمة وقطاع الشباب خاصة .

يقفز اللغويون الذين تَشْغَلهم هذه الظاهرة عن العامل الاقتصادي ، ويخالون أن الشعار الثقافي كاف في تغيير أمر المطالب اليومية الملحة في زمن "الإنسان الاقتصادي" ، وأن "الاسم" لدى المستهلك يمثل معادلا للإنتاج . إن اللغة "بطبيعتها لا تمثل قوة صانعة للأشياء . . . وإنما اليد هي التي تفعل ذلك ، واللغة لا تقدم إلا وصفاً لما يدور في النفس ولما تفعل اليد وتصنع ، أما هي فلا تصنع شيئا على وجه الحقيقة"(1) . وإنما أقصد بهذا أن البحث اللغوي الخالص لا ينبغي له أن يغفل عن أن اللغة ليست بمعزل عن شروط الناطقين بها ، وأن انفراد اللغويين بأمر القرار في شأن اللغة سيظل يفضي إلى التعطيل واللاجدوى ، وستظل هذه الظاهرة تتفاقم بأعينهم!

إن انغلاق الخطاب اللغوي على المرجع الثقافي وحده ، وإغفاله لسائر العوامل في هذا الشأن وأضرابه قد آل به إلى أن يكون خطاباً محدوداً في دائرته الخاصة .

ولعله ، لهذا السبب ، قد أخفق في إقناع صاحب القرار الرسمي بالاستجابة لمطالبه المتكررة في هذه السبيل . بل إن "الخيار السياسي هو في جوهره خيار القوى الاقتصادية المعنية بالربح المباشر

(1) المعضيات المباشرة للإشكالية الإسلامية المعاصرة ، فهمي جدعان ، دراسات إسلامية ، مركز الدراسات الإسلامية ، جامعة اليرموك 1403هـ-1983م ، ص22 .

التي ليس لديها استعداد للنظر إلى المسألة اللغوية من منظور وطني أو قومي بعيد المدى لأنها غير مستعدة للتنازل أوالتضحية كقوى اجتماعية"(1) .

ويظهر أنه إذا ما تنازع الثقافي والاقتصادي في شأن اللغة تكون الغلبة للاقتصادي ، ولعل هذا يفسر تقدم اللغة الألمانية على الفرنسية في تقديرات نسب انتشار اللغتين في العالم ؛ إذ إن فعالية الاقتصاد (كما في الحالة الألمانية) تتفوق على فعالية التشريعات الثقافية وسن القوانين لحماية اللغة ونشرها (كما في الحالة الفرنسية) .

وإذا آلَ مسار العولمة إلى تحويل دولة القوة إلى الدولة التجارية(2) -كما يسميها هارالد موللر- وهي الدولة التي تتميز بانفتاح الحكومة على الاقتصاد ، والاشتراك مع الجهات ذات الاهتمام ، وفي مقدمتها الاقتصاد ، في تشكيل أهداف سياسة خارجية تسعى إلى أولوية واضحة للعلاقات الاقتصادية ، إذا كان ذلك كذلك فسوف يتعزز أمر الاقتصادي في شأن اللغة ، وسوف تصبح العربية -في الحال العربية- مرتهنة بالمنفعة والجدوى الاقتصادية . وهو أمر تلوح بعض بوادره في الأفق وقد يؤرّث حدة التقابل الثنائي بين الاقتصادي والثقافي .

إن العلاقة بين العربية والاقتصاد ليست مغلقة . إنه حتى على مستوى الاستهلاك تمثل العربية الفصيحة الوسيط اللغوي المختار في الغالب . وذلك تأويل اتخاذها في البرامج "المدبلجة" من الدراما الرومانسية لأمريكا اللاتينية ، والأفلام المترجمة عن الإنجليزية والفرنسية والألمانية والهندية ، وبرامج الأطفال . إنها تشيع بذلك وتُتداول لغرض اقتصادي واضح ، إذ إن مَنْ يتخذونها يَنْشُدون جمهوراً عربياً عريضاً ، وإذن تكون العربية الفصيحة دون أية لهجة أخرى -مهما يكن طموحها وامتدادها- هي الاختيار المناسب .

بل ينفتح للعربية ، في هذا المجال ، باب واعد ، يربطها بالتنمية والجدوى المحسوبة اقتصادياً . وتتنامى الدراسات العلمية العربية عن "المردود الاقتصادي لاستعمال اللغة الوطنية في مجال

---

(1) عودة إلى المسألة اللغوية ، للطاهر لبيب ، في : النهوض العربي ومواكبة العصر ، مراجعة وتقديم صلاح جرار ، مؤسسة عبد الحميد شومان ، عمان ، الأردن ، 2005 ص162 .

(2) تعايش الثقافات : مشروع مضاد لهنتنغتون ، هارالد موللر ، ترجمة إبراهيم أبو هشهش ، بيروت : دار الكتاب الجديد ، 2005 ، ص 73 ومابعدها .

وينظر أيضاً : العولمة وتغيرات العالم : كيف تخلق العولمة فرصاً للنهوض العربي ص9 ، رضوان زيادة ، الندوة الإقليمية : العولمة وانعكاساتها على العالم الإسلامي في المجالين الاقتصادي والثقافي ، التي عقدتها المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم الثقافة ، في جامعة آل البيت - الأردن 3-4 مايو (أيار) 2006م .

الإنتاج والخدمات وأن ما تساعد عليه اللغة الوطنية من استيعاب المعرفة والمعلومات ومن قدرة على الابتكار ومن ربح في الوقت . . . يمكن حسابه اقتصادياً"(1) .

ولعل ما نشهده من تنامي الجهود الرامية إلى تعريب الحاسوب وتقنياته إنما يمثل وجها آخر لرفد العربية وتوسيع نطاق تداولها بدافع اقتصادي . ولعل مشاريع الترجمة الآلية النشطة المتنافسة (بدافع اقتصادي في المقام الأول) ستفتح للعربية آفاق الكون في هذا العصر وتُفَعِّل تداوُلَها بين الناطقين باللغات الأخرى .

إنه في هذه المنظومة المركبة من الجدل بين اللغة وسائر الظواهر الاجتماعية يبدو أن ائتلاف اللغوي والثقافي والاقتصادي هو التدبير العملي الفاعل ؛ ذلك أن القيمة الثقافية الرمزية للغة تظل غير كافية وحدها .

وأما الثاني من الماضي البعيد المتجدّد والأفق القصيّ فيتمثّل في انتشار العربية بانتشار الإسلام على يد التجار في أرخبيل الملايو ، وهو يقدم دليلا تاريخيا قويا في هذا الشأن . بل إن هذا الائتلاف الثلاثي يتجدد الآن في ذلك الأفق الإسلامي القَصِيّ . "فعلى سبيل المثال نجد أنه عندما اتجه الملايويون نحو البنوك الإسلامية في العقد الأخير من القرن العشرين ظهرت مصطلحات عربية فقهية على الساحة الملايوية بعضها مهجور ، وبعضها الآخر جديد ، مثل : بيع العِيْنة ، وبيع بثمن آجل ، والرَّهْن ، والوديعة ، والمعاملات . . ." (2) .

بل يمثل هذا الائتلاف الثلاثي بعداً محورياً في تعليم اللغة العربية هناك ؛ وذلك ما تصرّح به مؤلفاتهم الموضوعة لتعليم اللغة العربية في ضوء طموح ماليزيا لأن تكون في عداد الدول المتقدمة سنة 2020م . وماليزيا –كما هو معلوم– بلد ذو غالبية إسلامية ، وإذن يكون منشأ اعتنائها بتعليم العربية تعليماً منهجياً من جهة أنها "لغة القرآن الكريم ولغة الدين الإسلامي" و "مفتاح السعادة في الدنيا والآخرة"(3) . ولكن هذا الاعتناء "الثابت" أصبح ينضاف إليه باعث آخر ، إذ "كان تعلم اللغة العربية في الماضي لأغراض دينية فقط ؛ وأما في الوقت الحاضر فأصبح تعلمها وإجادتها أمراً حتمياً نظراً لتطورات التكنولوجيا الحديثة"(4) . ومرجع هذا الامتداد في الاعتناء باللغة العربية أنه

---

(1) عودة إلى المسألة اللغوية ص 173–174 .

(2) الألفاظ العربية المقترضة في الملايوية : تطورها ومصيرها في عصر العولمة ، لمجدي حاج إبراهيم ، مجلة اتحاد الجامعات العربية ، العدد 44 ، ذو القعدة 1425هـ كانون الأول 2004م ، ص157 .

(3) اللغة العربية الاتصالية للسنة الثانية لمحمد زكي بن مت وزميليه ، وتحرير حسب الله ابن (أبو بكر) وزميليه ، كوالالمبور ، ماليزيا ، 2004 ، ص17 .

(4) اللغة العربية الاتصالية للسنة الرابعة من المنهاج المتكامل للمدارس الثانوية ، لسيد عمر السقاف وزميليه وتحرير داود بن حميد ، كوالالمبور ، 1996 ، ص183 .

سيكون لماليزيا مصالح وفرص في الدول العربية مستقبلا ، وإذن تصبح محتاجة إلى اللغة العربية لتحقيق هذه المصالح[1] .

ويمتد هذا الاعتناء ، هناك ، إلى صور من حضورها في الحياة العامة ؛ إذ إن كثيراً من المرافق السياحية تتخذ العربية (تكتب بها العنوانات واللافتات وتوجيهات المرافق في المطارات ، مثلا) هداية للسائحين من البلدان العربية ، مشفوعة بأي من الذكر الحكيم ودعاء السفر . . . إلخ وتكون العربية ثالثة لغتين هما الملايوية والإنجليزية في النشرات المتعلقة بهذا الشأن ، كما لا يزال الخط الجاوي وهو حرف عربي إلا في سمات إضافية اقتضاها تمثيل الأصوات الملايوية الخاصة ماثلا في العملة الماليزية إلى جانب الحرف اللاتيني .

وأما الثالث من الحاضر العربي فإنه يفيء إلى أن دور الاقتصاد في حال العربية مرتهن بالجدوى . واللغة –من هذه الجهة– كالعملة[2] تتقرر قيمتها وفاقا للعقد الاجتماعي والقيمة التداولية بما استقر عليه العرف ، فليس للغة في ذاتها –كما أنه ليس للعملة في ذاتها– قيمة إلا بهذا الاعتبار . ولو أن أحداً صمّم ورقة نقدية أدقَ وأنقَ من الأوراق المتداولة لما تقبّلها منه الناس .

وحقاً أن غنى اللغة يمثّل لأصحابها رصيداً كما في حال الغنى الاقتصادي ، على أن من مفارقات تشبيه اللغة بالعملة أن الأمم تسخو برصيدها اللغوي وتسعد بأن تقترض اللغات الأخرى ما شاءت من مفرداتها لسبب ثقافي ، ولكنها تضنّ برصيدها من العملة على أن مآل الاقتراض واحد ؛ إذ يحقق اقتراض المفردات اختراقا ثقافيا ويحقق اقتراض العملة اختراقاً اقتصادياً بل إن كلاً منهما يفضي إلى الآخر ؛ ذلك أن الثقافي لا ينفك عن الاقتصادي في نهاية التحليل .

ويبقى مُحْتَكَم العلاقة بين اللغة والاقتصاد هو الجدوى . وتلك هي حال العربية والاقتصاد .

وبهذا المقياس يستعمل الاقتصادُ اللغةَ إذ لا يبالي أن يتلقى رسائل البريد الإلكتروني أو الهاتف المحمول بالعامية أو بالحروف اللاتينية ما دامت تمثل مردوداً مادياً . ولعل حواشي بعض القنوات الفضائية الموجهة إلى قطاع الشباب وما تحمله من عاميات مكتوبة كتابة مزاجية بلا نظام أن تكون مثالاً مشخصاً على هذا . وهذا أحد أعراض تأثير الاقتصاد على العربية .

بل إن مبدأ المنفعة فيه قد يفضي به إلى إملاء العامية على الإعلانات الصحفية والإعلانات المضيئة في شوارع المدن العربية إنْ هو تَمَثَّل لها عن قصد أوعن جهل دوراً في ترويج بضائعه محلياً .

(1) المصدر السابق ص183 . وقد تقدم بعض هذا القول عند البحث في العلاقة بين العربية والنص المقدس ، وإنما ألمحنا إليه لمقتضى السياق .

(2) اللغة والاقتصاد ص 12 .

ثم هو لا يبالي أن يغمر السوق العربية والشارع العربيّ برموز السمات التجارية الوافدة لهذا السبب أيضاً . فإذا وَجَدَ الفصيحةَ أداتَه لتحقيق المنفعة لم يُدافِعْها بل اتخذها وسخّرها كما هي الحال في قنواته الفضائية المسخرة لترويج منتجات العولمة أنفسها كما تقدم .

إن ترشيد "الاقتصادي" بالثقافي مايزال ممكناً على المدى القصير كما في حال هذه الإعلانات العامية التي تقتحمُ الشارع العربي وحرم الجامعات العربية ؛ إذ ما جدوى أن تكتب بالعامية لجمهور يقرأ أو جمهور لا يقرأ؟ وما معنى أن تتخذ العامية لسانَ الإعلان في وسط جمهور من الشباب الجامعي؟ وهو جمهور ينبغي أن تصوغ الجامعةُ لِسانَهُ وذَوْقَه صياغةً لُغويةً جامعة موجِّهة(1) .

إن أثر الاقتصاد في العربية – إلى جنب ترويجه لاستعمال العامية مكتوبة– يتمثل في بعده غير المستحب على نحوين : معجمي يُخلّ بنقاء العربية ، وذلك ما يأتي في ركابه من فيض الأسماء والرموز والعلامات التجارية التي احتلت البيت العربي والشارع العربي وذوق الشباب العربي ، ونَظْميٍ أبرزُ أمثلته انقلابُ تركيب الإضافة في العربية إذ أصبح سوق عكاظ (مكة مول) ، وسوق الجامعة (الجامعة مول) ، ومدينة الهاتف المحمول (موبايل ستي) ومقهى القرية (القرية كافيه) . . . إلخ .

أما ترشيد الاقتصادي بالثقافي فمحتاج إلى "حوار" لساني مستنير لا يقوم على إقصاء الاقتصادي واعتباره طرفا تابعا طائعا لا يملك إلا الامتثال لأمر القرار السياسي . ذلك أن للقرار السياسي حساباته الواقعية وهو مرتهن بضروراته . هل يملك القرار السياسي العربي أن يحقق وحدة اقتصادية بالفعل لتنجز مثْلَ الاقتراح الذي قدمناه حول "القطن العربي" و "الشعار العربي" بالخط العربي بالتقنية الحاسوبية والتصميم الخطي العربي؟ ولعل في هذا الاقتراح ، على بساطته ، كفاية .

ولكن الأفق من هذه الناحية -كما هو واضح – ليس مغلقاً ؛ فما تزال العربية الفصيحة تجد لها مواقع مرموقة في التداول . والأمل معقود على أن يتنامى الوعي بجدوى العربية "الاقتصادية" في السوق العربية وأن تتتابع الدراسات التي تدفع نحو الوعي بدور اللغة في التنمية . إن هذا الربط بين اللغة والتنمية - فيما يبدو لي– يقترب بالخطاب اللغوي من التوافق مع تحالف الاقتصادي والسياسي .

---

(1) بل إن تلك الإعلانات تتخذ عامية محدودة لجمهور جامعي عريض نشأ أفراده على عاميات مختلفة ، وإذن تفقد هذه العامية المحدودة الخاصة لدى كثير منهم أية نكهة أو جاذبية إن لم تكن توقظ لديهم حساسيات جهوية .

الفصل الثامن

سلطة الإعلان

الراعي الدلال

"إذا أراد ذو أمر أنْ يَبْلُغ غاية مبتغاه وَجَدَ أن المرجع الأخلاقي لا يَطَّرِد له أن يكون عقلانياً ، بل وجد أن أية محاولة لمجاراة أنماط السلوك التي يُحَدُّ الناسَ وَفْقاً لها أخياراً تبرهن أنها سياسة غير عقلانية على نحو مدمِّر" .

ميكافيلي

يقترن الإعلان، لخاطر العموم، بالإعلام، إعلام التلفزة [1]، وإعلام الصحافة خاصة.

فالإعلانات لمشاهدي التلفزة تتغلغل في سياق برامج التلفزة حتى لَيُشْبِهُ بعض البثّ أن يكون سلسلة من الإعلانات تتخللها نُتَفٌ من مسلسل، أو مَشاهِدُ من فلم، أو أطراف من سِجال. بل تكون الإعلانات هي مادة البث في قنوات إعلامية فضائية متخصصة خالصة لها.

وأما الصحف فإن رواجها وسيرورتها وفلاحها في أرباحها بل بقاءها واستمرارها إنما يعتمد في المقام الرئيس على ما يتاح لها من الإعلانات. وإذا غَبَطَتْ صحيفةً صحيفةً أخرى فإنما تغبطها على ما تحظى به من توافر الإعلانات التي تظفر بها ومن إقبال المعلنين عليها وإيثارهم إياها. بل غدا الإعلان في الصحافة كما في بعض قنوات التلفزة موضوعا مستقلاً قائماً برأسه تُفْرَد له منشورات وملاحق بل صحف دورية متخصصة خالصة له، أيضا.

وهذا أمر واقع لا مراء فيه، وهو أَعْنَى ما يعنينا هنا؛ لأنه يمثل خطاباً لغوياً خاصاً من جهة؛ ولأنه يمثل أحد أوسع أنماط الخطاب انتشارا من جهة أخرى.

ويتميز هذا الضرب من الخطاب؛ بين سائر وسائل الاتصال، بأنه "رسالة مفتوحة"، يتفاوت المرسلون، أما المرسل إليهم فهم الجمهور كله[2].

قد يكون المُرْسِل فرداً، أو هيئةً، أو شركةً، أو مؤسسةً، ولكن المستقبِل هو الجَمّاء الغفير من المشاهدين والقراء (أوالمتلقين!). وإذن ينفتح الإعلان بالمحدود على اللامحدود أو يصدر عن "الجزء" فيصبح متاحاً للكل.

وحقاً أن الإعلان – بما هو مصطلح حديث – يقع في مِثْل الحدّ الذي ألمعنا إليه قبلاً. وهو حدّ دالّ على الأغلب، وليس جامعاً ولا مانعاً؛ ذلك أن الإعلان يقع في غير وسائل الإعلام؛ إذ أصبحت وسائلُ الاتصال جميعاً وسائلَ للإعلان، كالهواتف المحمولة والإنترنت حتى وسائل

---

(1) وإنما نقتصر على إعلام التلفزة لأنه يمثل ضمنا إعلان إعلام الإذاعة المسموعة إذ أصبح هذا الأخير كالجزء من كل هو إعلان إعلام التلفزة فضلا على ما تمتع به إعلام التلفزة من مزايا إضافية هيأت له الغلبة!

(2) مهما تكن الإحصائيات التي تتناول نسب أجهزة التلفزة ونسب الصحف إلى المواطنين، ومهما يكن التفاوت في هذه النسب بين البلدان العربية وغيرها.

المواصلات من الحافلات إذ إنها فقدت سيمياءاتها المميزة وغدَتْ لوحات سريالية لصنوف الإعلان . وأصبحت السوق العربية والشارع العربي "معارض" للإعلانات .

ويحسن أن نحترس ، أولا ، بأن الإعلان بما هو رسالة مفتوحة ليس أمرًا جديدًا ؛ فقد احتاج الإنسان منذ القديم أن يذيع رسالته لغايات شتى ، وما المؤذن بالدعوة إلى اللقاء الجامع في شأن من شؤون الدولة ، والمنادون بالدلالة على بضائعهم في أسواق الحواضر العربية التاريخية (والمعاصرة!) . . . إلخ إلا أمثلة . فالظاهرة قديمة متصلة . ولكن الوسائل قد تغيرت . كان المنادي (ولا يزال) يستعير طاقته الصوتية أو كان المعلن يتخذ الصحيفة المعلقة في السوق الجامعة أو المسجد الجامع ، مثلاً ، وسيلة الإعلان ، لمن يسمع ، أو لمن يقرأ من العابرين أو المرتادين . أما في هذا العصر فقد أصبح النداء يجوز الآفاق ، وأصبحت الصحيفة تجوب الفضاء . كان المدى محدودا فأصبح مفتوحاً بلا حدود . إن تأريخ الإعلان بوسائله وغاياته القديمة والتقليدية جدير ببحث مفرد .

وإنما يعنينا هنا أن نحصر القول في الإعلان الإعلامي ، بل في بعض مظاهره ، بما هو خطاب لغوي ممتد ، ذو تجليات شتى ، وآثار عريضة ، ورسالة تواصلية مباشرة قاصدة قصدا موجها ، فهو خطاب براغماتي بامتياز لأنه يوظف اللغة لغاية ، وتكون اللغة فيه مرتهنة بالمقاصد والشروط التي تكتنفها .

ويقوم الخطاب البراغماتي – لدى هـ . ب . جرايس (Grice) أحد فلاسفته – على مبادئ أربعة : مبدأ الكيف ، وهو أن يكون الإسهام صادقاً فلا تقول ما تعتقد أنه كذب ولا تقول ما لا تملك عليه دليلاً كافياً . ومبدأ الصلة ، وهو أن يكون إسهامك ذا علاقة عضوية بموضوع الخطاب . ومبدأ الكم ، وهو أن يخلو الخطاب من الفضول . ومبدأ الكيفية ، وهو أن يكون الخطاب واضحا غير غامض ولاملتبس ، مختصرا منظما(1) .

وحقا أن براغماتية الخطاب Pragmatics وبراغماتية المنفعة Pragmatism تتقاطعان ، ولكنهما تفترقان ، كما في المبدأ الأول ؛ إذ كثيرا ما يكون خطاب الإعلان بمنأى عن الصدق تُكَذِّبه التجربة في الغالب ، وما أكثر ما زَيَّنَ خطابُ الإعلان كفايةَ بعض الأدوات والمواد بالصور المصطنعة ، ثم وجد المُسْتَهْلِكُ المُسْتَهَام أن ذلك كله كان خداعاً وتمويهاً . وهذا الضرب من الخطاب إنما يُمَثِّل تلعباً باللغة تُسْلِم فيه اللغةُ قيادها للمنفعة وتختلّ فيها علاقة الدال بالمدلول .

إن خطاب الإعلان يمثل ائتلاف الضربين ما كان ائتلافهما محققا للمنفعة . والمنفعة هي مفتاح تفسير خطاب الإعلان بتجلياته اللغوية المختلفة في الإعلام ، وهي مفتاح تفسير العلاقة الثلاثية

(1) ينظر في هذه المبادئ : اللغة والإنترنت لديفيد كريستال ، ترجمة أحمد شفيق الخطيب ، ص65 ، 66 .

المركبة من الإعلان والإعلام والاقتصاد . فالإعلام – كما تقدم – إنما يقوم على "الإعلان" ، والإعلان إنما هو في الحقيقة وسيلة الراعي الخفي أو المعلن أو صاحب السوق . وإذن يكون مرجع الأمر إلى الاقتصادي ومعياره هو المنفعة . وإذن يصبح الخطاب ، في نهاية التحليل مرتهناً بأمر الاقتصاد ؛ إذ "يقدر الدارسون أن الإعلانات تشكل سبعين بالمئة من الإيرادات بالنسبة للصحف ، وأكثر من خمس وتسعين بالمئة للإذاعة المرئية"(1) .

ولعل أبرز مظاهر ائتلافهما هو "الإعلانات المبوبة" ، وهي تمثل ضرباً من الخطاب ينضاف إلى التجليات التي عرضنا لها قبلاً ، بامتياز خاص هنا .

وبستوقفنا في إعلانات التلفزة ما تتسم به من مِثْلِ إلحاح الذباب بالتكرار ، وما تتوسل به من الميكافيلية ، والأشكال المتطورة في بناء الخطاب وإخراجه ، والمؤثرات المصاحبة له من الصورة والإيقاع ؛ ذلك أنها تتغلغل في المشاهدين تغلغلاً تلقائياً لا واعياً حتى لتشبه "الدعايات وهي العبارة عن الإعلان في المتعارف لدى الناس" أن تصبح ألحانا أو أناشيد يرددها الصغار والكبار تغلب عليهم أناشيدَهم الوطنية أو القومية أو الوجدانية .

وإنما نتوقف إلى هذا الملحظ لما يُعْقِبه في لغة المشاهدين من آثار وهي – على كل حال – ليست شرا كلها ؛ فإنها تتمظهر على أنحاء شتى من التجليات التي ألمعنا إليها قبلاً .

إن هذه التجليات أو المستويات اللغوية للعربية ماثلة في خطاب الإعلان مثولها في خطاب الإعلام جملة . والعربية فيه "عربيات" . ولكن امتثاله لأمره الرئيس يفضي بها – فيما نحرص أن نقرره هنا – إلى التردد بين حدين متقابلين ؛ فهو يروج للفصيحة بالفعل في قنواته المتخصصة ولكنه يخرق العرف خرقاً فاضحاً في أمثلته المكتوبة بالعامية في الصحافة .

---

(1) وقفت على هذا التقدير وأنا أنظر في الصيغة المخطوطة الأولى للرسالة التي تعدها فاطمة العمري لدرجة الدكتوراه وعنوانها : الخطاب والمقاصد : الإعلان الصحفي نموذجا ، ثم جاءتني فاطمة بمرجعها في هذا التقدير ومرجع آخر في هذا الشأن فاستحقت أن أشكر لها عني الحالين .

وقد وجدت بالنظر في مرجع هذا التقدير أنه يتناول الإعلان في الولايات المتحدة ، ولكنه يظل تقديرا ذا دلالة على كل حال . وينظر في هذا التقدير : الفصل الرابع وعنوانه : وسائل الإعلام والأسواق في الولايات المتحدة ، لإدوارد س . هيرمان ، ص100 من كتاب : الحق في الإبلاغ (دور وسائل الإعلام الجماهيرية في التنمية الاقتصادية) ، معهد البنك الدولي (تشجيع المعرفة والتعلم من أجل عالم أفضل) ، الأهلية للنشر والتوزيع ، الطبعة العربية الأولى ، 2005 – عمّان .

وينظر في سلطة الإعلان على وسائل الإعلام من هذا البعد الاقتصادي أيضا : لعبة وسائط الإعلام (السياسة الأميركية في عصر التلفزيون) ، ستيفن إينزلابير وروي بير وشانتو إينجر ، ترجمة شحدة فارع ، مراجعة فاروق منصور ، الطبعة الأولى 1419هـ–1999م ، دار البشير ، عمان - الأردن ، ص 203 ، 204 ، 205 ، 206 ، 207 .

وإذا كان أمر العربية في المظهر الأول إيجابياً على مستوى حياتها شكلاً ، فإن أمرها في المظهر الثاني يقتضي مراجعةً تُعَقْلِنُه ، وليس ذلك بعسير لأن التدبير اللغوي فيه يسير ، وحوار الأطراف ذات العلاقة فيه متاح . إن اللغويّ يمكنه أن يُقْنِع المُعْلِن بأنّ "لا تنسى" خير من "متتنسيش" ، وأنّ "نحسب" خير من "بنحسب" و "نوفر" أوفر للمعلن من "بنوفر" وأن "لك نوفّر" ألطف وأخف وقعاً من "بنوفر عليك"(1) ، وأن كتابة العامية علوان على العرف بل هي ضرب من العبث إذ ليس للعامية نظام كتابي متعارف ، ثم إن القارئ -إنْ لم يَتَلَقَّها بالاستهجان- يتعثّر في قراءتها تعثرا منفرا .

* * *

قد يرقب الباحثُ الوصفيُّ المشهدَ اللغويَّ في الإعلان فَيَشُوقه التنوعُ والبحثُ عن التفسير ، أما التفكير اللغوي المُوَجِّه فإنه إذ تروقه أناقةُ الإعلان الفصيح في معارض ترويجية شتى ، ينوء بثقل الإعلان العامي المكتوب على أنحاء كَزَّة تتعذر قراءتها ، كما يَسْتَهْجِن أن يكون الإعلان بالإنجليزية عن وظيفة مهماتُ القائم بها وجمهور من يتعامل معهم لا تقتضي استعمال الإنجليزية البتة .

وقد كنتُ ناقشتُ في سياق إعداد هذا البحث بعض الإعلانات المكتوبة المنصوبة في الشوارع مناقشة تفصيلية ، كما كنت تتبعت نماذج من الإعلانات في بعض الصحف العربية ثم استبعدتها تحرجاً ونفياً للحساسية التي يمكن أن تثيرها نسبة هذه الإعلانات إلى بعض شركات الاتصالات أو بعض الصحف العربية ، وهي -على كل حال- ماثلة في الصحف اليومية العربية ولوحات الإعلان في الشوارع العربية بل إنها قد انتهكت حمى الحرم الجامعي العربي .

ثم بدا لي أن أرسم صورة عجلى(2) لملامح الإعلانات في وسائل الإعلام ؛ فهي :

- في إعلانات النعي نمطية تعتمد على التناص (مع آي القرآن أو الإنجيل) .
- وإعلانات المؤسسات الرسمية (الحكومية) والمؤسسات العامة ديوانية تجري على مثال الفصيحة التقريرية ، فإذا كان في الإعلان شروط (كالإعلان عن وظائف) سِيقَتْ على هيئة بنود مرقمة .

---

(1) وهذه أمثلة مقتطعة من إعلانات فعلية في الصحافة والتلفزة و لوحات الإعلان في الشوارع ، وأبدالها المقترحة نماذج وحسب لبيان فضل الفصيحة على العامية كما اقترحه الدكتور إياس الموسى .

(2) إذ لاحظ الدكتور موسى الناظر أنني عمدت إلى الاختصار ولم أتوسع في إيراد الأمثلة هنا ، وحقا أنه احترس بأن الأمثلة مألوفة لدى المتتبعين ، ولكنني وجدته مناسبا في ضوء تلك الملاحظة أن أتخذ خطة وسطا في هذه السبيل بهذه الصورة العامة العجلى ولعل فيها كفاية وفاقا لمقتضى سياق البحث .

- وفي الإعلانات المبوبة مجتزأة تسوق المعطيات والمعلومات بلا روابط ، ولا تأبه بالسلامة النحوية كأنما هي عامية (شقة ، غرفتين نوم ، . . . إلخ) .

إن ترك الروابط في هذين الضربين[1] من الإعلان يُشيع نمطا من الخطاب البراغماتي الذي يعول على السياق بمعناه الواسع ، ويفترض قيام الروابط النحوية التقليدية في ذهن المتلقي .

- وفي بعض الإعلانات التجارية عامية محكية محليــة مكتوبــة (مش بس روقان[2] . . .) (معنا الطلاب بيحكو[3] . . .) .

- وفي إعلانات بعض الشركات عن فرص العمل إنجليزية تشترط أن يكون المتقدم خريج جامعة أمريكية (غالبا) أو جامعة تُعَلِّم موضوعَ التخصص المطلوب بالإنجليزية .

- وفي إعلانات العقارات كما في الإعلانات المبوبة تجري بعربية بين بين تحمل ما يصنف في الأخطاء الشائعة (أراضي للبيع) .

وحقيق بالالتفات هنا أن هذا الموضع (إثبات ياء الاسم المنقوص وصوابه : أراض) إذا ورد نظيره في سياق إعلانات النعي والشكر على المواساة يجري على الوجه الصحيح فيقال : شُكر على تعازٍ ؛ لاختلاف السياق ؛ إذ يُحيل سياقُ الحقيقة الوجودية إلى "الذِّكر" ، إلى "المقدس والفصحى" ، ويرنو سياق المصلحة السوقية إلى المنفعة ، ولا يعبأ إلا بالبلاغ اللغوي القاصد .

وهكذا تتنوع تجليات الإعلان وفاقا لمثل الشروط المتقدمة ؛ فالرسمي والعام - إذ يَنْشُد الامتداد ويجري على العُرْف - يختار الفصيحة ، والثقافي بمعناه الواسع يختار الفصيحة ، أما الاقتصادي فينتقل بين الخيارات اللغوية وفقا لمطلب المنفعة المادية ؛ فقد يُسَخِّر للفصحى مَنْ يَنْطِق بها (جون وماري) ثم لا يأبه أن يجعل إعلانه بالمحكية أو الإنجليزية فالغاية عنده تبرر الواسطة أو الوسيلة .

وتظل هذه الظاهرة محتاجة إلى استقراء وتفكيك . ولكن ما يعنينا هنا هو - كما تَقَدَّم - أن العربية في الإعلان تتخذ ضروباً من "المستويات" و "التجليات" ، وأنها ليست منفكة عن شروط السياق الاجتماعي الثقافي الاقتصادي بكل ما ينتظمه من متغيرات .

---

(1) أي إعلانات الشروط ذات البنود المرقمة والإعلانات المبوبة .

(2) جزء من إعلان في صحيفة عربية مرموقة .

(3) جزء من لوحة إعلانية في حرم - امعة عربية مرموقة .

الفصل التاسع

عُقْدة الازدواجية

تنازع الواقع والمثال

"إنّ كُلّ صُوَر الازدواجية فيها إسرافٌ ذلك أنّ الازدواجية وَضعٌ لغويّ غير اقتصاديّ ولا وظيفي" .

فالتر تاولي

لعل وليم مارسيه المستشرق الفرنسي هو أول من شَرَع هذا المصطلح (الازدواجية - Diglosse) ، ولكن تشارلز فرجسون هو الذي اشتهر به في مقالته التي نشرها في مجلة (Word) عام 1959 ، ومَثَّلَ لهذه الظاهرة بأربع لغات كانت العربية إحداها ؛ إذ لاحظ أنها لغة تستعمل مستويين : أعلى (هو الفصحى) وأدنى (هو اللهجات المحكية العامية) ، يُتَداوَلُ أولُهما في مواقف ووظائف مخصوصة ، ويتداول الثاني في مواقف ووظائف مخصوصة . وجرى في إثره الباحثون ، وإن كان ابن خلدون منذ القرن الثامن قد صرح بهذا التباين بين اللسان المضري (وهو عنده نظير الفصحى) ولغات أهل الأمصار (وهي عبارته عن اللهجات المحكية) ، ولكنه اكتفى بتحليله الوصفي ولم يتجاوزه إلى المقارنة الوظيفية أو التصنيف الطبقي كما صنع فرجسون فيما بعد .

وتمثّل الازدواجية[1] في العربية مظهراً حاسماً من مظاهر التحول الذي جرى على العربية ؛ ذلك أنه - وإن تكن الفصحى قد تشبثت على الجملة بمثالها المعيار - مضت العاميات في مجرى التطور (بعوامل زمانية ومكانية متشابكة) فأسقطت الإعراب واستبدلت به دوالّ تركيبية خاصة للإبانة عن المعاني النحوية ، كما حملت آثارا من السمات الفونولوجية للناطقين بها في الأصقاع العربية وتباينت في اختياراتها المعجمية ، وفارَقَتْ - بمقادير يسيرة أو جليلة - هيئات أبنية الفصيحة .

لم تكن الازدواجية على النحو الذي نشهده اليوم قائمة في الجاهلية إلى عصور الاحتجاج و"النقاء" ؛ إذ نطق العرب بلهجاتهم المكتسبة ، التي كانت متبادلة الوضوح ، تلتقي على مشترك غالب ، يمثل اللسان العربي ، وكانت تلك اللهجات على اختلافها - في بعض السمات الخاصة - حُجّة ؛ أي أنها كانت فصيحة صحيحة ، وعليها أُقيمت صفةُ العربية الفصحى التاريخية على النحو الذي انتهى إلينا ، وهو النموذج اللغوي المُؤْتَمّ الذي نَجْهَد أن نَبْلُغَه بالتعلُّم ، وهو النموذج المُدَوَّن الذي نسميه اليوم العربية الفصحى .

---

(1) يتداول الباحثون في أمر الازدواجية أسئلة شتى ، وقد استقصى الباحث كثيرا من هذه الأسئلة في كتابه (قضية التحول إلى الفصحى في العالم العربي الحديث) ولكن القول المستأنف في هذه الظاهرة هنا إنما يقتصر على ما يتعلق منها بأطروحة هذا البحث . وهو منحى آخر غير المنحى الذي ذهب إليه في الكتاب الآنف الذكر ؛ إذ كان ذلك الكتاب استقراء للظاهرة يهدف إلى رسم مشروع للتحول إلى الفصحى بجعلها لغة محادثة مستهديا بالتدابير التي طورها التخطيط اللغوي . أما في هذا السياق فإن الازدواجية تُتناول من حيث هي مظهر بارز للتنازع بين الثبوت والتحول

أما هذه اللهجات العربية المعاصرة فهي تحولات عن تلك اللهجات العربية . ويمكننا القول إنّ كلَّ لهجة عربية معاصرة ، من حيث الأصل ، كانت لهجةً من تلك اللهجات ، ولكنها جَرَتْ على ألسنة أصحابها منطوقة ، وامتثلت لأمر التطور ، ودخلها في دورة الزمن والاختلاط بالناطقين باللهجات العربية الأخرى وجَرْيها على ألسنة مَنْ تحولوا إلى العربية من أهل الممالك المفتوحة وجوهُ من التحوّل أفضت بها إلى صورتها المعاصرة . وإنما نُلحّ على هذا لأننا نراه أَظْهَرَ وجوه التحول الجوهري الذي طرأ على العربية بعد أن تفاصلت اللهجات عن النموذج المُقَعَّد الذي قام عليها في صورتها التاريخية أصلا . وما يزال التماسُ بعض السمات اللهجية المعاصرة في سمات لهجات خاصة عُرِفَتْ بها بعض القبائل دليلاً مفيداً لعلم التاريخ ، صنيع حفني ناصف في نهايات القرن التاسع عشر في بحثه الموسوم "مميزات لغات العرب وما يتخرج من اللغات العامية عليها وفائدة علم التاريخ من ذلك" . وهو حديث مستفيض سنعرض لبعض مَنْ اعتنوا به في سياق هذا المبحث .

كان استقلال اللهجات وامتدادها في خطاب المشافهة ، إذن ، عاملاً حاسماً في تحولها عن أصولها الأولى التي أقيم عليها وصف العربية . أما هذا الوصف فقد أصبح هو النموذج المؤتم إذ إنه كان يمثل العربية كما نزل بها القرآن فاستعصم بمرجع الثبوت . وأما اللهجات فقد تناءت عن الفصحى إذ إنها مضت في دورة الحياة على نواميسها في التطور .

ثم نجم في العربية ، من بعد ، وفي أواسط القرن الماضي ، مستوى لغوي ثالث يقع بين بين ؛ بين النموذج الفصيح وهو المثال المتعلم ، والعامية وهي "النموذج اللغوي" المحلي المحكي المكتسب . وقد عُرِف هذا المستوى بالعربية الوسطى كما عرف بـ "عربية المتعلمين المحكية" ، واحتفى به ت . ف . ميتشل (من جامعة ليدز) وأعا ه على وصفه باحثون منا منهم محمد حسن إبراهيم وشاهر الحسن حتى ذهب بهم الاجتهاد إلى أن دعوا به نموذجاً لغوياً يُتَبَنّى دون إبطاء .

وحقا أن هذا المستوى الثالث أو عربية المتعلمين المحكية يشبه أن يكون سليقيا لدى المتعلمين والمثقفين ، ولكن الإعراب فيه ما يزال غائباً إلا نادراً ، وإن يكن تخلص من الخصوصيات المعجمية اللهجية ، وعَدَّلَ انحرافات بعض الأبنية الصرفية .

وإنما يعنينا من أمر هذا المستوى الثالث الذي نَجَمَ عن تلاقُح الفصيحة المُتَعَلَّمة واللهجات المحكية المكتسبة أنه يمثل "تحولاً متدانياً" من الفصيحة ، بل إنه في بعض تجلياته يشبه أن يكون فصيحاً كما في تقارير بعض مراسلي الفضائيات التي يسهمون بها في سياق نشرات الأخبار ؛ ذلك أنهم ، وفقاً لمطالب الاتساق وسياق النشرة يجهدون – أو يتمرسون – أن يعدوا لتقاريرهم وأن يرتقوا بها إلى مستوى الخطاب الإخباري المكتوب المقروء(1) .

(1) ينظر في بعض تفصيل في هذا الشأن مبحث الإعلام من هذا البحث .

وليس الكلام ، بعد ذلك ، على مستوى يمثل عربية التراث أو غيرها لدى المعاصرين بلازم لأن عربية التراث ، مثلاً ، إنما تمثل تنويعاً أسلوبياً واختياراً معجمياً خاصاً وحسب ، ذلك أنها جارية على نهج المستوى الفصيح "التاريخي" في منظومته الصوتية الصرفية النحوية" . أما عربيات "الشطّار" و"المطاريد" . . . إلخ فليست تفترق عن العاميات إلا في معجمها ذي الحقل الدلالي الخاص فهي تمثل دوائر مغلقة خاصة لها مصطلحها الخاص شأنها في ذلك شأن دوائر الحقول المعرفية التي تُجَرِّد من معجم العربية أو المعجم المستعار من لغات أُخَر مُعْجَمَها الاصطلاحي الخاص ، وإذن يستوي في خصوصية هذه السمة المعجمية الاصطلاحية "الشطّار" و "التجار" و "المهربون" و "أهل المجون" و"أهل الفنون" و "أهل القانون" و "أهل العلوم" . . . إلخ ؛ ذلك أن كل واحد من المناشط الوجودية يحتاز لنفسه من المعجم العام معجماً يتعارف عليه ويمثل لديه حقلا دلاليا خاصا .

وقد ازدهر في القرن الماضي ضربٌ من البحث يقوم في بعض وجوهه على التماس المشترك بين اللهجات العربية من المحيط إلى الخليج ، صنيع عبد العزيز بنعبد الله في أبحاثه بمجلة اللسان العربي ، ويقوم في وجوه أخرى منه على تأصيل العامي في الفصيح بالنَّقْب عن كثير مما يصنف في العامية والتماس أصوله أو منحه مشروعية القبول لأنه ذو نسب مذكور في الفصحى ، صنيع أحمد رضا في كتابه "ردّ العاميّ إلى الفصيح" ، وأحمد عيسى في كتابه "المحكم في أصول الكلمات العامية" ، وشفيق جبري في "بقايا الفصاح" التي كان ينشرها في مجلّة مجمع اللغة العربية بدمشق ، وصنيع لجنة اللهجات في مجمع اللغة العربية في القاهرة(1) .

ولعل هذه الجهود كانت تنشد المصالحة والتقريب بين اللهجات العربية المعاصرة من جهة ، وتأنيس الناس إلى قرابتها مع الفصحى . وهي تمثل تدبيراً لرأب الصدع الذي تمثله الازدواجية . ولكن نتائجها بقيت محدودة ؛ إذ إنّها تصطدم بالعُرْف القارّ القائم على التقسيم الثنائي لوظائف القسيمين : العامية والفصحى ، والمواضع المتعارفة لاستعمال كل منهما .

إنّ رَأْبَ هذا الصدع قد يتحقق بحاجات التواصل والجدوى العملية والتدابير المنهجية بأكثر مما يحاوله المشتغلون باللغة على صعيد نظري خالص . وقد تمثلت بعض النتائج في هذه السبيل في نجوم العربية الوسطى مستوى لغوياً متحولاً من العاميات الخالصة نحو الفصحى بفعل التعليم (على علاته!!) .

ولكن أبرز ما نحتفي به هنا هو الإنباه على أن في العربية المعاصرة أو أن العربية المعاصرة على

---

(1) ينظر في تفصيل هذه الجهود كتابنا : قضية التحول إلى الفصحى في العالم العربي الحديث ، دار الفكر ، عمان 1987 .

الجملة تمثل مستوى لغوياً آخر خاصاً . وإنما نريد بالعربية المعاصرة وهذا المستوى اللغوي الآخر الخاص العربيةَ المكتوبةَ غَيْرَ المشكولة . وجُلّ المتداول بالعربية هذه الأيام حتى ما أكتبه هنا الآن من المكتوب غير مشكول على العموم .

وإنما نتوقف إلى هذا المستوى لنستدرك على ما يسبق إليه الظن ، وهو أن الكتابة حيّز مرشح للفصيحة ، وأن المشافهة هي المجال الحيوي للمشافهة اليومية . وهو بعض ما كان تراءى لنا بادي الرأي .

إن هذا المستوى الرابع جدير بمراجعة مستأنفة واحتراس خاص عند عَدّه فصيحاً ، إنه فصيحٌ بالقوة وليس بالضرورة فصيحا بالفعل ، ذلك أنه لا يشفّ عن تحقُّق فصاحته ولا عما يعتريه من اللحن إلا فيما يدل عليه الرسم كما في الأسماء الخمسة والمثنى وجمع المذكر السالم والأفعال الخمسة والفعل المضارع المعتل الآخر والأسماء المعربة المنصوبة التي يرسم تنوين الفتح فيها ألفا ومواضع الهمزة التي يختلف رسمها على وفق إعرابها . أما ما عدا ذلك من النص العربي المكتوب فيبقى مفتوحاً لاحتمالات شتى من اللحن في الإعراب والضبط . وإنما يتضح هذا الذي نقول أو يفتضح حين نستمع إلى قراءة من يقرأون بالعربية[1] .

إن هذا الوضع اللغوي السائد على تعدد دواعيه أو مسوغاته يجعل العربية نموذجاً لحال لغوية فريدة .

ووجوه التأويل هنا شتى ؛ فقد يظن بعض الناس أن الشكل التام غير لازم لأنّ ضبط معظم الكلم يتعين لدى الناطقين بالعربية دون إشكال . وفي هذا كثير من الحق . بل يذهب بعض الناس إلى أن الشكل التام لا يغني في تصحيح القراءة لأن العربي إنما يقرأ بمرجع ما اكتسبه من العامية بالسليقة ، ولا يستحضر ما تَعَلّم إلا قليلاً . وهذا باعث على القلق المؤرق على حال العربية . وينضاف إلى هذا باعثٌ اقتصادي يتمثل في التخفف من مؤنة الشكل التام . وفي هذا الوضع اللغوي المتشعب يبدو أن تدبيراً منهجياً شاملاً لرصد مواضع احتمال اللبس في الضبط عند قراءة الفصحى بتأثير اللهجات العامية قد يُمَثّل حلاً . ولكن انفساح مدى اللهجات العربية المعاصرة وتبايناتها يجعل ذلك مطلباً متشعباً عظيم المؤنة . وتظل الاستنامة على الوضع الحالي نموذجا

---

(1) قد عرضنا لبعض القول في هذا الشأن في مبحث التعليم .

وينظر أيضا : Remarks on Diglossia in Arabic, well-defined vx. Ill-defined, by Alan Kaye, in :

و : Linguisitics: An International Review- 81 Mouton- The Hague-Paris 1972 pp. 43-44

قضايا اللغة العربية ، لداود عبده ، ص126 ، 127 .

للاستنامة على واقع الحال بالرغم من كل ما يلقيه هذا الواقع على القارئ العربي والطالب العربي من إحساس مقيم بالخوف والقصور .

بل إن هذا التدبير لو أُتيح على مستوى الضبط محتاج إلى تدبير آخر على مستوى الشكل ، شكل حركات الأواخر . وهو مطلب أعسر منالاً . وكأنما يظل اللحن قدراً لازماً للعربي . وهو قدر يفضي به إلى مثل الانفصام ؛ ذلك أن اللحن ما يزال -كما كان - هَمّاً وهاجساً بل سقطةً يتداعى لها عند العربي خطابُ اللاحن جُمْلَةً كأنما اللحن حجر سِنِمّار . إن العربية المعاصرة المكتوبة (هذا المستوى الرابع) هي أشيع تجليات العربية تداولاً . إنها تنطوي على "تنازل" يمثل قبولاً مضمراً بالتساهل في أمر الإعراب خاصة ، وهي تمثل وضعاً لغوياً غير حاسم بالفعل وإن يكن معيار الحسم وهو معيار الصواب اللغوي حاضراً في البال على مستوى المثال .

إن هذا المستوى الرابع يَذَرُ العربية الفصيحة كالمُعَلَّقة ، ويجعل الأداء العربي بالعربية على الجملة محفوفاً بالمحذور مشوباً بالنقص . وليست كتابة العربية بالحرف اللاتيني تدبيراً سديداً ولا ممكناً(1) ، ولم يبلغ التعليم والتدريب المنهجي على قراءة النص العربي أن يكون حلاً حاسماً ، بل إن واقع الحال أنه فشل فشلاً ذريعاً ، ولم يُفْلِح الإنباء على الأخطاء الشائعة ولا إصلاح الكتابة ولا ضبط المُلْبِس والأعاريب الملطيفة أن ينقذ العربية وأداء العربي بها من هذا "الوضع" . وقد يرى بعض الناس أن أداء العربية المكتوبة -ولو ملحونة- ليس بضائر قيامَها بوظيفتها الأولية من التواصل ؛ ولكن هذا الرأي ينتهي بنا إلى التسليم بعربية مَحفوفة بمحاذير النقص لا تجري بها ألسنة القارئين بها على نحوٍ تلقائي من الطلاقة كما هي حال من يقرأون باللغات الأخرى .

ويزيد هذا الوضعَ اللغوي تعقيداً أن أهل العربية يتنازعون في موقفهم من اللهجات المحكية . ويطالعنا في هذا المقام مقولة سائرة ، وهي دعوى كُلُّ ناطق بلهجة عربية أنه يراها أقرب اللهجات إلى الفصحى . وهي دعوى يقول بها المشتغلون بالعربية أيضا .

ويحسن هنا ، مع احتمال الإطالة ، أن نسوق بعض أقوالهم في هذا الشأن .

يقول مارون عبود في كتابه عن أحمد فارس الشدياق(2) : "قابلت لهجة لبنان بلهجات الأقطار الأخرى فوجدت لغتنا العامية أقرب إلى الفصحى من جميعها ، وقد لا تضاهيها في ذلك الأقاليم الأعرابية التي لم تدخلها رِجْل غريبة . إنها لا تحتاج إلا إلى تحوير بسيط لتصير فصحى بلا عناء" .

---

(1) ينظر في مراجعة مستفيضة لهذه القضية كتابنا : الثنائيات في قضايا اللغة العربية من عصر النهضة إلى عصر العولمة ، دار الشروق - عمان 2003 .

(2) صقر لبنان ص66 .

وذهب علي عبد الواحد وافي في بحوثه عن اللهجات العامية الحديثة إلى أن "أدنى هذه المجموعات إلى العربية الفصحى مجموعتا اللهجات الحجازية والمصرية"(1) .

واعترض أحمد المبارك عيسى ما ذهب إليه وافي مقررا "أن بالسودان – وخصوصا أواسطه – لهجة هي أدنى اللهجات إلى العربية الفصحى إن لم تكن أدناها جميعا"(2) .

وذهب حسين علي محفوظ إلى أن العامية العراقية أقرب إلى الفصحى(3) .

ويعلن إبراهيم حركات في عنوان عريض أن "الدارجة المغربية أفصح اللهجات العربية"(4) .

وهذه مقولات سائرة إلى يومنا هذا . يقول أبو أوس إبراهيم الشمسان (في بحث له سنة 2005) : " . . . وأما لهجات الجزيرة العربية فهي أقرب اللهجات العربية إلى العربية الفصيحة"(5) .

إن هذه الأقوال المتباينة لا تغير من واقع الحالة الازدواجية شيئا . ولا يماري أحد أن بين كل لهجة وبين الفصيحة نَسَباً ، ولكن مقادير قرب كل منها إلى الفصحى ليست متعينة ولو على التقريب . إنها أحكام انطباعية حتى في مقالة مارون عبود فإنه لم يشفع بالبيان ما قرره من أنه قابل لهجة لبنان بلهجات الأقطار الأخرى . وأما تحويله اللهجة اللبنانية إلى الفصحى بتحوير بسيط فهو تبسيط يُغْفِل مطلبين : مطلب العرف ومطلب الإعراب ، وهما مطلبان – إن أمكن تجاوز أولهما على مستوى معين كما في حوار التلفزة – ما يزال المطلب الثاني بعيد المنال . إن هذه الدعوى ، كما قدمنا في سياق آخر ، مؤنسة فحسب ، أو هي أدنى إلى تطييب الخواطر المُقَلْقَلَة سكينتُها بالانفصام الذي تمثله الازدواجية . وأخطر أعراضها ما أعقبته لدى الناطقين بالعربية من الإلف والوهم بأن العامية تغني عن تكلف الجهد اللازم لتَعلم الفصحى حتى بلغ الإلف حد الإعراض والزراية .

ثم تتباين المواقف من العامية من أبعاد شتى تجعلنا معها في أمر مَريج :

- يجد بعض "الفطناء" أن في العامية ألفاظاً "ذات نكهة" و "كثافة تعبيرية" إذا التمسوا مقابلها في الفصحى وجدوه غير كاف في إفادة ما يستفاد بالمفردة أو بالعبارة (المحكية) . وقد تكون هذه العبارة جارية على مقياس الفصحى ، ولكن آداب الخطاب المعاصر المحافظة لا تسيغ استعمالها في مواقف رسمية أو ثقافية .

(1) مجلة الرسالة ، العدد 422 ، 1360هـ-1941م ، ص993 .
(2) المرجع السابق في الموضع السابق .
(3) مجلة مجمع اللغة العربية في القاهرة ، الجزء 41 ، ص17 .
(4) مجلة اللسان العربي ، العدد الرابع ، ص33 .
(5) الأصالة والاتصال في لهجات الجزيرة العربية ، محور : اللغة العربية ، حوار العرب ، إبريل (نيسان) 2005 .

ومناط الأمر في هذا إنما هو أن الألفاظ تكتسب مزيتها في الدلالة بالتداول وأعراف الاستعمال .

- وهي عند العربي الأمي لغته الأم يكتسبها ويستدخل نظامها ويستعملها في محيطه الاجتماعي المحلي دون أن يلقى في ذلك مشكلاً ، ودون أن تلقي عليه إشكالا .
- وهي عند "الآخر" اللغة الحية ؛ لأنها اللغة التي تجري على ألسنة الناطقين بها في حياتهم اليومية مجرى طبيعياً .
- وهي عند اللساني العربي ، على المستوى اللغوي الخالص ، بنت الفصحى إذ إنها تَمُتُّ إليها بنسب عريق ، وإن هَجَّنَتْها أو تَناءَتْ بها عوامل التطور والاختلاط .
- وهي عند أصحاب المنهج التاريخي ذات قيمة "علمية" في تفسير بعض الظواهر اللغوية والحقائق التاريخية .
- وهي عند اللساني الاجتماعي نظام لغوي ذو محمول ثقافي عزيز .
- وهي عند بعض النقاد تنطوي على إمكانات إبداعية كامنة بل تترجم عن فنون شتى من الإبداع .
- وهي عند من يتمثلون سياسة لغوية موجهة وتخطيط لغوي مِيْسَم قُطْريّ ، كما أن قِيَمَها التداولية محدودة ولا تصلح استراتيجية لغوية جامعة وينبغي رسم التدابير اللازمة لإحلال الفصحى محلها .
- وهي عند بعض ذوي الأهواء القُطْرِيّة رمز لهوية محلية إذا توافرت لها شروط الاجتذاب بالإغراء أو بالدراما التلفزيونية طَمَحوا بها إلى الامتداد خارج فضائها المحلي .
- وهي لدى كثير من أبناء العربية مستوى منطوق وحسب ، فإذا كتبت كانت نابية تخدش العين بما لم تألف .
- وهي لدى قطاع عريض من الشباب لسانهم التلقائي فلا يعبأون أن يكتبوها .

وتنقلب هذه المواقف على العربية وتتقلب بها على أنحاء فعلية ماثلة :

• فقد غلا "الآخر" في عدّ كلّ لهجة "لغة" قائمة برأسها وأصبحت اللهجات العربية لغات عربية شتى كالذي نجده من عناوينه : العربية العراقية (Iraqi Arabic) والعربية المصرية (Egyptian Arabic) . وهو إيذان بأن العربية ، عندهم ، في حال قد تؤول بها إلى مثل مصير اللاتينية .

• وغلا بعض الشباب في كتابة العامية خلافاً للعرف ، بل امتد ذلك إلى الصحافة ، والإعلانات المضيئة ، كما تقدم . وإذا كانت العامية في المستوى المنطوق تمثل وسيلة تداولية آنيّة متحركة فإن مَنْحَها موقعَ المُدوَّن يُمكِّن لها في جسم اللغة على نحو يُخِلّ باتساق نظام اللغة المكتوبة .

وتشبه كتابةُ العامية كتابةَ اللفظ الأجنبي بالحروف العربية وهي ظاهرة تفضي في معظم الأحيان إلى رسوم كتابية مضحكة إذ تكتب (Coffeemate) هكذا : كوفي ميت (والعياذ بالله) ونكتب Quality هكذا (كواليتي) وفيها من القبح ما فيها .

وقد تناول ابن خلدون مِثْلَ هذه الظاهرة ظاهرة كتابة اللفظ الأجنبي بالحروف العربية بصرامته الواقعية وألْمَعَ إلى ما يكون من تفاوت الأمم في نُظُم كتابتها وأنه قد يكون في إحداها ما ليس في الأخرى من الحروف الدوال على الأصوات . فحين وجد كتابه يستدعي إيراد أسماء أو كلمات ليست عربية وفيها حروف ليست من "لغة كتابتنا ولا اصطلاح أوضاعنا"[(1)] اتخذ لرسمها نهجا خاصاً . يقول : "فاصطلحت في كتابي هذا على أن أضع ذلك الحرف العجمي بما يدل على الحرفين اللذين يكتنفانه"[(2)] . وضَرَبَ لذلك مثلا بالكاف عند البربر ، وهي عندهم متوسطة بين "الكاف الصريحة عندنا والجيم أو القاف" كما في اسم (بُلُكِّين) ، فأضع الكاف "كافا وأنقطها بنقطة الجيم واحدة من أسفل أو بنقطة القاف واحدة من فوق[(3)] أو اثنتين فيدل ذلك على أنه متوسط بين الكاف والجيم أو القاف"[(4)] حتى لا تصرفه عن مخرجه إلى مخرج الحرف الذي من لغتنا ونغير لغة القوم[(5)] .

وصفوة القول هنا :

– أن العامية تمثل تحولاً حاسماً عن نظام العربية في وصفها التاريخي ونموذجها المُؤْتَمّ .

– أن العربية الوسطى تمثل تحولا متقدما نحو "العربية الفصيحة" بتلاقح المكتسب والمتعلم تلقائيا ، وأننا بها نشهد عربية محكية مشتركة ولكنها لم تَرْقَ إلى مرتبة "الاعتماد" لأنها غير معربة ، ولأنها بذلك مفارقة لإحدى خصائص العربية الفصحى من جهة ما هي لغة المقدس في المقام الأول ، كما أنها ، إلى ذلك ، متحركة متغيرة ، تتحصل كالسليقة نطقا ولكن

(1) المقدمة ، ص55 وما حولها .
(2) المقدمة ، ص55 وما حولها .
(3) على نهج أهل المغرب في كتابة القاف بنقطة .
(4) المقدمة ص 55
(5) المصدر السابق ص56 .

تقعيدها قد يفضي إلى لسان أشد تعقيدا من الفصيحة المقعَّدة تقعيدا معيارياً مستقراً متعارفاً متوارثا .

– أن العربية المكتوبة غير المشكولة ، وهي الصورة السائدة في جل ما ينشر بالعربية : تمثل ثبوتا بالقوة للعربية الفصيحة . ولكنه ثبوت ينطوي على إمكانات التحول عن معيار الفصيحة بالفعل ؛ إذ إن مجراه في القراءة على ألسنة الناطقين بالعربية ينكشف عن خروج على نظام العربية يخل بكثير من الأعاريب وهيئات الأبنية الصرفية .

أن اللحن كان قديماً وما يزال حتى يومنا هذا يمثل تحولاً جوهرياً عن نظام العربية على ألسنة الناطقين بها وأقلامهم .

* * *

إن ظاهرة الازدواجية في العربية في وجوه تداولها والعوامل التي تتنازعها تمثل انعكاساً ديناميا لتَرَدُّد الأمة بين المثال والواقع .

الفصل العاشر

علّة الثنائيّة

تعميق الحيرة

" . . . المغلوب مولع أبدا بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيّه وَنِحْلَته وسائر أحواله وعوائده" "والسبب في ذلك أن النفس أبداً تعتقد الكمالَ فيمن غلبها وانقادت إليه ؛ إما لنظره بالكمال بما وَقَرَ عندها من تعظيمه ؛ أو لما تغالط به من أن انقيادها ليس لِغَلَب طبيعي إنما هو لكمال الغالب ، فإذا غالطت بذلك واتصل لها حصل اعتقاداً فانتحلت جميعَ مذاهبِ الغالب وتشبّهت به ، وذلك هو الاقتداء ، أو لما تراه – والله أعلم – من أن غَلَبَ الغالب لها ليس بعصبية ولا قوة بأس ، وإنما هو بما انتحلته من العوائد والمذاهب تغالط أيضا بذلك عن الغلب وهذا راجع للأول . ولذلك ترى المغلوب يتشبه أبداً بالغالب في ملبسه ومركبه وسلاحه في اتخاذها وأشكالها ، بل وفي سائر أحواله" .

ابن خلدون

إن اليابان قد نهضت إذ تولَّتْ عملية التحديث بلغتها القومية ، وماكان تَجَنُّبُها استعمالَ لغة غربية إلا لأنها لم تُسْتَعْمَرْ .

ج . ف . نيوستوبني

الثنائية لسانياً

تتّخذ الثنائية اللغوية لدى اللسانيين المحدثين مظهرين : مظهراً فردياً يتمثل في المرء يعرف لغتين معرفةً متكافئة أو متفاوتة ، ومظهراً اجتماعياً يتمثلُ في المجتمع يستعملُ أعضاؤه لغتين مختلفتين يختارون استعمال إحداهما في مواقف معينة ويستعملون الثانية في مواقف أخرى ، وقد يزاوجون بين اللغتين في موقفٍ تواصلٍ واحد في آنٍ معاً(1) .

ثنائية الاختيار والتكليف

أو ثنائية القصد

يُروى عن زيد بن ثابت أنه قال : قال لي رسول الله (ﷺ) : أتُحْسِن السريانية إنه تأتيني كتب؟ قال : قلت : لا ، قال : "فَتَعَلَّمْها" . ويروى عنه أيضاً أنه قال : أمرني رسول الله (ﷺ) أن أتعلّم كتاب يهود . بل يروى أن زيداً تعلم الفارسية والرومية والقبطية والحبشية بالمدينة من أهل تلك الألسن(2) .

مزية الثنائية والتعددية اللغوية الفردية

وحين يتذاكر الناس سِيَرَ القدامى والمحدثين ، وهي مذاكرة تتناول ، في العادة ، أَظْهَرَ ما تميزوا به ، يَحْتَفُون ، على وجه الخصوص ، بأن أحدهم كان يعرف إلى جانب لغته لغة أخرى أو عدة لغات أُخَر ، بل يصبح عدد اللغات التي يعرفها فَضْلَ مزيّة له . وما يزال هذا المرجع في منازل الفضل قائما لدينا في معرض التنويه بامتياز بعضِ الأعلام .

---

(1) ينظر في هذا : Bilingualism in Malaysia عن لي واي (Li Wei) ورودولف ياكبسون (Rodolf Jackobson) وروزلي تاليف (Rosli Tatif) وإين نادزيما (Ain Nadzimah) وموسوعة EnCarta – مادة Bilingual ومادة Bilingualism .

(2) عن سمير الدروبي عن مصادره في : منهجية العلماء المسلمين في الترجمة في العصر العباسي ، مجلة ترجمان ، 1999 ، المجلد 8 – العدد 1 ، ص56 .

فضل الثنائية على الأحادية

إن تَعَلُّم لغة ثانية ، على العموم ، يمنح رؤية المتعلّم أفقا جديدا نحو "الآخر" والحياة عامة ، كما أنه يُنحّي حاجزاً حائلا دون التفاهم المتبادل ، ويكفكف من غلواء التعصب الأحادي النظرة حتى لدى "الآخر" المتفوق الذي يظن أنه "مستغن" بلغته ، فيفضي به طغيان الزهو المرحلي ذاك إلى رؤية لغوية مغلقة محدودة ، ثم يدور به وبلغته الزمن فيأسى لذلك بعد فوات الأوان . ونظير هذا ما ينعاه بعض الباحثين على الفرنسية في بعض أطوارها .

الثنائية اللغوية في العربية في العصر الحديث

ثنائية القَسْر

ولكن للثنائية اللغوية في العربية أو للغة الثانية في حياتنا اللغوية شأناً خاصاً . إذ إنها ثنائية واغلة ، زحفت إلينا في سياق تاريخي مِنْ تراجُع العربية إبان الحكم العثماني ، وانبهارِ العرب بما أصابه الغرب من التقدم في العلوم والصناعات وكثير من شؤون الحياة .

ونجم عن ذلك ، في أول الأمر ، تقابل صارخ بين عربية ضعيفة مستضعفة مستهدَفة وانجليزية أو فرنسية تمثلان رمزا للتفوق .

وتطور الوضع في مخاض التدافع بين العرب والغرب الاستعماري على مستويين : مستوى العربية ؛ إذ تنامى وعي فريق من أهلها على ارتباطها بالمقدس ، ودورها المشهود في تاريخ العلم والحضارة ، وخصائصها الذاتية وإمكاناتها الكامنة ، ومستوى اللغتين الأخريين ؛ إذ جاء بهما المستعمر وفرضهما فأصبحتا لسانين للقوة "المظفرة" فضلاً عما سبق لهما في نفوس المبعوثين إلى الغرب من أنهما رمزان للتقدم . وهكذا كانت الثنائية في العربية ثنائية مفروضة .

ثنائية التكامل الموهوم بالتقاسم

وقد اتخذت الثنائية في الحياة العربية[1] منذ مطلع القرن الماضي صيغةً قائمةً على القسمة : العربيّة للديني والتراثي والإنساني من المعارف ، والإنجليزية أو الفرنسية للعلوم العصرية والصنائع

(1) وينظر في سيرورة هذه القضية ومادار حولها من السجال : القضية اللغوية في تونس ، لمحمد هشام بوقمرة . وهو - وإن اتخذ تونس والثنائية العربية الفرنسية محورا - يمثل نموذجا لهذه المعضلة المقيمة في الفضاء العربي كله .

ووسائل المدنية والتقدّم المادي . ولم يُجْدِ السجال حول هذه الثنائية والذود عن العربية والدعوة إلى تعليم العلوم العصرية بها منذ ذلك الزمان حتى الآن ، على الجملة ، شيئا يذكر .

ومن مفارقات أمرنا مع الثنائية الناجمة عن تعلم لغة ثانية أنها كانت في بداية الأمر لأغراض خاصة قدرناها ؛ إذ كانت مدخلا إلى معرفة الآخر والوقوف على أسباب قوته ، بل تنبه أهل العربية وهم يؤملون أن يستأنفوا مشروعهم للنهضة إلى دور الترجمة وكانت ترجمةً موجهةً أيضاً .

ولكن الظروف التي تعاقبت على الأمة قد انحرفت بهذه المسألة عن وجهتها الهادفة في أن يكون تعلم اللغة الثانية لأغراض خاصة وأن يكون مشفوعا بمشروع شامل للترجمة حتى تتمكن العربية من أداء دورها الذاتي في اللحاق بركب العلم وغرسه في الأرض العربية والإسهام فيه[1] .

ثنائية الاتّباع

فَرَضَ المستعمر لغته [2] ، وتابعناه إذ جعلناها لغة ثانية مفروضة فرض عين ، وغفلنا عن تحديد أغراضنا من تَعَلُّمِها إلا بمثل الشعارات العامة العائمة التي أصبحت كالمسلمات ، ومفادها أن لغة ثانية هي نافذة حضارية وأن الإنجليزية والفرنسية لغتان عالميتان تمثلان رمزين للتفوق .

أصبحت الإنجليزية أو الفرنسية لغة ثانية مستقرة في مناهج الدراسة وظلت على هذه الحال حتى بعد رحيل المستعمر . وكأن تعليمهما غدا تقليداً اتباعياً كالعرف الراسخ . بل تتغلغل الإنجليزية والفرنسية في رياض الأطفال "الخاصة" ، ويُشَرَّع تعليم الإنجليزية في بعض بلدان المشرق ، الآن ، منذ الصف الأول الابتدائي (بعد أن كان تعليمها يبدأ في الصف الرابع أو الخامس) حتى صار الطفل إذا خاطبه أهله بلفظ عربي سألهم : ما معنى ذلك بالإنجليزية؟ أو أجابهم بمقابله الإنجليزيّ . وهي تتمدد الآن إذ تتخذ لغة لتعليم كثير من المواد التي اقترنت بالعولمة من العلوم والتكنولوجيا والاقتصاد وإدارة الأعمال . وعادت القسمة الثنائية التي تراءت لبعض مفكري عصر النهضة كخير الدين التونسي [3] – وهي القسمة التي ألمعنا إليها قبلاً – سياسة لغوية رسمية . وقد اتخذتها دول

---

(1) ينظر في فصل بيان عن هذه المسألة مبحث الترجمة من هذا الكتاب .

(2) وينظر في مسألة هذه الثنائية القسرية بادئ الأمر ، وهي مفارقة ، وإنما نعضدها هنا استئناسا : آثار العولمة في اللغة العربية ولغات الشعوب الإسلامية ، عيسى برهومة ، ص8 ، ص13 ، الندوة الإقليمية : العولمة وانعكاساتها على العالم الإسلامي في المجالين الاقتصادي والثقافي ، التي عقدتها المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة . بجامعة آل البيت – الأردن ، 3-4 مايو (أيار) 2006م .

(3) القضية اللغوية في تونس ص 27 وما بعدها .

إسلامية تنشد التقدم إذ رأت فيها تدبيراً مناسباً للحاق بركب الأمم المتقدمة وهذا شأن اللغة الوطنية واللغة الإنجليزية في التدبير الماليزي القائم على ثنائية "التراث" باللغة الوطنية و "البراغماتية" باتخاذ اللغة الإنجليزية بما هي لغة العلوم والتكنولوجيا(1) .

ثنائية التهجين: مَثَلٌ من المشرق

وتتخذ الثنائية مظهرا خاصا – وخاصة في دوائر العِلْميين ورجال الأعمال وبعض الذين يزدهيهم أن يدلوا على معرفتهم بالإنجليزية والفرنسية . وهي – في معظم صورها – غير لازمة لمن يتحرى النقاء ويرى في العربية رمزا ؛ ذلك أن معظم صور هذه الظاهرة تكون الألفاظ الأجنبية مما له مقابل قريب المتناول في العربية .

وقد وُسِم بهذه "الصفة" بعض العلميين وتصدى لها بعض الدارسين بالاستقراء والاستهجان باحثين عن لغة ثالثة عربية فصيحة ميسرة تغني عنها . وشاعت في أوساط شرائح اجتماعية خاصة ثنائية عامية عربية إنجليزية فالتقطها بعض الهواة وأعدوا حولها ما يشبه فِلْما تسجيليا .

وكانت بعض مظاهر هذه الظاهرة شائعة في أوساط أهل العلم يداخلون فيها بين العربية ومصطلحاتهم الخاصة بحجج متعارفة .

ولعل ذروة المفارقة الفاقعة في أمر هذه الثنائية بل الهجين تتمثل في هذا الموقف الذي ترويه وفاء أبو حطب عن عميد كلية للدراسات الإسلامية زُيِّن له أن يكون تدريس العلوم الإسلامية بالإنجليزية ، وكان أن استمع إلى جزء من محاضرة في الفقه عن الحج جاء على هذا النحو :

"فيرست (First) نبرم حول الكعبة ، وفي أثنائها نعمل تش (touch) للحجر الأسود ، وبعدها نأخذ درينك (drink) من زمزم ووتر (water) ، ثم نعمل ووك (walk) بين الصفا والمروة . والمتمتع يعمل بعدها هيركت(hair cut) ثم هو تيك أوف (take off) التولز (towels) بتاع الإحرام . ويوم التروية بيبت أون (put on) التولز مرة ثانية ، ويعمل تريب (trip) إلى منى ويسليب (sleep) فيها إلى نكست مورنينج (next morning) وبعدها يكونتنيو (continue) التريب إلى عرفات ، ويستي (Stay) فيها إلى بعد المغرب ، ثم يكونتنيو إلى مزدلفة ، ثم إلى منى ، وفيها يرمي ستون (stone) على هيذا إللي بيعمل مشاكل كثير للناس ، وبعدها يقوم بعمل سلوتر (slaughter) للشيب

---

(1) `Bilingualism in Malaysian Corporate Communication, by Shameem Rafik-Galea and Mohd. Salleh Hj. Hassan, 2003, pp. 93, 94. 97.

(sheep)حتى يستطيع يتك أوف التولز ونس مور (once more) ، لكن هذا اسمه سمول (small) تحلل ؛ لأن لسه عليه أن يبرم حول الكعبة ليتحلل كومبليت (complete)"[(1)] .

وسواء أكانت هذه واقعة حقيقية أم نكتة موضوعة مركبة فإن دلالتها الرمزية تظل واقعية بمعنى واقعية الممكن بل واقعية الكائن فعلًا .[(2)]

مثل من المغرب

وتتخذ هذه الظاهرة في المغرب نَمَطَ خطابٍ آخر يسمى "فرانكو أراب" وهو خطاب "يمزج فيه كل من الذكر والأنثى بمجتمعات المغرب العربي حديثهما باللهجة العربية العامية بعبارات وكلمات فرنسية" ، غير أن "النساء المغاربيات المتعلمات والمثقفات على النمط الغربي على الخصوص يَمِلْن أكثر من زملائهن الرجال إلى استعمال عدد أكبر من الكلمات والعبارات الفرنسية في عاميتهن العربية" . ويُرْجع محمود الذوادي هذه الظاهرة عامة وميل النساء إليها خاصة إلى عاملين رئيسين يمتزج فيهما النفسي بالاجتماعي يتمثلان فيما يسميه حالة "التحقير المزدوج" ، وتتمثل في "الشعور بالدونية أمام المستعمر الفرنسي" وهو شعور مشترك بين الرجال والنساء . أما عند النساء فتتمثل في "شعور المرأة خاصة المتعلمة والمثقفة بالدونية بسبب العراقيل التي تضعها عقلية وتركيبة وتقاليد هذه المجتمعات أمام المرأة" "فهي ، مقارنة بالرجل ، تجد نفسها محرومة من أداء بعض الأدوار والقيام بالعديد من المساهمات في خضم واقع المجتمع الحديث" . وإذن يقوم هذا السلوك اللغوي بوظيفة نفسية تمثل حلا تعويضيا يوهم المرأة بكسب رهان المساواة مع الرجل ، ويكون استعمال الفرنسية لدى النساء ذا دلالة رمزية من وجهين : "محاولة الاقتراب من صورة ومكانة الغالب (الفرنسي) ، وذلك بتقليده في لغته قصد التخلص من الشعور بالدونية أمامه" و "عملية احتجاج سلمية على النظام الاجتماعي لهذه المجتمعات التي لا تزال بها حواجز تقف أمام مساواة المرأة بالرجل . . ."[(3)] .

---

(1) أثر العولمة على اللغة العربية والهوية الإسلامية (مخطوط) ص 21 ، وفاء أبو حطب ، في : الندوة الإقليمية : العولمة وانعكاساتها على العالم الإسلامي في المجالين الاقتصادي والثقافي ، التي عقدتها المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة ، في جامعة آل البيت - الأردن 3-4 مايو (أيار) 2006 .

(2) أبدى الدكتور إياس الموسى حساسية وحرجاً من إيراد هذا المثال لمحتواه وشكله ، ولكنني دافعت ما داخلني مثل الذي داخله من الحساسية والتحرج ثم وجدت أن ملامسة الواقع- وإن كانت لاذعة - تمثل مواجهة لازمة بل استذكرت بعض ما ساقه الجاحظ نيلاً من مثل هذا التهجين تهجين العربية بالفارسية . ويظر : البيان والتبيين 186,82/2 .

(3) ينظر في كل ما تقدم حول ظاهرة (الفرانكو أراب) : ظاهرة الدعا والفرانكو أراب في ميزان علم النفس الاجتماعي ، محمود الذوادي ، مجلة أوان ، العدد العاشر ، 2005 ، ص 40-47 .

المقولة الخلدونية

وتمثل مقولة ابن خلدون الذائعة تفسيراً جامعاً لهذه الظاهرة . وهي مقولة متداولة ، ولكن مقام التذكار والتوثيق يقتضي إيرادها ، ومطلب البحث يقتضي تفكيكها .

يقول ابن خلدون في الفصل الذي عقده **"في أن المغلوب مولع أبداً بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده"**[1] ؛ **"والسبب في ذلك أن النفس أبداً تعتقد الكمال فيمن غلبها وانقادت إليه ؛ إما لنظره بالكمال بما وقر عندها من تعظيمه ؛ أو لما تغالط به من أن انقيادها ليس لغلب طبيعي إنما هو لكمال الغالب ، فإذا غالطت بذلك واتصل لها حصل اعتقادا فانتحلت جميع مذاهب الغالب وتشبهت به ، وذلك هو الاقتداء ، أو لما تراه – والله أعلم – من أن غلب الغالب لها ليس بعصبية ولا قوة بأس ، وإنما هو بما انتحلته من العوائد والمذاهب تغالط أيضا بذلك عن الغلب وهذا راجع للأول . ولذلك ترى المغلوب يتشبه أبداً بالغالب في ملبسه ومركبه وسلاحه في اتخاذها وأشكالها ، بل وفي سائر أحواله"**[2] .

إن القراءة الأولى لهذا النص تقدم تفسيرا مباشرا للانقلاب السيميائي للشارع العربيّ في أعلام المَطْعَم والمَشْرَب والمَلْبَس والمَرْكَب والمَسْلَك في مظهر الشبان والمَلْسَن في **ثنائية البيان** .

أما القراءة الثانية فتقدم تفسيراً للاستلاب الذاتي الذي يستشعره المغلوب ، بمغالطة نفسه ، وذلك هو ظنه بأن "هزيمته" ترجع إلى عوامل ذاتية قائمة فيه جارية في حياته هي عوائده الخاصة ومذاهبه . وذلك تأويل مركب النقص الذي ينعكس على المغلوب العربي في هذا الزمان ويفضي به إلى ازدراء لغته على التعيين .

ثنائية الانفصام

وقد أورثت هذه الثنائية في الحياة العربية صَدْعاً خَلَّفَه المستعمر بؤرة للصراع لعلّه أنكى مما خلفه من جيوب التنازع بين الدول التي استعمرها . وليس ما أصاب مشروع التعريب في الجزائر بعد الاستقلال بل بعد بعد الاستقلال إلا مثالاً واحداً على هذه النازلة .

ينقل تقرير التنمية الإنسانية العربية لعام 2003 [3] عن التقرير القطري المُعَدّ لتقرير التنمية الإنسانية العربية الثاني ما يلي :

---

(1) المقدمة ص258-259 .

(2) المصدر السابق في الموضع السابق ، وتتواتر موارد "العصبية" في "المقدمة" وهي تمثل ، ثمّة ، مجمع الشروط (من الدين أو النسب أو العدد) التي تتحقق بها للأمة العزة والسلطان والنفوذ والغلبة .

(3) ص 124 .

"عمّقت الدولة الجزائرية جهودها منذ بداية الثمانينيات في القرن الماضي لجعل اللغة العربية هي الغالبة في حياة المجتمع بدلاً من اللغة الفرنسية . وقد أثرت سياسة التعريب التي فرضت لأكثر من عقدين على التعليم والاتصالات بوجه خاص ، وكذلك على القضاء وكثير من مؤسسات الإدارة العامة . ونجم عن التحول من الفرنسية إلى العربية ، الذي تعرض له جيل كامل من المهنيين الذين كانوا غالبا يتحدثون الفرنسية ، في نظر البعض ، خسارة في المعرفة والقدرة . وكان التعريب أقل فعالية في ميادين الاقتصاد والثقافة والإدارة حيث ما زالت الفرنسية هي المهيمنة . كما أن الكتب والصحف وبرامج الإذاعة المسموعة والمرئية تطبع وتذاع إما بالعربية أو بالفرنسية (والبعض باللغات البربرية) مع القليل من الترجمات . وقد أدى **التقسيم اللغوي إلى اختلال الانسجام** والتجانس في تدفق الاتصالات بين المجالات المختلفة للمجتمع . ويبدو أن التوتر الناتج عن ثنائية اللغة قد فقد حدته في السنوات الأخيرة وترك مجالاً لتطور تعددية اللغة[1] في ميادين مختلفة من التعليم والاتصال" .

وهكذا تفضي الثنائية إلى اختلال الانسجام ، ويبدوا أنها لن تخفف من حدة التوتر الناتج عنها إلا بالتعددية وهي في هذه الحال مزيد من الانقسام .

هاجس الحَظْر

وكأنما وقع العالم العربي في حَظْر ضمني لمراجعة ظاهرة الثنائية . وهو حظر لا يختلف في جوهره عن الحظر الغربي المعلن لمراجعة القول في موضوع الهولوكست .

استنام العربي على الواقع الجاري بقوة الاستمرار ، وكأنما أصبح مستبعدا عنده أن يتساءل : ما جدوى تعميم تعليم الإنجليزية على نطاق واسع ينازع اللغة العربية؟ ولعله رَكَنَ في ذلك إلى الشعار المطلق : أن تعليم الإنجليزية يمثل نافذة على حضارة متفوقة تمدنا بأسباب القوة والتثاقف . وكأنما غفل عن غرض المستعمر ، أصلا ، من فرض لغته .

ثنائية الهَدْر

لم يَنْصَدْ العالم العربي لمراجعة موقفه من هذه المسألة ، مسألة تعميم تعليم اللغة الثانية ، ولم يتوقف ، بالطبع ، لمراجعة مقدار حاجته إلى تعلم اللغة الثانية ، ولم يراجع ما أنفق من أموال[2]

(1) منطوى هذا تشريع جعل البربرية (أو الأمازيغية) لغة رسمية .

(2) ينظر في تحليل مستقصي للبعد الاقتصادي ووجوه التحقق من جدوى تعليم اللغة الثانية من هذا البعد : اللغة والاقتصاد ص 110 ، ص154 .

وأعمار وجهود ضائعة في تعليم الإنجليزية أو الفرنسية لأجيال بأكملها في المدارس ، تفرض عليها فرضاً ثم لا تُحَصِّل من الكفاية فيها شيئاً يذكر ؛ إنْ على مستوى سد حاجات "تواصلية" أو "معرفية" . ولو راجع العالم العربي حصيلة ماحققه تعليم الإنجليزية أو الفرنسية على مدى عقود من السنين لطلبة بالملايين لَوَجَد أن جُلَّ ذلك كان هدراً وخبط عشواء . إن جمهرة المتخرجين في التعليم العام في العالم العربي يتعثرون في إقامة جملة صحيحة بالإنجليزية ، مثلا ، وإن جمهرة هؤلاء المتعلمين – حتى على مستوى الدراسات العليا – ما يزالون يستصعبون اللغة الإنجليزية ، بل إنها ما تزال تمثل لديهم "عقدة" ويقوم بينهم وبينها حاجز نفسي يقلقل سكينتهم . لم يبلغ بهم تعلم الإنجليزية كفاية لغوية أولية ولا قدرة تواصلية ولم يستفيدوا به بعداً جديداً من التنوير . وحسبي أن أقرر هنا أن من أعدوا رسائلهم للماجستير والدكتوراه – وهم في العادة أصحاب كفاية عقلية لغوية منهجية – على مدى ثلاثة عقود كانوا يفيئون إلى أحد مكاتب الترجمة ليترجم لهم ملخصات رسائلهم ، كل ملخص في قريب من الصفحة ويكون في تلك الترجمات من الخطل والفساد ما يعطل المراد . وإذا غَلَوْت في الاحتراس لم أستثن من هذا البلاء العام إلا عدداً لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة بين مئات الخريجين والخريجات من حملة الماجستير والدكتوراه وحاملاتها .

أسئلة الثنائية (1)

كان حقا على الأمة أن تعيد – في سياق طموحها إلى الاستقلال ومُسْتَأْنَفِ النهضة – طرح سؤال اللغة الثانية على مثل هذه الأنحاء :

- لماذا فرض المستعمر علينا لغته ابتداء؟
- ما جدوى تعليم هذه اللغة الآن؟
- هل تعلمها لنستأنف مشروعاً شاملاً للترجمة ، مثلاً؟
- هل تعلمها لأغراض التواصل الاقتصادي؟
- هل نعلمها لأغراض التواصل السياسي؟

(1) كنت قرأت هذه الأسئلة على نفر من المشتغلين بالعربية ، فأحسست أن بعض من تسكنهم الحاذرة قد أشفق من جرأتها ، ثم وجدت أن منطويات بعض هذه الأسئلة قد وردت لدى أحمد الضبيب فأنست بذلك إذ وجدته يعضد بعض ما كنت هجست به . وأحتفي هنا بأن أشير في هذا الشأن إلى ما ورد في كتابه : اللغة العربية في عصر العولمة ، ص 26 ، 38 .

- هل نعلمها لأغراض علمية محددة؟

- هل نتعلم اللغة الإنجليزية أو الفرنسية لنتفاهم بها في محيطنا العربي؟

- هل نعلمها لأغراض إعلام مُوَجّه إلى "الآخر" يقدم له الحقيقة عنا وعن حقنا ، مثلا؟

- هل يكون تعلم اللغة الإنجليزية والفرنسية فرض عين على العربي؟[1]

- لماذا لا يكون تعلم اللغة الإنجليزية والفرنسية فرض كفاية يُوَجّه له عَدَدٌ من أفراد الأمة لغايات مقررة مقدرة تسد حاجة الأمة في سياق مشروعها القومي الخاص؟

- لماذا لا تقرر الأمة في سياق انفتاح حقيقي على العالم طلبا للنهضة والتقدم والتثاقف أن تجعل تعليم لغات أخرى كالصينية واليابانية والكورية والهندية والأردية .. جزءاً من مشروعها للإمساك بمفاتيح التواصل التكنولوجي والثقافي والسياسي؟

- أليس لنا في حال الأمم الأخرى التي تتعلم العربية لأغراضها المحددة عبرة؟

- أليس ما يشبه الاقتصار على هاتين اللغتين انغلاقا على بقية العالم؟

- هل كان تعليم الإنجليزيه والفرنسية بعد رحيل الاستعمار بعقود عاملا في تحقيق التقدم؟

- هل أدى تعليم العلوم بالإنجليزية والفرنسية في العالم العربي إلى نهضة علميّة عربية؟

احتراس

وليست هذه الأسئلة دعوة إلى وَقْف تعليم اللغة الإنجليزية ، ولا إلى وَقْف تعليم اللغة الفرنسية أو أية لغة أخرى . وإنما هي دعوة إلى مراجعة التجربة وتعميقها بدلا من تعميمها وتعميتها . فإذا ظن أحدٌ أن تحديد تعليم هاتين اللغتين لأغراض معلومة سيلقي إلينا أعداداً هائلةً من معلمي اللغتين يصبحون عبئاً وعالةً عاطلين عن العمل قلنا : إن الأمر هو بضد ذلك تماما . إنهم سيكونون – في إطار

---

(1) استدرك الدكتور إياس الموسى عند هذا الموضع بما يلي : إلا أن يكون تعليم الإنجليزية (مثلاً) موجها لأغراض التواصل والقدرة على تناول وسائل الاتصال (الإنترنت خاصة) وأن يختار له أوسط الأعمار استعدادا لاكتساب اللغة (سن الثامنة مثلا) وأن نختار له أنجع السبل وأكثر الأساليب تطوّراً وأن يكون ذلك لمدّة لا تتجاوز ثلاثين أسبوعاً (سنة دراسية كما في حال اللغة الثانية) وفقاً لما يقدّره الذين قارنوا بين المدد اللازمة لتحقيق الكفاية اللغوية في اللغات المختلفة إذ كانت هذه المدّة – على التقريب– هي المدّة اللازمة لتحقيق الكفاية اللغوية في الإنجليزية .

تدبير موجه رشيد - عُدَّة صالحة لسد حاجات حقيقية أُخَر ؛ فَبِهِمْ يمكن أن تستأنف الأمة مشروعا شاملا للترجمة ، مثلا ، ومشروعات للإعلام الموجه باللغتين للآخر ، ومشروعات للاقتصاد بوجوهه عامة والسياحية مثلا . وإنما أقول : عدة صالحة لأنهم بما يعرفون من اللغتين سينهضون بهذه المهمات بتعاون بَيْنِيٍّ كما في حال الترجمة ، وتدريب منهجيٍّ كما في حال الإعلام وغيره . ويكون دليلنا في هذا التدبير هو تقدير الحاجات على بينة ، وتصحيح المسار بمعالم هادية ، والخروج من عدمية التعميم بوضع الأمور مواضعها .

ترشيد الثنائية: وعي الاختيار والجدوى

وإنما يكون ترشيد الثنائية لتحقق أصل الغاية ولتتحرر من شبهة التبعية والتعميم غير المجدي بأن يطرح على الناشئة سؤال الوعي المباشر : لماذا نتعلم اللغة الإنجليزية؟ أو : لماذا نتعلم اللغة الفرنسية؟ أو لماذا نتعلَّم لغة ثانية؟ ولعل الإجابة "الديمقراطية" عند ذلك ستفضي بنا إلى تعيين اللغات المفيدة والأعداد الراغبة والغايات المنشودة والحاجات المحددة . ولعلنا لو فعلنا ذلك لأصبح تعلُّم المتعلم لغةً ثانية يرغب فيها مُوقِناً بجدواها مشدوداً إلى هدف معلوم مُوَجِّها بحافز يؤدي إلى الإتقان ، تدبيراً رشيداً ورأياً سديداً .

ترشيد الثنائية بالتعددية الموجهة

كل لغة تنطوي على قيمة خاصة ، حتى اللغات المهددة بالانقراض تحرص بعض الأمم على إنشاء مؤسسات تتولى تدوينها وحفظها بل تشجع على تدريسها . ومَثَلُ ذلك ما تفعله اليابان وألمانيا وجهاتٌ أكاديمية في الولايات المتحدة . ولعل ترفا كهذا ليس متاحا لنا . فإذا استطلعنا اللغات الحية الفاعلة في المشهد الكوني ، وتحققنا بأبرز مزايا فعاليتها كأن تكون لغةٌ تُنْبِئ عن أمة نهضت بفلسفتها في "العمل" أو في "البراغماتية الوظيفية" أو في "البصيرة العقلانية" . . . إلخ .

إذا نحن فعلنا ذلك فإنه يمكننا أن نميز عددا من اللغات نقترحها لمناهجنا في تعليم لغات أخرى .

بل ننظر في حالنا نحن وحاجاتنا إلى ما أنجزه الآخرون بلغاتهم فنتوجه إليه باختيار تلك اللغات وفقا لهذه الحاجات .

وإذن لا نقتصر على اللغة الإنجليزية أو الفرنسية بل ننفتح على اللغات الكونية جميعاً وفاقاً

لفضائلها الحقيقية "الأنية" المتمثلة في خصوصيات إنجازات الأمم الناطقة بها ووفاقاً لأغراض محددة (1) نقدرها من جانبنا .

حيرة الثنائية

أما الثنائية في الحياة العربية على ما وصفنا من حالها فلم تُعْقِب فينا إلا حيرة عطلت فعالية اللغة العربية في شطر رئيس من مقومات حياتها هو شطر العلم والتكنولوجيا والاقتصاد .

بل إن الثنائية قد أَخَلَّتْ بالاتساق في المجتمع العربي بما أدخلته على بعض الناشئة من هذه الاتجاهات السلبية نحو لغتهم ، وما أدخلته على بعضهم من الزهو والاستعلاء باللغة الأخرى ، كما أفضت إلى تهجين العربية على ألسنة الناطقين بها في المشرق والمغرب .

---

(1) إن النظر السديمي إلى هذه المسألة كان يعمي على بعض المحافظين وجه تعليم العبرية مثلا إذ يراه -بنية خالصة- كالاعتراف بالمحتل والإقرار بمشروعية وجوده . وكأنما كان يغيب عنه المأثور : من عرف لغة قوم أمن مكرهم . وكنا في مرحلة من اختلاط الأمر علينا ندخل في الحيرة حين نسمع المحتل يدخل البلدات والبيوت فيرطن ببعض العربية ونحن في أمر مريج بين ما ينطق به لسانه وما تفعله بنا يداه .

ه ذيّل الدكتور وليد العناتي هذه الحاشية بما يلي : بل نراه يستثمر العربية ليؤسس فرق الاغتيال الخاصة التي يسمّيها "المستعربون" ، أو يرتّب الناطقين باسمه ليتحدثوا بالعربية : لُغَتنا .

الفصل الحادي عشر

هاجس العولمة

بيت النابغة[1]

(1) من بيت النابغة للنعمان :
فإنك كالليل الذي هو مُدرِكي   وإن خِلتُ أن المنتأى عنك واسعُ

إنّ ما كان يجري طَوال حياتي هو أمركة العالم

جورج برنارد شو

(ولد سنة 1856 ، وكتب هذا سنة 1912)

لعله من قبيل الاتفاق أن تكون "العولمة" على صيغة "فَوْعَلَة" ، وأن يكون من نظائرها في العربية "الزوبعة"[1] . ولكنها قد أمست لفظا عربيا مقابلا لـ Globalization بل عنواناً عربياً محورياً [2] .

وجرى أهل العربية في تعريف العولمة على خطى من شرحوا المراد بـ Globalization ، وغدت إعادة التعريف كالفضول ولزوم ما لا يلزم . ولكن أهل العربية قد تبصروها وتداولوها برؤى ومواقف متنوعة ؛ فهي - عند بعض أصحاب العقلانية العملية الإيجابية" واقعة لا تملك إلا أن تعيشها وأن تتقلب بين ظهرانيها"[3] . وهي مرادف "الأمركة"[4] لدى من يختزلونها بدلالة مشخصة على القوة المتفردة بالهيمنة على العالم ، المترعة بقوتها العسكرية ، ونفوذها السياسي ، وجبروتها الاقتصادي ، وثقافتها الليبرالية الذرائعية ، وأذرعها الإعلامية التي تحاصر الفضاء الكوني كَلَيْلِ النابغة .

وهي خصم "الهوية" اللدود عند المشفقين منْ تَغَوُّلِها على الخصوصيات الثقافية وسعيها الدؤوب لتنميط[5] العالم كله على مثالها ، إذ أمسى عنوان : العولمة والهوية محور الندوات والمؤتمرات التي نَهَدَ أهل العربية لعقدها في بضع السنوات الأُوَل من هذا القرن . وهالَهُمْ احتكارها لأهم وسائل الاتصال والتحكم بتداول المعرفة -وهي الإنترنت وأداتها الرئيسة الحاسوب- فقرنوا بها الحوسبة[6] ، وهي نظيرتها في الصيغة . بل تابعوها في المَبْنَى طلباً للاستقلال والتميز في المعنى إذ صاغوا على

---

(1) أستعمل الزوبعة هنا بمعناها المتعارف ، ولكني وجدت أحد رافعي راية العولمة وهو هاينرش بيرر (Heinrich Von Pierer) يستعمل الزوبعة على نحو مختلف إذ يعلن "بلهجة من ربح المستقبل وانتصر : لقد تحولت رياح المنافسة إلى زوبعة وصار الإعصار الصحيح يقف على الأبواب" كأنما يحاول بذلك الإيحاء "بأن الأمر يتعلق بحدث شبيه بالأحداث الطبيعية التي لا قدرة لنا على ردها والوقوف بوجهها" . فخ العولمة ص29 ، 30 .

(2) استحوذت العولمة على أدبيات البحث في المشهدين العربي والكوني من وجوه شتى . وإنما نقتصر هنا على أدنى ما يتصل بموضوعنا نفيا للاستطراد والقول المعاد . وينظر في الإحالة إلى العولمة : مراجع أبحاث الندوة التي عقدتها المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة ، الأردن ، 3-4 مايو (أيار) 2006م .

(3) فهمي جدعان في رياح العصر ، ص17 .

(4) كمال بشر في ندوة قضايا اللغة العربية في عصر الحوسبة والعولمة ص6 .

وليست الأمركة مصطلحا عربيا خاصا فقد تداولها "الآخر" منذ كلمة جورج برنارد شو 1912 إلى مؤلفي فخ العولمة في نهايات القرن الماضي . فخ العولمة ص126 .

(5) ينظر في أن العولمة تقصد إلى تنميط اللغة كما تسعى إلى تنميط الإنتاج :

Lost Tongues and the Politics of Language Endangerment, by Salikoko S. Mufwene Univ. of Chicago 2001

(6) كما في ندوة "قضايا اللغة العربية في عصر الحوسبة والعولمة" التي عقدها اتحاد المجامع اللغوية العربية بالتعاون مع مجمع اللغة العربية الأردني (رجب 1423-أيلول 2002) .

مثالها العَوْربة . ورأوها تنشد "الاستفراد" بالعالم فجعلوها قسيماً للعالمية التي هي طموح مشروع إلى الانتشار على مستوى العالم (كما في المشروع الإسلامي قديما) . ووَجْهُ المفارقة هنا أن (العالمية)(1) لم تكن إكراهاً أو قسراً أو إلغاء للخصوصيات الثقافية لأصحاب الديانات والأعراق الأخرى . وتَلَمَّس منظرو الجانب العربي بديلَها المضادّ في "النفوس التي أخلصت إلى الإنسانية مهجتها"(2) .

مِنْ قبل

وكانت مظاهر "الأمركة" تتسلل إلى تفاصيل الحياة العربية على مدى عقود في النصف الثاني من القرن العشرين . ولكنها كانت مظاهر تتخذ سيمياءاتها من حيث هي "أسلوب حياة" يستهوي كثيرا منّا بتلقائية الجاذبية ، غير مقترنة بخطاب استعلائي سافر ؛ إلى أن آذن القرن العشرون بالأفول وتفردت أمريكا بمنزلة القطب الأحادي وسفرت عن مشروعها الإمبراطوري واستعلن مصطلح "العولمة" مقترنا بها .

العولمة اللغوية: صورة بانورامية عَجلَى

يظهر للخاطر الأول أن "العولمة" قد هيأت للإنجليزية أن تنتشر وتشيع بمعجم مشترك يشبه أن يكون كونياً ؛ معجم نجده في العربية كما نجده في كثير من اللغات الأوربية والآسيوية والإفريقية . وهو معجم يبدأ برموز الحياة اليومية الأولية في التحية(Hi) ، والشكر (Thank you)والوداع (Bye) والموافقة (Ok) ووعد اللقاء (See you soon) . إلخ . ويمتد إلى رموز الأطعمة(McDonald's) و(Burger King) و (Pizza Hut) و (Popeyes) و (Chilli House) حتى لَيَتَسَمّى العالم بـ Mc World ، ورموز الأشربة (Pepsi Cola) و (3) (Coca Cola) و (Seven Up) ، وطرز الألبسة (Jeans) و (T-shirts) وصنوف المركبات التي لا نعرف كيف نعيش بدونها(4) (Caprice) و (4Wheel) ووسائل الاتصال ومعجمها (Mobile) و (Message) و(Internet) و(Save) و (Format)حتى ليتسمى العالم بـ (Mc Communication) .

وإنما هذا غيض من فيض(5) . ومما يغيظ بعض الفرنسيين أن بعض هذه المفردات تتداول بينهم

(1)ينظر في مفهوم العالمية بهذا المنظور : الأبعاد الثقافية للعولمة مقارنة بخصائص النزعة العالمية للإسلام ، ص6 وما بعدها ، عرفان عبد الحميد فتاح ، (مخطوط) .

(2)عبد السلام المسدي في العولمة والعولمة المضادة ص3 .

(3) يقول الناقد الاجتماعي إيفان ايليش (Ivan Illich) ساخرا : "صار العطش يرتبط على نحو مباشر بالحاجة إلى الكوكا كولا" . فخ العولمة ص 46 .

(4) هذه عبارة تجري في إعلان دعائي عن تلك السيارة بلسان عربي .

(5) ينظر لمزيد من الأمثلة : التداول بالإنجليزية في العالم العربي ، لوليد العناتي ، مجلة البصائر ، المجلد 8 - العدد 2 ، شعبان 1425 - تشرين الأول 2004 .

مع أن لها نظائر في لغتهم[1] . ويتنازع الناطقون باللغات المختلفة في أمرها فمنهم متقبل ، ومنهم متحفظ ، ومنهم غير آبه يرى أن هذه ظاهرة عابرة شأنها شأن سائر الظواهر الإنسانية في هذا الوجود المتغير . ولكنهم جميعاً مشفقون من تأثيرها على ثقافاتهم الوطنية وأهمّ مظاهرها وهو اللغة[2] .

أما في العربية فإن هذه المفردات قد استوطنت حتى غدا الجيل الناشئ يشتق منها فيقول : مسّج أو مسّج من Message بدلا من أرسَل أو أرسِل ، وسيّف ، وتسييف ، من(save) بدلا من (احفظ وحفّظ) وفرمَت وفرمِت وفرمتة من (Format) بدلا من شَكّل وشَكِّل وتشكيل . بل إن سَبْقَ هذه المصطلحات إلى التداول بينهم جعلهم يستهجنون أو يستثقلون المقابل العربيّ ويستضحك أحدهم أوإحداهن إذا اقترحت أن يستبدل بـ Double Click نقرتان ، مثلا .

شيء من التاريخ

إن هذه المظاهر من امتداد الإنجليزية تترجم اليوم دعوات تعود إلى قرن من الزمان ، ومشروعات جارية حتى الآن . فقد قدم مرغوليوث (المستشرق الإنجليزي) في مؤتمر الأعراق العالمي في جامعة لندن في صيف 1911 "بيانا عن اللغة التي يجب أن تكون شائعة لتفاهم شعوب العالم كله أجمع ، واستخرج منه وجوب اتخاذ اللغة الإنجليزية واسطة لإدراك هذه الغاية" ، و "أتى في جملة براهينه بمقابلة بين اللغتين الإنجليزية والعربية قال فيها : إنه لو تساوى عدد المتكلّمين باللغة العربية وعدد المتكلمين باللغة الإنجليزية لوجب تفضيل الإنجليزية على العربية لأن فيها استعمال الحركات

---

(1) Language Based Issues of Globalization & the Internet -Lauren Labrecque pg 1

(2) : ينظر في بيان هذه المواقف

Topics Online Magazine- What's happening to our Languages"

(1997-2002: topics-mag@yahoo.com

- American English Influences Japanese- by Keiko Endo.
- The Influence of English on Russian and Ukranian - by Yuliya Melnyk.
- The Influence of English on the German Language -by Dorothea Baerthlein.
- The Ameicanization of the German language -by Elizabeth Volquardts .
- The Influence of English on Venezuelan Spanish -by Alice Ortiz.
- English Leads to Identity Crisis in Venezuela -by Coromoto Michelangeli .
  English and other Languages Change Serbian -by Natasa Popovic.
- The Power of the English Language in Brazil -by Simone Corte.
- Singlish is Common in Singapore -by Maho Yamada.

والحروف الكبيرة مثل A ، B ، C ، D إلخ . والحروف الصغيرة أيضا مثل : a ، b ، c ، d إلخ . وهو مزية تجعل الصحيفة الإنجليزية أوضح من العربية وأبين"[1] .

ولعل أبرز معالم هذا الطموح تتمثل في مشروع اللغة الإنجليزية الأساسية الرامي إلى حل مشكلة تعدد الألسنة البشرية أو البلبلة . وهو يتمثل في مرافعة عن وجوه امتياز الإنجليزية لأنْ تنهض بهذه المهمة على مئات اللغات الاصطناعية المقترحة لهذه الغاية . ويعود هذا المشروع إلى الربع الأول من القرن الماضي . وقد شَرَعَه حوالي سنة 1920 سي . كي . أوجدن [2] (C. K. Ogden) وآي . إي . ريتشاردز (I. A. Richards) في كمبردج . وهو يقدم الإنجليزية الأساسية على أنها محاولة لمَنْح كُلِّ واحد لغةً ثانية ، أو لغة عالمية بأقل وقت ممكن . إنها نظام يمكنك أن تؤدي به أغراض وجودك اليومي جميعاً ؛ إذ إنه يستغرق اهتمامات الرجال والنساء ، والأحاديث العامة ، والتجارة ، والعلم . وتتميز الإنجليزية فيه بمفرداتها المحدودة بـ 850 كلمة تؤدي ما تقوم به عشرون ألف كلمة ، وأفعالها الثمانية عشر ، وأن نَظْمَها (Word Order-Syntax) سيكون محدودا ثابتا بقواعد قليلة بسيطة أيضا [3] . وتفيء أطروحة الكتاب إلى دعوى أن غياب وسيلة مشتركة للتواصل هو العقبة الرئيسة أمام التفاهم العالمي ، وأنه السبب الرئيس الثاوي وراء الحروب والعقبة الكأداء في وجه تقدم العلم العالمي وتطوير التجارة الدولية . [4] .

ويستعلن في سياق هذا المشروع شعار هنري فورد ذو الكلمات الأربع : اجعل كلاً يتكلم الإنجليزية (Make everybody speak English) ويضع (أوجدن) بإزائه مقابلاً أحدث هو : الإنجليزية الأساسية للجميع[5] (Basic English for all) .

وقد جَهَرَ بمشروع الإنجليزية الأساسية ونستون تشرشل في خطابه بجامعة هارفارد في السادس من أيلول 1943 معتداً إياه خطة متقنة للُغة عالمية قادرة على الوفاء بحاجات التواصل في مجال الأعمال وتبادل الأفكار ، ووسيلة "للتفاعل بين أعراق شتى ، وعاملاً في تشييد صيغة (الغرب) الجديدة لحفظ السلام"[6] .

---

(1) نفي أوهام الأوروبيين في صعوبة تعلم اللغة العربية ، كتفاصالا (فينلندا) ، مجلة المجمع العلمي العربي (دمشق) ، الجزء 11 – المجلد 4 تشرين الثاني 1924م - ربيع الثاني 1343هـ ، ص 488 .

(2) هو مؤلف كتاب الإنجليزية الأساسية (Basic English).

(3) Debabelization pp. 9-10

(4) المرجع السابق ص13 .

(5) المرجع نفسه ص 13 .

(6) Handbook of Basic English, pp. vii

وقد تضمن الترويج للإنجليزية الأساسية دعوة صريحة إلى إماتة ألف لغة ، واتخاذ لغة واحدة هي الإنجليزية ، وتدابير تجعلها أكثر اللغات الطبيعية صلاحية لأن تكون هي اللغة العالمية .

وسواء أكانت الإنجليزية هي الأساسية (BASIC) بمفهوم (أوجدن) القائم على لغة إنجليزية عدّةُ كلماتها 850 وأفعالها 18 وقواعد نظمها محدودة أم اختصار British American Scientific International Commercial فإن المشروع في غايته النهائية واحد غير مختلف .

بل يتخذ المشروع هذه الأيام صيغة برنامج لسانيّ بَيْنيّ يتوسل بأبعاد لغوية وتربوية وثقافية .

إنه يتُخذ لدى باحثين "عاديين" لا ينبئ اسماهما عن مثل ما ينبئ عنه موغوليوث وأوجدن! هيئة مشروع تطوير يقدمه باحثان لسانيان يروج لإنجليزية عالمية(EIL) على بينة . وتتمثل صيغة هذه الدعوة التي تتجدد أول هذا القرن في تعليم الإنجليزية لغة عالمية(EIL) على نحو مغاير لتعليمها لغة ثانية(ESL) أو لغة أجنبية (EFL) ومغاير لتعليمها لأغراض محددة (ESP) .

إن مواصفات اللغة الإنجليزية العالمية في هذا المشروع أنها وصفيّة (Descriptive) لا معيارية (Prescriptive) ، إصلاحية (Reformative) ، تعددية التباين (Intervariatel) تستوعب الناطقين بها على تباين أداءاتهم ، وظيفية (Functional) ، تعددية التثاقف (Multicultural) تنأى عن أحادية المحمول الثقافي . . . إلخ(1) .

ومهما تتلطف الدعوة إلى عولمة الإنجليزية في تزيين اليسر (كما في مشروع أوجدن) أو نفي الانحياز (كما في مشروع الإنجليزية العالمية) أو دعوة الخير والسلام (كما في الخطاب السياسي المُقنّع لدى تشرشل) أو استعلاء الخطاب الاقتصادي لدى هنري فورد فإن جرثومة القَصْد المُبَيَّت للاستحواذ المنفرد تفضحه الصحافة . ومَثَلُ ذلك ما استعلن في الصحافة البريطانية سافراً متغولاً حتى على أوروبا نفسها إذ جاء في عدد الديلي ميل يوم 29 نوفمبر 1991 : "إذا كان لأوروبا أن يكون لها مستقبل فإنها بحاجة إلى أكثر من عملة موحدة ، وسياسة خارجية ومنظومة من القوانين موحدة . إن عليها أن تكون لها لغة مشتركة ولا يمكن أن تكون تلك اللغة إلا الإنجليزية"(2) .

---

(1) ينظر في تفصيل هذا المشروع :

Basic Assumptions in Teaching English as an International Language, by Mohammad Reza Talebinezhad and Mohammad Aliakbari, The Internet Tesl Journal, Vol. VII. No. 7. July 2001 -http://iteslj.org.

(2) International Languages and International Human Rights, by Robert Phillipson. http: //nea.org/info/angle/ed37-angla. html 2003-03-26.

ولا مراء في أن الإنجليزية تمتد في المشهد الكوني ، ولكنها – من بعض الوجوه – قد أخذت تتحول عن نموذجها القياسي الخالص ، إذ إنها تتأثر بلغات الآخرين وتشكل مع بعضها هجيناً كما في الإنجليزية الألمانية (Denglish) ، وتتنوع على أنحاء شتى جعلت من يرصدون تجلياتها في أنحاء العالم يتحدثون عن لغات إنجليزية أو (إنجليزيات) غير الإنجليزية البريطانية والإنجليزية الأمريكية ، ذلك أنها قد اصطبغت بطوابع اللغات الأخرى والناطقين بها في خصائصهم "الفونولوجية" وخصوصياتهم الثقافية حتى ليشبه أن تكون هناك لغة إنجليزية هندية ولغة إنجليزية سنغافورية . . إلخ . وإن ظلت لغات متباطلة الوضوح – ولو بمقادير متفاوتة من الجهد – تنتظمها مظلة الإنجليزية المشتركة(1) .

بل إن الإنجليزية بما هي لسان العولمة المركزية ليست ناموساً لغوياً نافذاً بإطلاق ؛ إذ إنها تلقى من المدافعة ما تلقاه العولمة ، بل إن الأمر على مستوى اللغة يتجاوز ذلك ، فقد امتدت المدافعة إلى الولايات المتحدة الأمريكية (مركز العولمة) ، إذ كانت البلد الذي اعتاد سكانه الانصهار في بوتقة لغة واحدة وإن كانوا قد جاؤوا من شتى بقاع الأرض ، ولكن ملايين المواطنين هناك الآن يضربون عن التحدث بالإنجليزية(2) ، وخاصة أولئك الذين انحدروا من أصول تتحدث الإسبانية وإن كانوا من الجيل الثاني أو الثالث – وهما جيلان قد نشآ أو ولدا في الولايات المتحدة ابتداء .

وقد شهد مَدُّ اللغة الإنجليزية جَزْراً في أثناء النصف الثاني من القرن العشرين ، فقد نقل صاموئيل هنتنجتون أن "نسبة المتكلمين باللغة الإنجليزية في العالم انخفضت من 9.8% بين الناس الذين كانوا يتكلمون سنة 1958 بلغات يتحدث بها على الأقل مليون شخص إلى 7.6% في سنة 1992"(3) .

عولمة الفضاء: بعد ثقافي

ولكنّ العولمة تحاصر الفضـــاء بخمسئة قمر صناعي أو يزيد(4) ؛ يبلغ ما تبثه من الأفـــلام

---

(1) English in Action: How the Language Changes People, by Ted Antony, 2002 .
(http: //wire.ap.org/AP Packages/ English/English 2. html).

و صدام الحضارات لصاموئيل هنتنجتون ، ترجمة طلعت الشايب 1999 ، ص102 .

(2) فخ العولمة ص 55 ، 56 .

(3) صدام الحضارات ص100 . وقد استأنس بهذا أحمد الضبيب حتى ذهب إلى "أن الادعاء بأن اللغة الإنجليزية لغة عالمية ليس له نصيب من الصحة" . اللغة العربية في عصر العولمة ص15 . وينظر في مزيد بيان عن هذه المسألة أعمال ندوة : اللغات في عصر العولمة : رؤية مستقبلية ، وخاصة بحث وليد العناتي : اللغة والعولمة : لغة عالمية أم لغات متعددة .

(4) فخ العولمة ، ص39 .

بالإنجليزية 70٪[1] ، تصوغ مخيال الناشئة على المدى الكوني صياغة نمطية مشتركة حتى ليتحدث شباب صغار (حفاة) في إحدى الغابات النائية من أمريكا اللاتينية عن نجوم هوليود ونجماتها كما لو كانوا من جيرانهم أو بنات جيرانهم[2] .

ولعل أخطر ما في هذا "الحصار الفضائي" محموله الثقافي ، ذلك "أن الثقافة الكونية التي تبشر بها (العولمة) تلحق بظاهرة الترابط البيني الكوني الذي يحمل خارج الحدود المحلية الخاصة ، إلى فضاءات محلية خاصة أخرى ، سيل السلع والأفراد والمعرفة والصور والجريمة والمخدرات والجنس والمعتقدات والحركات الاجتماعية"[3] ، و "أن انتشار هذه الثقافة في الفضاءات المحلية ذات الثقافات الوطنية أو القومية أو الدينية أو الإثنية يُعَدِّل من طبيعة هذه الثقافات ويعيد تشكيلها أو يُفَتِّتها ، وربما آذن بخطر زوالها"[4] .

ولعله ليس من الفضول بل لعله تذكار نافع أن نستعيد في هذا السياق "ما تقصد إليه محطات الإذاعة والتلفزة "الموجهة" – العربية وغير العربية – التي تحترف الانصراف إلى المقطع الشبابي من مجتمعاتنا فلا تبث له على مدار الساعات الأربع والعشرين إلا منتجات "الغريزة" المدمرة لقواعد "العقل" والعلم والمعرفة والقيم الجمالية والأخلاقية الرفيعة . . ." [5] .

شاهد من أهلها

وتتخذ العولمة ، على هذا المستوى ، منحى في تنميط العالم على صورة واحدة ، تكون محصلتها النهائية ، كما يتنبأ ابن نيويورك الفنان كورت روي ستون (Curt Royston) ، "سيادة الصراخ والزعيق الأمريكي (Scream) بمفرده في العالم أجمع . فمنذ سنوات تقتفي – من تومسك في سيبيريا حتى فيينا ولشبونة – زمرة شابة عالية الزعيق ما ساد في نيويورك قبل عقدين من الزمان : وهج مفتعل وصراخ يصك الآذان وشاشات تلفزيون يعمها زعيق مصدع للرأس . إنه لمشهد مقزز فعلاً"[6] .

---

(1) اللغة العربية وتحديات عصر العولمة ، نبيل علي ، في : ندوة قضايا اللغة العربية في عصر الحوسبة والعولمة ص 37 .

(2) فخ العولمة ص 38 .

(3) رياح العصر لفهمي جدعان ص55 عن (Mc Grew 1992: 56, 67)

(4) رياح العصر 56 ، وينظر في هذا المعنى : فن التعبير الشفهي . . . لعبد السلام المسدي ، الموسم الثقافي الثاني والعشرون لمجمع اللغة العربية الأردني ص84 .

(5) رياح العصر ص 18 ، 19 .

(6) فخ العولمة ص44 .

ويستدرك من ضاقوا ذرعاً بهذا المشهد المروّع أن "البعض" قد أخذ ينتابه القرف من هذا الزعيق وأخذ يميل إلى الهدوء المحفز الفعال[1] .

ولكن آثار هذه العولمة الثقافية في الفضاء العربي ما تزال تشهد امتداداً وازدياداً ؛ تستعيرها الفضائيات العربية ، أو تحتذي على مثالها ، ويشغف بها قطاع عريض من الناشئة . وغدت أفلام العنف و "الحدثان – Action" بأساليبها البهلوانية ومنطوياتها العدوانية ، والمسلسلات التي تتمحور على المواعدة[2] والمراودة ومهرجانات عروض الزعيق الذي يصم الآذان ، غدا ذلك كله ونظائره يستحوذ على الناشئة ويأخذهم إلى عوالم من الرؤى والمفاهيم والاتجاهات ويستدرجهم إلى غربة ثقافية مرعبة وقطيعة مع المعرفي والجمالي والإنساني في ثقافتهم وتراثهم وأسئلة حاضرهم ووجودهم!

ولكن هذا البعد الثقافي للعولمة يلقى مدافعة لدى الثقافات التي تؤول إلى بعد ديني كالثقافة العربية ؛ وتتمثل هذه المدافعة في بعض القنوات الفضائية والاتجاهات الاجتماعية المحافظة والتوجهات الدينية الخالصة ، ولكن هذه المدافعة محتاجة إلى أن تطور خطابها ووسائلها على أنحاء منهجية جذابة مبتكرة تمكنها من المنافسة ، وتنشئ تياراً من الوعي قادراً على ميز الغث والزبد من السمين وما ينفع الناس .

وإنما نتوقف إلى عولمة الثقافة في هذا المقام لأنها تتغلغل في اللغة العربية من جهة المضمون وتنزاح بها عن محمولاتها الثقافية من القيم فتصبح "مطية" لمحمولات مناهضة لمنظومتها من القيم التي تمنحها خصوصيتها الثقافية .

إن هذا الضرب من الاستلاب اللغوي الواغل من مَدّ العولمة يمثل اختراقاً مغايراً لما سبقه في أزمان الاستعمار التقليدي . إنه يتسلل من نوافذ الاستهواء بكل ما يحوطها من ألق وإغراء وجاذبية ودرامية مثيرة (في الأفلام والمسلسلات) . وهو يأتي في سياق التلفزة حيث لا يتكلف المشاهد جهداً في تلقي هذه المتعة ، ويستثمر الميل الوجودي للإنسان في تفضيل السهل على الصعب[3] .

---

(1) المرجع السابق في الموضع السابق .

(2) يذكر هنا ، أيضا ، أن هذا المفهوم (المواعدة - Dating) يمثل التحدي الأكبر للعائلات العربية في الغرب عامة والولايات المتحدة الأمريكية (مركز العولمة) خاصة .

(3) يرى بنجامين ر . باربر (Benjamin R. Barber) مدير مركز والت ويتمان (Walt Whitman) في جامعة روتجرز (Rutgers Univ.) . أن "سبب نجاح استعمار والت ديزني للثقافة العالمية يكمن في ظاهرة قديمة قدم الحضارة . إنها المنافسة بين الشاق والسهل ، بين البطيء والسريع ، بين المعقد والبسيط . فكل أول من هذه الأزواج يرتبط بنتاج ثقافي يدعو للإعجاب والإكبار . أما كل ثان من هذه الأزواج فإنه يتلاءم مع لهونا وتعبنا وخمولنا . إن ديزني وماكونالدز و MTV تروج لنا هو سهل وسريع وبسيط" . فخ العولمة ص41 .

أما قبل فقد اتخذ الاستعمار الأوروبي وجهين : وجهاً استيطانياً سافراً (فرنسيا) يريدُ أن يستأصل العربية ويعلن عن تدبيره القسرية لإحلال الفرنسية محلها ، وهو النموذج الفرنسي في الجزائر خاصة ، ووجها استغلاليا ماكرا يقصد إلى تفتيت العربية إلى لهجات (بالدعوة إلى إحلال العاميات المختلفة محل الفصحى الموحدة المشتركة الجامعة) على منهج : فرّق تسد ، وهو النموذج الإنجليزي في المشرق .

وحقاً أن هذين التدبيرين لم ينجحا تماما[1] ، وإن يكونا خلّفا في المشهد اللغــــوي العربي صدعا[2] وتشرذماً ما يزالان فاعلين على أنحاء شتى . أما آثار العولمة من هذه الجهة وجهات أُخَر فإنها تتفاعل على أنحاء ما نزال نجهد في تتبعها وتشخيصها .

وذلك ، مثلا ، أن الاستلاب اللغوي الذي أعقبه فينا مدّ العولمة وخطاب المركز فيها خاصة قد انعكس على معجم العربية حظراً وإقصاء في وجه حيوي رئيس .

أصبح مألوفاً أن ترى الفتى العربي أو الفتاة العربية يعبران الشارع الهُوَيْنى يتداولان بالهاتف المحمول بحُرِّيَّة مُعْجَمَ Mc communication, Mc Donald's . . . ولكنهما ينأيان أو يحاذران أو يتلفتان يمنة ويسرة قبل أن يتذاكرا شيئا من معجم الوحدة ، أو التحرير ، أو النضال ، أو الحقوق المشروعة أو المقاومة أو الجهاد أو الاستشهاد أو استئناف المشروع الحضاري للأمة ، مثلاً[3] .

التحدي الأكبر: العلم والتكنولوجيا والإنترنت

ثم إن الإنجليزية بما هي لسان العولمة المركزية تُشْبِه أن تهيمن على العلم والتكنولوجيا ومفاتيح الإنترنت وعوالمها .

وتروعنا نسبة المنشور بالإنجليزية في المجال الأول ونسبة استحواذ الإنجليزية على الثانية إذ إنه على المستوى الثاني ، مثلاً ، تمثل الوثائق المخزنة في الإنترنت بالإنجليزية[4] 90% . ويتذرنا المشتغلون بهذا الشأن بالتخلف عن مواكبة التطور المتسارع فيه والانزواء إلى "موقع مُتَرَدٍّ على أرصفة الطرق السريعة للمعلومات في عصر الإنترنت"[5] .

---

(1) الثنائيات في قضايا اللغة العربية من عصر النهضة إلى عصر العولمة ، نهاد الموسى ، ص37 ، ص230 ، ص232 .

(2) ينظر مبحث الثنائية من هذا البحث .

(3) وهذه ظاهرة قائمة ولكنها ليست مطلقة بطبيعة الحال .

(4) اللغة العربية وعصر العولمة ، نبيل علي ، في : ندوة قضايا اللغة العربية في عصر الحوسبة والعولمة ، ص37 .

(5) المرجع السابق ، ص40 .

فإذا اتخذنا بيانات اللغات الماثلة على شبكة الإنترنت لعام 1997 مثلا والتمسنا العربية ثَمَّةَ وجدناها تخلو من ذكر العربية تماما على حين تتسنَّم الإنجليزية الذروة بنسبة 84% وتأتي الفنلندية في آخر السلم بنسبة (1) 0.4% .

وبلغ الغلو بإحدى المقالات في صحيفة نيويورك تايمز أن تتخذ لنفسها عنواناً : الشبكة ، العنكبوتية ، العالمية : ثلاث كلمات إنجليزية ، ثم تمضي معلقة : إذا أردت أن تبلغ أقصى الإفادة من الإنترنت فإن لك طريقة حقيقية وحيدة : تَعَلَّمْ الإنجليزية(2) .

وليس بخاف أن الإنترنت قد انضافت إلى وسائل الاتصال البشري (من الطباعة والبرق ووسائل المواصلات والتلفزة) . ويتراءى لمنظّريها ومشايعيها أنها تحررت من توجيه "الفرد" للمجموع كما في التلفزة (3) ، وفَسَحَتْ للإنسان أن يُسْمِع العالم صوته(4) . وهي عندهم إبداع اجتماعي(5) أكثر من كونه إبداعاً تكنولوجياً بما تفتحه من سبل التواصل على نطاق واسع ، وإذن يكون دور اللغة فيها مركزياً بل مستقبلياً لأن أكثر مستخدميها من الشباب(6) .

ويستعير ديفيد كريستال سؤالَ اللغة الخطير في هذا السياق وهو : هل تضع الإنترنت التي تسيطر عليها اللغة الإنجليزية نهاية للألسنة الأخرى(7)؟ ويمضي مع هذا السؤال – في الشأن اللغوي – إلى أسئلة أخرى : هل تؤدي المعايير المتساهلة للبريد الألكتروني إلى نهاية الكتابة أوالهجاء كما نعرفُها؟ وهل تبدأ الإنترنت حقبة جديدة من البأبأة التكنولوجية؟ وهل يضيع الإبداع اللغوي والمرونة اللغوية عندما تفرض العولمة التماثُل؟(8)

وقد انعكس تأثير الإنترنت على اللغة الإنجليزية في إشاعة أحرف تحتل المرتبة العليا في التواتر

---

(1) Towards a new global linguistic order, by Jacques Maurais, in Language in a globalizing world. pp. 20.

(2) اللغة والإنترنت ، ص269 .

(3) عن ديفيد كريستال عن جون نوتون في كتابه : تاريخ موجز للمستقبل : أصول الإنترنت ، اللغة والإنترنت ، ص7 .

(4) عن ديفيد كريستال عن برنرز لي في كتابه : نسج الشبكة العنكبوتية عن ثابو مبيكي رئيس جنوب إفريقيا ، اللغة والإنترنت ، ص7 .

(5) المرجع السابق ، ص8 .

(6) المرجع نفسه ، ص8 ، 9 .

(7) المرجع نفسه ، ص11 .

(8) المرجع نفسه ، ص12 .

مثل (e) [1] ، كما أفضت مقتضيات التواصل الآني على الشبكة إلى بنية لغوية أقل إحكاماً[2] ، كما أنجبت ضروباً شتى من الاختصارات[3] ، وهي اختصارات غرائبية تزاوج بين الحروف والأرقام[4] . وتنمّي الشبكة اتجاهات إلى التفلت من اللغة المعيارية والتلعّب باللغة العامية وطرق الكتابة[5] .

ويستفحل الشعور بالخطر من هيمنة اللغة الإنجليزية من هذه الجهة أنها تجاوزت ما كان من هيمنتها في عصر الاستعمار القديم إذ كانت تستهدف "الدول النامية والمستضعفة" ؛ ذلك أنها أصبحت أمراً يشغل العالم أجمع مُتَقَدِّمَه ونامِيَه ، فهو يهم فرنسا كما يهم الجزائر والمغرب ، ويهم الدول الإسكندنافية كما يهم شعوب أمريكا اللاتينية ، وكما يهدد اليابان فهو يهدد بنغلادش وقبائل إفريقية"[6] .

ولا مراء في أن تأثير الإنترنت على الإنجليزية قد امتد إلى اللغة العربية على مثل الأنحاء المتقدّمة ؛ إذ أفضت مقتضيات التواصل الآني على الشبكة إلى بنية لغوية مهلهلة ، كما أفضت إلى كثير من الاختصارات الغرائبية التي تزاوج بين الحروف والأرقام ، ونمّت كثيراً من الاتجاهات إلى التفلت من العربية الفصيحة والركون إلى العامية مكتوبة في كثير من الأحيان بالحرف اللاتيني . وامتد التلعب باللهجات العامية وطرق كتابتها إلى رسائل البريد الألكتروني التي تبثها الفضائيات العربية في حواشيها . وتمثّل كتابة العامية بالحرف اللاتيني عَوْداً بالفعل إلى الدعوة المزدوجة التي دعا بها الغرب في حقبة الاستعمار الأوروبي منذ قرن ونيّف . وهي "ردّة" تسلّلت إلى التداول بالعربية من باب العولمة العريض تلقائيا . بل انعكس ماجاءت به العولمة جملة على موقف بعض أبناء العربية من لغتهم إذ غدوا "يفضلون عليها اللغة الإنجليزية التي يرونها لغة العلم والابتكار والتقدم أو يرونها لغة التجارة العالمية . ."[7] ويرون أن العربية "قاصرة عن ملاحقـــة التقدم العلمي"[8] و "أن قواعدها كثيرة ومعقدة"[9] بل "يرون في استخدامها تخلفا"[10] .

---

(1) المرجع نفسه ، ص36 .

(2) المرجع نفسه ، ص41 .

(3) ينظر في كثير من أمثلة هذه الاختصارات المرجع السابق نفسه (اللغة والإنترنت) ص110-115 .

(4) كما في 4e لـ for ever وينظر لمزيد من الأمثلة الموضع السابق .

(5) كما في noop ، hope ، yay ، yup ، yyap بدلا من no و yes . اللغة والإنترنت ، ص119 .

(6) اللغة العربية وتحديات عصر العولمة ، لنبيل علي ، في : ندوة قضايا اللغة العربية في عصر الحوسبة والعولمة ، ص34 .

(7) اللغة العربية وتحديات عصر العولمة ، لحسين نصار ، العربي- العدد 503 - أكتوبر 2000 ، ص25 .

(8) المرجع السابق في الموضع السابق .

(9) المرجع نفسه في الموضع نفسه .

(10) المرجع نفسه في الموضع نفسه .

ولكن البحث في العلاقة بين اللغة والعولمة يشبه السير في الرمال المتحرِّكة . إنه وضع أنأى ما يكون عن الثبات والاستقرار .

كانت نسبة حضور الإنجليزية على شبكة الإنترنت سنة 1997 (84%) كما تقدم ، وجاءت مقالة نيويورك تايمز بأن تعلم الإنجليزية هي الطريقة الحقيقية الوحيدة لبلوغ أقصى الإفادة من الإنترنت . وقد اعترف كاتب المقالة بوصول لغات أخرى إلى الإنترنت . ولكنه اختتمها قائلا : غير أن هذا لن يحدث بالضرورة قريباً(1) .

وقد كان هذه الخاتمة خاطئة ، إذ تراجعت نسبة حضور الإنجليزية سنة 2000 إلى 68.4% (2) ، وازدادت تقديرات اللغات غير الإنجليزية باطراد "مما جعل بعض المعلقين يتنبأون بأنه قبل مضي وقت طويل فإن الشبكة العنكبوتية (والإنترنت بأسرها) سوف تصبحـــان غير إنجليزيتين في أغلبهما"(3) . وتتراجعُ نسبةُ حضور اللغة الإنجليزية في بعض التوقعات إلى 50% بل 40% (4) .

وليس هذا إلا مُسْتَأْنَساً بأن تنامي حضور اللغات الأخرى على الشبكة مؤذن بانفراج هذا الاحتكار الذي يشبه أن يكون أحادياً .

وحقاً أن التداول العربي بالإنترنت قد يتخذُ اللهجة المحكية بالحروف اللاتينية ولكن هذا المنحى يمكن أن يكون مؤقتا وخاصة إذا ما تَعَهَّدَ تطويرُ البرمجيات ونظم التشغيل بالعربية استعمالَ العربية الفصحى وحَوَّلَ أشرعَتَه ضد مَدّ التواصل المباشر بالإنجليزية واللهجات العربية المكتوبة بالحروف اللاتينية(5) .

وهناك علائم على أن اللغة العربية تتقدم نحو كسر هذا الاحتكار وأن أوهاما قديمة حول ارتباط الحاسوب بالإنجليزية قد تبددت .

ومما يلفت نظر هاوٍ في هذا الشأن أن يجد أن المصطلحات المرتبطة بالبرمجيات التي تمكن الناس من استخدام الإنترنتَ تجد مقابلاتها على طرف الثمام . وهذه أمثلة وحسب مما نجده في ترجمة كتاب (اللغة والإنترنت) : ملف ، يحرر ، شاهد ، أدخل ، ألصق ، أدوات ، نافذة ، مساعدة ، بحث ، عنوان ، تاريخ ، قمة ، إلى الخلف ، إلى الأمام ، البيت ، أرسل ، احفظ ، أغلق ، اختر ، شريط الأدوات ، خطوط ، خيارات . . . إلخ(6) .

---

(1) اللغة والإنترنت ، ص270 .

(2) Language in a Globalizing World, pp. 22

(3) اللغة والإنترنت ، ص271 .

(4) المرجع السابق في الموضع السابق .

(5)Language Choice Online -JCMC7, (4) July 2002

(6)ينظر في هذه وغيرها مما هو أكثر تقدما في هذا المجال : اللغة والإنترنت ، ص106 ، 107 .

وكان تَسَرَّبَ إلى وهم كثير من الناطقين بالعربية أن الإنجليزية هي التي إنما تصلح للحاسوب وهو الذي إنما يصلح لها . وقد أخذ هذا الوهم يتبدد بعد أن أدخلت العربية إلى الحاسوب وطوعت له أو طوع لها . ومن مظاهر ما تحقق في هذه السبيل أننا أصبحنا قادرين على استعمال العربية في الحاسوب للطباعة بالعربية والنشر الألكتروني وتصفح الشبكة العالمية وتصميم المواقع عليها (1) . . . إلخ . وهي خطوات واعدة لمراحل جوهرية أكثر تقدماً .

حقا أن الحاسوب طُوِّر في إطار اللغة الإنجليزية ولكن التلازم بينهما ليس مطلقاً ولا مغلقاً . وإذا كانت نظم الحاسوب علمية وكانت نظم اللغات كونية فإن تطوير تلك النظم وتطويعها للغات الإنسانية سيكسر – وقد فعل- احتكار اللغة الإنجليزية الموهوم .

وقد انفتح للغة العربية في هذه السبيل بابٌ أخذَ في الاتساع ينفرج باطراد نحو تطوير اللسانيات الحاسوبية العربية وتطبيقاتها المتعددة (2) وخاصة في مجال الترجمة الآلية – وقد أصبحت الترجمة الآلية هي التدبير المشترك بين كثير من اللغات لكسر احتكار الإنجليزية لشبكة الإنترنت(3) – ومجال الآلة القارئة(4) ، والكاتبة ؛ إذ يمثل تحويل المنطوق إلى مكتوب أحد التطبيقات الجوهرية في هذا المجال ، وإذن تكون العربية أكثر اللغات مواتاة ؛ ذلك "أن دراسة أجريت في اليابان على اللغات العالمية تستهدف معرفة أكثر اللغات وضوحاً صوتياً في استخدامات الحاسب الآلي أثبتت أن اللغة العربية تتصدر هذه اللغات في هذه الناحية"(5) .

وهذه التطبيقات تفتح للقارئ العربي أبواب الإنترنت باللغة الإنجليزية وغيرها وتدفعُ اللغة العربية إلى موقع متقدم على هذه الشبكة التي هي مَجْمَع خطاب العصر .

---

(1) عن : العربية لغة للمعرفة : نحو بناء مجتمع معرفة باللغة العربية ، لوليد العناتي – البصائر ، المجلد 9 – العدد 2 ، شعبان 1426هـ – أيلول 2005م ، ص 23 . عن : العرب وعصر المعلومات لنبيل علي ، بل إن هذه الذراع الغربية قد أصبحت وسيلة لمناوئي العولمة يبثون بوساطتها بياناتهم بالعربية الفصحى التراثية المفعمة بالتناص مع المقدس الإسلامي .

(2) ينظر فيما يعضد هذا الأفق من الأمل : عودة إلى المسألة اللغوية ، للطاهر لبيب ، في : النهوض العربي ومواكبة العصر ، ص168 . والعولمة الثقافية اللغوية ، لأحمد عبد السلام ، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني ، العدد 60 ، السنة 25 ، 1422هـ–2001 ، ص145 ، واللغة والعولمة : لغة عالمية أم لغات متعددة ، لوليد العناتي ، ندوة اللغات في عصر العولمة : رؤية مستقبلية ، كلية اللغات والترجمة (جامعة الملك خالد) 11–13 محرم 1426هـ ، 20- 22 فبراير 2005م ، ص262 .

(3) English -The Universal Language on the Internet -Human Languages of the free information site IT and Communication by Jukka -Yucca Karpela, 2003-09-02

(4) هل تقوم لغة عالمية واحدة؟ لأحمد أبو زيد ، العربي ، العدد 542 ، يناير 2004 .

(5) اللغة العربية في عصر العولمة ، لأحمد الضبيب ، ص30 .

ويبدو لنا الآن في أمر هذه العلاقة المتغيرة بين العربية والعولمة :

- أن العولمة على المستوى الثقافي تواجه مدافعة عنيدة بالمرجع الديني في الثقافة العربية وإن تغلغلت بإغرائها الاستهلاكي والغرزي في أوساط الناشئة .

- أن العربية على المستوى اللغوي الخالص تواجه تحديات من جهة النقاء ، وأنها مستهدفة في محمولاتها ، ولكنها ليست مهددة في عمود صورتها على الجملة ، إنها - في تشكيلها اللغوي الخالص بتجلياته ومشكلاته - قد أصبحت "غرضا" لسهام الدول المتقدّمة في ركب العولمة ، وذلك في دعواتهم السافرة إلى "تحديثها" من جهة ، والتوجيه المبرمج لتمويل تعليمها للآخر ، وحوسبة لهجاتها (من الجانب الأمريكي) من جهة أخرى .

- أن العربية على مستوى العلوم والتكنولوجيا تواجه نكوصاً ظاهراً إلا أن تحفزه وتتداركه دوافع جدوى بالترجمة الآلية .

- أن كتابة العامية بالحرف اللاتيني في رسائل البريد الألكتروني وغرف الدردشة تمثّل "ردّة" مزدوجة إلى دعوة قديمة دَعا بها الغرب كما تمثّل تمكينا للعامية من جهة وغربة لرسم العربية (نظام كتابتها) من جهة أخرى .

- أن حوسبة العربية تتقدم باطراد نحو كسر احتكار اللغة الإنجليزية للإنترنت وتفتح للقارئ العربي والعربية آفاق التواصل والامتداد في الفضاء الكوني .

آخر الفكرة

• في أمر البِنْيَة: تنازع المثال والواقع

إن العربية في بنيتها الموصوفة على منهج اللسان العربي كما نزل به القرآن نظام ائتلافي قام على المشترك بين اللهجات العربية المصطفاة ووَسعَ السمات اللهجية الخاصة والقراءة بالقرآن على سبعة أحرف . وهذا النظام على سعته هو المثال المنشود والمعيار المعتمد والنموذج المرسوم للتعليم قديما وحديثا .

وإنما نريد بهذا النظام قواعده الصوتية والصرفية والتركيبية والإعرابية ، أما نظامه المعجمي والأسلوبي فلهما شأن آخر ؛ ذلك أن القرآن نفسه قد شرع تغير المعجم في إطار الثبوت ؛ إذ نزل بلسان الجاهلية قرآناً عربيا ، ولكنه تحوّل ببعض معجم هذا اللسان فنقل الإيمان والصلاة والصوم والزكاة . . . إلخ إلى معان أُخَر . وذلك ، أيضا ، شأن أساليب البيان ؛ فقد نزل القرآن على سنن العرب في كلامها ، ولكنه يمتاز على كل ما جرى وما يجري على مثال نظامه بفرادته الأسلوبية الموسومة في المتعارف بالإعجاز .

ويكون التمايز الأسلوبي ظاهرة إنشائية لا تمس بنية المثال ؛ فالحديث القدسي ، والحديث الشريف يتمايزان وكذلك تتمايز أساليب البلغاء في المنثور والمنظوم ولكنها جميعا جارية على المثال بثوابته المشتركة .

ولكن العربية ، في مجرى الاستعمال ومُشَخّص الأداء قد خرجت عن المثال على أنحاء شتى وبدرجات متفاوتة .

وأول مظاهر الخروج (أو التحول على مستوى البنية والمتن) ظاهرة اللحن ، لحن العامة ولحن الخاصة ، وهي ظاهر متقادمة زامنت تاريخ العربية منذ القرن الثاني إلى يوم الناس هذا ، ولكنها اتخذت في هذا العصر عنوان الأخطاء الشائعة . وهي ظاهرة جديرة بالتفسير والتدبير[1] لأن خروجها عن المثال واسع مطرد .

وينضاف إلى هذا الانفصام بين المثال والأداء صُوَر أُخر ؛ فقد وقع أصحاب التصحيح ومن ألفوا في اللحن في مثْل ما كانوا ينبهون عليه من الخطأ ، وذلك مثال على الفرق بين النظرية والتطبيق – كما يقال هذه الأيام – ويقع الخطأ من هذه الجهة ، أيضا ، على نطاق واسع في أداء المتعلمين . وهي ظاهرة مستفحلة ، وَهَمٌّ تعليميّ مؤرّق .

---

(1) اجتهد الباحث في تفسير هذه الظاهرة وتشخيصها واقتراح تدبير منهجي لعلاجها في سياقات أُخر أبرزها كتابه : اللغة العربية وأبناؤها : أبحاث في قضية الخطأ وضعف الطلبة في اللغة العربية ، دار العلوم للطباعة والنشر والتوزيع ، الرياض 1405هـ -1985م ومكتبة وسام ، عمّان ، 1990 .

ويقع الخطأ على ألسنة الكتاب بل المبدعين ، وهي ظاهرة أخرى جديرة بالتفسير . وهؤلاء فريقان : كاتب "مثقف" يعول على اكتساب ملكة العربية بالقراءة والتمرس بالنصوص فتخذله العبارة لغياب الوعي بالقاعدة فيكتب (ولستم الأعلون!) . ومبدع يبلغ الجماليّ من فطنة الفكرة وجمال الصورة ما يبلغ حد الإدهاش ولكنّه يَحْتَبِي في اللحن إذا كتب أو قرأ أو تحدث . . وهذه ظاهرة ثالثة جديرة بالتفسير .

بل يعرض هذا الانفصام للمنظّر اللساني الذي يتغلغل إلى أسرار العربية وينشد استبطان أنساقها الداخلية وتمثيلها للحاسوب ، ولكنه - عند الأداء المباشر - يوهم أو يسهو فيضل عنه الصواب حيناً فحيناً .

وإنما نعرض هذا ليكون دليلاً لمن يحرسون الثبوت بما هو مزية للعربية تحفظها من التغير المفضي إلى الانقطاع .

في المشهد : تجاذُب التجليات والشروط

فإذا تجاوزنا النظر في البِنْيَة ، وقَلَّبْناه في المشهد اللغوي تراءى لنا مُشْتَجَرٌ من تجليات مختلفة تتجاذبها شروط متباينة ومتقاطعة شتى . تتنوع التجليات فصحى (في تلاوة الذكر وإنشاد الشعر) وفصيحة بالفعل (في قراءة المتهيىء) وفصيحة بالقوة (في المكتوب المنشور غير المشكول) وشبه فصيحة بالفعل (في أداء المتهيىء) ووسطى (في خطاب المشافهة بين المتعلمين والمثقفين) وعاميات (في النطاق المحلي الخالص) وهجين من العامية والإنجليزية أو العامية والفرنسية أو العامية والأُردية في الخطاب اليومي العربي - العربي أو العربي وغير العربي .

وتتعدد الشروط على مقتضى المقدس في التزام الفصحى ، وعلى مقتضى التواصل الممتدّ في اتخاذ الفصيحة ، وعلى مقتضى المنفعة والحافز بمقاربة الفصيحة ، وعلى مقتضى الهوى الجهوي باتخاذ العامية ، وعلى مقتضى التلقائي والركون إلى المجهود الأدنى في استعمال الوسطى ، وعلى مقتضى التباهي أو الضرورة باختيار الهجين .

في المشهد أيضا : صورة بانورامية

وتنام العواصم العربية نومين : نوما مُسَهَّدا تُسْلِم فيه الآذان لصوت الأذان والذكر باقيين على الزمان بلسان عربيّ آية في البيان ، ونوما مؤرّقا أو مُسْتَبِي تُسْلِم فيه العيون لأضواء الإعلان بمختلف الألوان الواردة من صنوف البلدان بغير لسان وخاصة لسان الأمريكان .

ويتقاطع الثقافي والاقتصادي فيتخذان الفصيحة لساناً مشتركاً ممدوداً حيناً ثم يفترقان فيلوذ

الخطاب الثقافي بالوسطى اقتصاداً في الجهد ويكتفي الاقتصادي على العامية طلباً للترويج المحلي القريب المحدود .

وتتقاطع الهوية والآخَر وعَلَّمَ كلّ منهما العربية إذ ينشدانها ولكن الغايتين مختلفتان .

ويبقى التفاوت بين الإنتاج والاستهلاك نذيراً بغزو العربية على الألسنة وإنْ أَبَتْ المعاجم المحافظة .

ويبقى النكوص عن تعريب العلم نقصا في متن العربية وإقصاء لها عن مجال حيوي في سياق صراع البقاء .

ثنائية الكائن والممكن

إن عوامل بقاء العربية واستمرارها تتمثل في :

- أنها لسان التنزيل وأنها السبيل إلى فهمه .
- أنها لسان تراث ما يزال كثير منه ينطوي على قيم فكرية وجمالية خالدة .
- أنها رمز لهوية الأمة بمنطوياتها الوجدانية وحاجاتها الحيوية التواصلية .
- أنها تُعَلَّم للناشئة ركنا محورياً في العملية التربوية .
- أنها لسان الإعلام على أنحاء متنوعة .
- أنها واسطة الإعلان لأغراض اقتصادية تنشد سوق استهلاك عربية عريضة .

ولكن العربية منقوصة الفعالية في جانبين رئيسين : علمي تكنولوجي ، واقتصادي إنتاجي ؛ إذ تستحوذ على الأول اللغةُ الإنجليزية ، ويهيمن على الثاني فَيْضُ ما يتدفق عليها من الآخر .

أما أفق الأمل أو الممكن المأمول فيتمثل في تنامي الوعي لارتباط اللغة بالتنمية عامة ، واستعلان الدراسات التي تثبت جدواها الاقتصادية المباشرة خاصة ، وتواتر التنافس على استثمار تطبيقاتها في مجال التقانة الحاسوبية .

إن هذا المنحى المتنامي - فيما يؤمل - يمكنه أن يستجمع اللحمة بين العربية في بعدها الفاعل الذي يشبه أن يكون على الجملة ثقافيا وبعديها المُعَلَّقَيْن : العلمي التكنولوجي والاقتصادي الإنتاجي .

ولعله يفضي - فيما بعد - إلى رأب الصدع بين الثقافي والاقتصادي ويصحح المعادلة المقلوبة في هذا الشأن بين النموذج العربي والنموذج الأوروبي بل إنه سيكون أكثر انسجاما .

وسوف يعضد هذا المنحى أطروحة تعليم العلوم بالعربية بعد أن تبين أن تعليمها بالإنجليزية أو الفرنسية لم يحقق مأمول النهضة ، وبعد أن تَبَيَّنَ أن تعريب تقانة الحاسوب ذو مردود اقتصادي محسوس محسوب ، وسوف يُسَدِّد خطى الترجمة ويمضي بها إلى غاياتها دون نكوص ، ويُسَخِّر تعليم الإنجليزية والفرنسية لأغراض محددة تنموية أو نهضوية دون تبعية ، وسوف ينتصف للعربية ويرد لها اعتبارها .

إن هذا الائتلاف بين الثقافي والاقتصادي – إن أمكن – سوف يرد أمر اللغة العربية كله إلى نصابه وهو – لخاطر التذكار – يوافق المستفاد من هَدْيِ التنزيل في الجَمْعِ المنسجم بين "المَنافع" و"الذِّكْر" (1).

آخر الفكرة أول العمل

استخرجت هذا العنوان بتصرّف من مقولة ساقها ابن قتيبة في أدب الكاتب . ولكنه ساقها ثمة في سياق الإزراء بمذاهب المناطقة في التأويل . وأنا أوردها هنا كما جاء بها ثم أشير إلى وجه تصرّفي بها وبيان توجيهي لها في سياق هذه الأطروحة . يقول ابن قتيبة : ولقد بلغني أن قوما من أصحاب الكلام سألوا محمد بن الجهم البرمكي [وهو من أصحاب المنطق] أن يذكر لهم مسألة من حدّ المنطق حسنة لطيفة ، فقال لهم : ما معنى قول الحكيم : "أول الفكرة آخر العمل ، وأول العمل آخر الفكرة"؟ فسألوه التأويل ، فقال لهم : مَثّل هذا كمثل رجل قال : " إني صانع لنفسي كِنّا" فوقعت فكرته على السقف ، ثم انحدر فعلم أن السقف لا يكون إلا على حائط ،وأن الحائط لا يقوم إلا على أُسٍّ ، وأن الأُسّ لا يقوم إلا على أصل ، ثم ابتدأ في العمل بالأصل ، ثم بالأسّ ، ثم بالحائط ، ثم بالسقف ؛ فكان ابتداء تفكره آخر عمله وآخر عمله بدء فكرته . ويعقّب ابن قتيبة ساخرا : فأية منفعة في هذه المسألة؟ وهل يجهل أحد هذا حتى يحتاج إلى إخراجه بهذه الألفاظ الهائلة(2)؟ وهو إذن يقرّر أن آخر الفكرة وأوّل العمل يتقاطعان حتى ليتماهيان . وذلك نظير ما نحن فيه . فإن خطّة هذا البحث وهي أوّل العمل تشبه أن تمثّل آخر الفكرة ، كما أن الباحثين يتداولون القول بأن المقدّمة هي آخر ما يكتبونه من البحث . وإنما سقت هذا كلّه لأنبه على فرق لطيف في أمر هذه العلاقة ، وذلك أن العلاقة بين الأمرين جدليّة ، ومثاله ما يكون من الباحثين حيث يقيّد

---

(1) وذلك قوله تعالى : ﴿ وأذّن في الناس بالحجّ يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فجّ عميق. ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله ﴾ ، سورة الحج آية 28,27 .

(2) أدب الكاتب ص 5,4 .

أحدهم خطته لبحثه بأنّها قابلة للتعديل . أما في سياق هذه الأطروحة فإن الجدل بين آخر الفكرة وأوّل العمل يراد به ما يكون بين النظرية والتطبيق أو ما بين المقدّمات والنتائج أو ما بين النتائج والتوصيات أو ما بين السؤال والجواب .

أول العمل:

ويكون المراد بأوّل العمل هنا نظير آخر الفكرة من بعض الوجوه ، وهو ما ظننته بادي الرأي ؛ إذ ظننت – وبعض الظنّ ليس إثما– أن ما جاء في خطّة البحث من عناوينه الثانية وما ورد في آخر الفكرة يومئان إلى إجابة أسئلة البحث .

ووقفت بالبحث عند آخر الفكرة . ولكنّ أحد أهل الطب(1) ممن وقفتهم على البحث في مسوّداته النهائية قد أشهر عليّ سؤالا عريضا صريحا مباشراً : هل ترى أنّك قدّمت في هذا البحث إجابات عن الأسئلة التي صدرته بها؟

فعند ذلك لُذْت بمقولة الأوائل وركّبتها بتصرّف يسير على هذا النحو : آخر الفكرة أوّل العمل ، وجئت بما أجيء به هنا محاولا أن أجيب عن هذا السؤال العريض الصريح المباشر . وهو نظير ما طرحه عليّ من قبل أحد أهل الأدب(2) ممّن وقفتهم على البحث في مسوّداته النهائية ، وذلك أنّه توقّع منّي أن أستشرف ما تكون عليه الحال بعد كلّ هذا التجوال .

وأنا إذ أعود إلى القول في وّل العمل هنا ، وهو أشبه ما يكون بالإجابة المباشرة عن الأسئلة أو ما يكون من استشراف المستقبل ، أتخذ في الإجابة وجهات ثلاثا :

أولاها ما تنبيء عنه عناوين الخطة .

وثانيتها ما تنبيء عنه الفصول بالتفصيل وفيها بيان عما تومئ إليه العناوين .

وثالثتها ما جاء تحت آخر الفكرة .

على أن عليّ أن أحترس هنا بأنني أشفق من الاستشراف الذي يشبه التنبؤات ، وذلك أنها تنطوي على مثل الرجم بالغيب وخاصة في شأن يتعلق باللغة التي تتحرك في مدار مفعم بالمتغيرات .

وأجتزئ هنا بالعود إلى واحد واحد من الأسئلة لعلي أشخّص البيان عنه بأوجز عبارة وأدلّ به على شطر الجواب .

---

(1) هو الدكتور إياس الموسى .

(2) هو الدكتور إبراهيم أبو هشهش .

وأحرص هنا على أن أقرر منهجي في هذا البيان ، إنني لا أرى رأي من يقرر أن لكل سؤال جواباً ، إذ لو قدمت جواباً مدرسياً صارماً عن كل سؤال طرحته لتجافيت عن منطق البحث عن الحقيقة وادعيت أن ما انتهيت إليه - وهو نسبي- يمثل المطلق ويفضي إلى باب مغلق .

ثم إنني لا أغلو فأرى رأي من يقول : لكل سؤال سؤال ؛ لأن ذلك يقلقل سكينتنا ولا يفضي بنا إلى شِبْه مُطْمَأَنّ أو شِبْهِ مُستَقَرّ .

وإنما أتخذ في هذا البيان خطة بين بين تتمثل عندي في **أن لكل سؤال جواباً ينشئ سؤالاً** .

(1)

ما تومئ إليه الخطة وهي أول العمل الذي يشبه آخر الفكرة

شطر الإجابات:

- أن النص المقدس يمثل عنوان البقاء فهو الملاذ في مدار الحَدَثان .
- وأن التراث يمثل بقاء الأصلح فهو مَدَد للسيرورة .
- وأن الهوية هي الرمز في مرآة الآخر وهي قوة فاعلة حيناً كامنة حيناً .
- وأن التعليم ما يزال مدارا للمراوحة وهو يبقي على العربية ولو في حال بين بين .
- وأن الترجمة كصخرة سيزيف وهي تبتدئ ثم تستأنف دون أن تبلغ بالعربية مأمول النهضة .
- وأن الإعلام هو برج بابل تتباين فيه اللُّغَى ولكن للفصحى فيه حضوراً مشهوداً .
- وأن الاقتصاد هو الوالي الخفي والغاية عنده تبرر الواسطة وكثيراً ما تكون الفصيحة إحدى وسائطه .
- وأن الإعلان هو الراعي الدلال فهو يتمثل لأمر الاقتصاد .
- وأن الازدواجية هي تنازع الواقع والمثال فهي علة اللجلجة التي تهز صورة العربية .
- وأن الثنائية هي صدع الحيرة فهي التي تقلقل سكينة العربي ومنزلة العربية .
- وأن العولمة هي ليل النابغة فهي المد الجارف المتغول على العربية في محمولاتها خاصة .

شطر الأسئلة:

- هل تجاوزنا بالعربية في النص المقدس حالة التعبّد والتوق إلى منزلة التمثل والذوق؟
- هل تجاوزنا بالتراث حالة الاستلهام والتغني إلى حالة الاستعمال والتحدي؟

- هل تجاوزنا بالعربية أن تكون رمزاً للقبيلة والجهوية لتترسخ رمزاً للأمة والقومية؟
- هل تجاوزنا بتعليم العربية التلقين والشكل إلى التقنين والعقل؟
- هل تجاوزنا بالترجمة التشتت واختلاف الأمزجة إلى التوحّد وائتلاف النمذجة والخطة المبرمجة؟
- هل نقّينا فضاء الإعلام من سقط الكلام؟
- هل رشّدنا الاقتصادي بأن المنفعة المادية إنما تتحقق وتزدان بالقيم الجمالية؟
- هل أغرينا الإعلان بأن يستثمر ما في العربية من سحر البيان؟
- هل خرجنا بالازدواجية من اللجلجة التي تبلغ حدّ الإعاقة إلى التمكن الذي يحقق لنا عَفْوَ الطلاقة؟
- هل خرجنا بالثنائية من مهابة الاتّباع وسخّرناها وسيلة للإبداع؟
- هل تجاوزنا في التكيير على العولمة حد المرافعة والمدافعة إلى المكر في التدبير المبني على المنافعة؟

(2)

ما تبنئ عنه الفصول

شطر الإجابات :

ولعل كل فصل من الكتاب يقدم في تضاعيفه وخلاصته مقداراً من الإجابة عن أحد الأسئلة أو تشخيصاً (أول) قد يمثل مدخلاً إلى بعض العلاج ، ولعلّ فصول الكتاب بتفاصيلها وخلاصاتها تمثل دلائل على الإجابات المنشودة .

ولكن تقاطع القيم والقوى حيناً وتفاصلها أحياناً يجعلان أمر الإجابات الحاسمة مجازفة محفوفة بالمحاذير ، إنه مُشْتَجَرٌ يكتنف اللغة بشروط متداخلة ، إذ إن كل شرط من شروط القيم والقوى مشتبك بسائر الشروط وليس أي منهما قائماً وحده بمعزل .

فالنص المقدس وما أنشئ حوله من العلوم ظل مرجعاً وملاذاً للعربية على تقلبات الزمان ولكن دوره في هذه السبيل كان يمثل رصيدا بالقوّة إذا تَغَوّل الآخَر وغلب على الأمة كما ورد لدى ابن خلدون .

وهو على كل حال محور الثبوت وعنوان البقاء ، ولكنه- كما قدمنا- ثبوت الأصول وبقاء

التواصل ؛ فقد تغير شيء كثير من معجم العربية بل مات ، وتحولت أساليب العربية بل حالت ثم نهضت واستطالت .

وليس التراث كله بمرشّح العربية للحياة ، ولكن شطراً عظيماً منه ما يزال صالحاً كأنه معاصر بل خالد . ولكن التراث الذي يتمظهر في اللغة كاللغة نفسها لا عمل ذاتياً له . إن من لا يعرفه يجهله – كما تقول العامّة – ولا يأبه به إلا أن يتوسل له بالوسائل التعليمية المنهجية المناسبة والشروط الثقافية المواتية . فنحن نتغنّى بالتراث حتى لنظن أن الصراع سيمتد بيننا وبين العدو حتى يتعلم نماذج من شعرنا الجاهلي أو كما قال محمود درويش . ولكن هل نتجاهل أن هناك من يزهد فيه ويراه أثراً دارساً؟

أما العربية من جهة ما هي رمز الهوية فإنها تستعلن عنواناً للذات والوجود في سياق المواجهة (غير منفصلة عن شروط أُخَر) ولكنها تتراجع في نفوس أبنائها إذا انتكست الأمة وغلبتها أحوال الزمان ، ويتفاعل عند ذلك الانبهار بالآخر وازدراء الذات وفقاً للمقولة الخلدونية .

وإذ تراجع مشروع الوحدة بقيت الحاجة الوجودية إلى التواصل عاملاً في بقاء العربية وسيرورتها . ولكن تراجع مشروع الوحدة إلى جنب عوامل أُخر قد أسهم في استعلان اللهجات الجهَوية ، مثلاً .

وأما التعليم فهو للخاطر الأوّل ضمان لبقاء العربية وحياتها ، ولكنه لم يبلغ غايته في التمكين للعربية ؛ إذ أصبح ضعف المتعلمين في العربية على الجملة يُعَبَّر عنه تجوّزا بضعف اللغة العربية . وهو مرتهن بشروط شتّى ؛ أما المحافَظة فتحرص على ربطه بالتراث ، ولكن وسائله تقصر عن تحبيب الناشئة إلى العربية وتراثها في الغالب ، وما يزال استصعاب العربية بل النفور منها تياراً سائداً غالباً . وأما الآخَر فإنه يتعلم العربية كيداً ومكراً ، وهو يتدخل في تعليمها لسلبها خصوصيتها الثقافية . وأما حال الأمة فقد انعكست على موقف المتعلمين من العربية سلباً . ويتدخل الاقتصادي المُوجَّه بالمنفعة هنا تدخّلاً مُحبطاً إذ يتنقّص أهمية معلمّي اللغة العربية فيدخل عليهم الضيم في معاشهم ، ويستتبع هذا عليهم أثراً اجتماعياً كامناً يتمثّل في تراجع منزلتهم في التصنيف الاجتماعي . وتتدخل الازدواجية في هذه السبيل تدخلا ضمنياً إذ إن العلاقة الملتبسة بين العامية المكتسبة والفصحى توهم المتعلمين أن الجهد المبذول في تعلّم الفصحى كأنه من لزوم ما لا يلزم . ويمتد الضعف من الفضاء التعليمي العام إلى الفضاء الجامعي فالاجتماعي ، ويصبح الضعف هو عنوان سؤال التعليم في هذه الأطروحة ، ولكنه عنوان يبدأ لغوياً تعليمياً ثم لا يلبث أن يصبح موضوعا يتجاذبه الثقافي والاجتماعي والاقتصادي والأنا والآخَر .

وأما الترجمة فحالها من حال الأمة ، نوايا طيبة ، وأشتات مشاريع ، وخطط معطّلة ، وإنجازات

محدودة ، وطموحات مُحَفِّزة بوعود الاستثمار لعلّها تأخذ سبيلها باطّراد نحو تمكين العربية من اللحاق بالعصر .

وأما **الإعلام والإعلان** فمرهونان بالاقتصاد ، والاقتصاد مَرْجِعُه المنفعة ، والعربية فيه محكومة بهذا المعيار ، وترشيده بالثقافيّ عامل حاسم في ترويج الفصحى وتزيينها لدى الكافّة .

وأما الازدواجية فهي العلّة المقيمة ، ولكن محو الأميّة - وهي مستفحلة - قد يخفف من أعراضها . كما أن تنامي الحوافز إلى إتقان الفصحى (كما في حال مراسلي التلفزة) قد يتقدم بها نحو الاتساق .

وأما **الثنائية** فهي نتاج الآخَر وترشيدها مرتبط بوعي الأمة لمشروعها في النهضة .

وأمّا **العولمة** فمدّ زاحف بأعلامه ورموزه ومنطوياته وهو يحتلّ حيِّزاً من معجم العربية ويتحيَّف دورها في العلم والاقتصاد ، ولكنه يَلْقَى **مدافعة بالثقافي بل بالاقتصادي** (إذ أصبحت وسائل الاتصال والحوسبة مداخل للاستثمار في الفضاء العربي) .

شطر الأسئلة:

- كيف نتناول النصّ القرآني لنكشف عن فرادته الأسلوبية؟ وكيف نجعل تعلّم العربية سبيلاً إلى فهم النصّ وتذوّق إعجازه؟
- كيف ننقب عن درّ التراث على نحو يدفع عنه الظنّ بأنه نتاج زمان غابر؟
- وكيف نجليّ جمالياته وبصائره على نحو يحفّزنا لمجاراته في إنجازه المتفوق في زمانه؟ .
- كيف نجعل العربية رمزاً نتميّز به عن الآخر ونجعل ذلك مبعثاً للشعور بالثقة ومدافعة الاستلاب؟
- كيف نقنع الجيل بأن انسحابه من العربية إلى الإنجليزية أو الفرنسية يشبه أن يكون منفى اختيارياً لا يلبث أن يضيق به ، وأن يتعظ بتجربة مبدع هو كاتب ياسين ومفكّر كونيّ هو إدوارد سعيد؟
- كيف نجعل معرفة العربية حدّ الإتقان وبلوغ التمام شرطاً للأهمية الاجتماعية المرموقة كالذي نحرص عليه حين نستعمل الإنجليزية فنرى الخطأ فيها إثماً؟ . وكيف نجعل الناشئة يتمثلون ما بلغه إدوارد سعيد حتى فضّل العربية بما لها من بنية أرسطية على لغات كثيرة عرفها ؟
- كيف نقنع من يسخرون من الفصحى ويشخّصون الناطقين بها تشخيصاً كاريكاتيرياً أن ما أبدعه المتنبي بها وما أبدعه محمود درويش وغيرهما يفوق ما أُبدع بالعاميات قديماً وحديثاً؟

- كيف نزيّن للقائمين على الإعلام أن الذين تفوّقوا فيه واللواتي تفوقّن فيه إنما هما من طوّرا أداء فصيحاً رشيقاً جذاباً ، والأمثلة على ذلك موائل؟

- كيف نُري الذين يوغلون في ترويج لهجاتهم في مسلسلاتهم العربية أن اليخاندرو وكساندرا وغيرهما في المسلسلات المدبلجة لا يفارقون واقعية التعبير عن الإنساني اليومي بالفصحى؟

- لماذا مات معظم المعجم العربي في دورة الزمان؟ ولماذا غدا معجم الحياة العربية بملبسها ومأكلها ومركبها غريباً بعد أن كان يغتني بالتفاصيل الدقيقة حدّ الإدهاش ؟

- ما الذي تكشف عنه المقابلة بين معجم الخيل أو معجم الأطعمة أو معجم الأشربة أو معجم السيف أو معجم الملابس عند العرب قديما ، ومعجم السيارات أو معجم الأسلحة الحديثة أو معجم الأطعمة الحديثة أو معجم الأشربة الحديثة أو معجم الأزياء الحديثة في متداول العربية هذه الأيام؟

- كيف نصحح المعادلة الخاطئة التي تكلّف اللسان بما هو اللغة أن يؤدي وظيفة اليد بما هي العاملة والصانعة والمنتجة أو وظيفة الأمّة بما هي العاملة والصانعة والمنتجة؟

- كيف نرشّد الاقتصادي بالثقافي ليتعلم أن المنفعة بالمعنى البراغماتي الخالص كالخبز الذي ليس به وحده يحيا الإنسان؟

- كيف ننبه في الأمّة روح الاختيار (اللغوي) الذي يسخّر لها اللغات الأخرى وسائلَ قوّة معرفية موجّهة فحسب ، ونقنعها بأنّ تلك اللغات لا تصلح أوطاناً للذاكرة ولا حاضنة للوجدان الجمعي ولا رمزاً لتحقيق الذات؟

- كيف نترجم المواءمةَ بين الثقافي والاقتصادي والعَقْدَ بين آخر الفكرة وأوّل العمل ليتسق مدار العربية في حياتنا على الزمان في منظومة تأتلف فيها قيم الثبوت وقوى التحوّل في وحدة تغتني بالتنوّع وسيرورة متّصلة تغتني بالصيرورة؟

أما آخر الفكرة :

فهو إطلالة مستصفاة من ذلك كلّه انتهيت بها إلى أن أمر اللغة على الجملة منوط بالائتلاف المنسجم بين الثقافي والاقتصادي .

فإذا وقفنا عند حدّ ما جاءت به **الأجوبة** قلنا إن العربية بما تختزن من قيم الثبوت وما يتنازعها من قوى التحوّل ستحيا بقوة الاستمرار ولكن في حال حرجة ، أما إذا أجبنا عن الأسئلة التي اشتُقّتْ منها فإن العربية ستمضي في طريقها إلى الازدهار وتبلغ حالة الكتلة الحرجة .

ونحن أدْرَى وقد سَألْنـا بِنَجْـدٍ　　　أطويلٌ طريقُنا أم يَطــــولُ

وكثيرٌ من السؤال اشتيـــاقٌ　　　وكثيـــرٌ من رَدّهِ تَعليــــلُ

ثبت المصادر والمراجع والمواقع

ينتظم هذا الثبتُ المؤلفاتِ المنفردةَ والمشتركة والمخطوطة

والمترجمة والدوريات والبحوث والمقالات والمواقع

على اختلافها وفقا للترتيب الهجائي للعناوين

إلا القرآن الكريم

أ. العربية:

- القرآن الكريم

- **الأبعاد الثقافية للعولمة مقارنة بخصائص النزعة العالمية للإسلام**، عرفان عبد الحميد فتاح: (مخطوط).

- **آثار العولمة في اللغة العربية ولغات الشعوب الإسلامية (مخطوط)**، عيسى برهومة، الندوة الإقليمية: العولمة وانعكاساتها على العالم الإسلامي في المجالين الاقتصادي والثقافي، التي عقدتها المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة بجامعة آل البيت – الأردن، 3-4 مايو (أيار) 2006.

- **أثر العولمة على اللغة العربية والهوية الإسلامية (مخطوط)**، وفاء أبو حطب، في: الندوة الإقليمية: العولمة وانعكاساتها على العالم الإسلامي في المجالين الاقتصادي والثقافي، التي عقدتها المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، في جامعة آل البيت – الأردن، 3-4 مايو (أيار) 2006م.

- إحياء النحو، إبراهيم مصطفى، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1959.

- **الأخطاء الإملائية الشائعة في الصحافة**، شريف علاونة، ندوة اللغة العربية ووسائل الإعلام، 29-30 أيار 2000، منشورات جامعة البترا.

- **الأخطاء المعجمية والصرفية والنحوية**، نهاد الموسى، ندوة اللغة العربية ووسائل الإعلام، 29-30 أيار 2000، منشورات جامعة البترا.

- **الأخطاء النحوية والتركيبية**، جعفر عبابنة، ندوة اللغة العربية ووسائل الإعلام، 29-30 أيار 2000، منشورات جامعة البترا.

- أدب الكاتب ، ابن قتيبة ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، المكتبة التجارية ، القاهرة ، الطبعة الرابعة 1382-1963 .

- إدوارد سعيد (رواية للأجيال) ، محمد شاهين ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، 2005 .

- إدوارد سعيد (مقالات وحوارات) ، تحرير وتقديم محمد شاهين ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، 2004 .

- إدوارد سعيد (هجرات متعاقبة في عالم النص والثقافة) ، محمد شاهين ، مخطوط محاضرة ألقيت في منتدى شومان الثقافي ، عمان ، 8 آب 2005 .

- أزمة اللغة العربية في المغرب بين اختلالات التعددية وتعثرات الترجمة ، عبد القادر القاسي الفهري ، القدس العربي ، 7 تشرين الأول 2005 .

- الأسيرين (قصة استثنائية لعقار أعجوبي) ، ديارمويد جيفريز ، دار الساقي ومركز البابطين للترجمة ، بيروت 2005 .

- اكتساب الطفل العربي للغته الأم في زمن العولمة ، أحمد الخطيب ، في : اللغة العربية وتحديات العصر (وقائع ندوتي : الهوية اللغوية والعولمة ، واللغة العربية والهوية القومية) ، تحرير خالد الجبر ، منشورات جامعة البترا ، 2005 .

- الألفاظ العربية المقترضة في الملايوية : تطورها ومصيرها في عصر العولمة ، مجدي حاج إبراهيم ، مجلة اتحاد الجامعات العربية ، العدد 44 ، ذو القعدة 1425هـ-كانون الأول ، 2004 .

- الأهرام ، السنة 130 ، العدد 43621 ، 14 ربيع الآخر 1427هـ - مايو (أيار) 2006م .

- أوراق الحلقة النقاشية الثانية : تدريس مهارات اللغة العربية ، جامعة فيلادلفيا ، 2002 .

- البحر المحيط في التفسير ، أبو حيان الأندلسي ، الجزء السادس بعناية زهير جعيد ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع .

- البخلاء ، الجاحظ ، تحقيق طه الحاجري ، دار المعارف بمصر ، 1958 .

- البيان والتبيين ، الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة 1368هـ-1949م .

- **التداول بالإنجليزية في العالم العربي** ، وليد العناتي ، مجلة البصائر (جامعة البترا) ، المجلد 8 - العدد 2 ، 1425هـ-2004م .

- **الترجمة في العالم العربي : الواقع والتحدي في ضوء مقارنة إحصائية واضحة الدلالة** ، شوقي جلال ، المجلس الأعلى للثقافة (مصر) ، 1999 .

- **الترجمة في الوطن العربي (نحو إنشاء مؤسسة عربية للترجمة)** ، بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت 2000 .

- **التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن** ، عودة أبو عودة ، مكتبة المنار ، الزرقاء - الأردن ، 1405هـ-1985م .

- **تعايش الثقافات : مشروع مضاد لهنتنجتون** ، هارالد موللر ، ترجمة إبراهيم أبو هشهش ، بيروت - دار الكتاب الجديد ، 2005م .

- **تعريب العلوم (دراسات ومقالات)** ، عادل جرار ، دار الضياء للنشر والتوزيع ، عمان - الأردن ، الطبعة الأولى 1425هـ-2004 .

- **تفسير الطبري** ، هذبه وقربه وخدمه صلاح الخالدي ، وخرج أحاديثه إبراهيم العلي ، الجزء السادس ، دار القلم (دمشق) والدار الشامية (بيروت) ، الطبعة الأولى 1418هـ-1997م .

- **تفسير الطبري** ، المجلد الثامن ، منشورات محمد علي بيضون ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير ، دار الفكر -عمان .

- **تقرير التنمية الإنسانية العربية للعام 2003 - نحو إقامة مجتمع المعرفة** ، برنامج الأمم المتحدة الإنمائي - الصندوق العربي للإنماء الاقتصادي والاجتماعي - المكتب الإقليمي للدول العربية : المطبعة الوطنية - عمان - المملكة الأردنية الهاشمية 2003 .

- **تقويم خطط أقسام اللغة العربية في الجامعات المصرية أكاديميا وعلميا** ، محمود فهمي حجازي ، الموسم الثقافي السابع عشر لمجمع اللغة العربية الأردني 1420هـ-1999م .

- **تقويم لغة الصحافة العربية اليوم** ، تيسير أبو عرجة ، ندوة : اللغة العربية ووسائل الإعلام 29-30 أيار 2000 ، منشورات جامعة البترا .

- **التكوين التاريخي للأمة العربية** ، عبد العزيز الدوري ، في : دراسات إسلامية ، تحرير فهمي جدعان ، منشورات جامعة اليرموك (مركز الدراسات الإسلامية) ، 1402هـ-1983م .

- **الثقافة والمقاومة** ، إدوارد سعيد ، حاوره دايفيد بارساميان ، ترجمة علاء الدين أبو زينة ، مراجعة محمد شاهين ، دار الآداب ، 2006م .

- ثلاث رسائل في **إعجاز القرآن** ، للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني ، حققها وعلق عليها محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام ، دار المعارف بمصر .

- **حجة القراءات** ، ابن زنجلة ، تحقيق سعيد الأفغاني ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الثانية ، 1399هـ-1979م .

- **حركة الترجمة الفلسطينية** ، حسام الخطيب ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت 1995م .

- **الحق في الإبلاغ (دور وسائل الإعلام الجماهيرية في التنمية الاقتصادية)** ، معهد البنك الدولي ، الطبعة العربية الأولى 2005 ، الأهلية للنشر والتوزيع ، عمان .

- **الخير العام (إشكاليات الفرد والمجتمع في العصر الحديث)** ، تأليف أميتاي إتزيوني ، ترجمة ندى السيد ، دار الساقي ومركز البابطين للترجمة ، بيروت 2005 .

- **رسائل البلغاء** ، اختيار تصنيف محمد كرد علي ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، الطبعة الرابعة 1374هـ-1954م .

- **رسائل الجاحظ** ، تحقيق عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، 1384هـ-1965م .

- **رياح العصر (قضايا مركزية وحوارات كاشفة)** ، فهمي جدعان ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، 2002م .

- **صدام الحضارات .. إعادة صنع النظام العالمي** ، صامويل هنتنجتون ، ترجمة طلعت الشايب ، الطبعة الثانية ، 1999م .

- **ظاهرة الدعا والفرانكو أراب في ميزان علم النفس الاجتماعي** ، محمود الذوادي ، مجلة أوان ، العدد العاشر ، 2005 .

- **العبقرية العربية في لسانها** ، زكي الأرسوزي ، دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر بسورية ، دمشق د .ت .

- **عرب الماء والإنسان** ، عبد الكريم غرايبة ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، الطبعة الأولى ، بيروت 2006 .

- **العربي وسؤال الهوية : بيان عن تجربتي في تدريس قضايا اللغة العربية في العصر الحديث** ، وليد العناتي ، في : اللغة العربية وتحديات العصر - وقائع ندوتي : الهوية اللغوية والعولمة ، واللغة العربية والهوية القومية ، تحرير خالد الجبر ، منشورات جامعة البترا 2005 .

- **العربية في إسرائيل . . . لغة مهمشة رغم الاعتراف الرسمي** ، نمر سلطاني ، جريدة فلسطين ، العدد 12796 ، 3 تشرين الأول 2005 .

- **العربية لغة للمعرفة : نحو بناء مجتمع معرفة باللغة العربية** ، وليد العناتي ، مجلة البصائر (جامعة البترا) ، المجلد 9 - العدد 2 ، شعبان 1426هـ-أيلول 2005م .

- **العربية والأمة وعود على بدء في سؤال الهوية والوحدة** ، نهاد الموسى ، في : الثنائيات في قضايا اللغة العربية من عصر النهضة إلى عصر العولمة ، دار الشروق 2003 .

- **علاقة اللغة العربية بالصحافة** ، أحمد الخطيب ، في : ندوة اللغة العربية ووسائل الإعلام 29-30 أيار 2000 ، منشورات جامعة البترا .

- **عودة إلى المسألة اللغوية** ، الطاهر لبيب ، في : النهوض العربي ومواكبة العصر ، مراجعة وتقديم صلاح جرار ، مؤسسة عبد الحميد شومان ، عمان - الأردن 2005 .

- **العولمة الثقافية اللغوية وتبعاتها للغة العربية** ، أحمد عبد السلام ، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني ، العدد 60 ، السنة الخامسة والعشرون 1422هـ-2001م .

- **العولمة وتغيرات العالم : كيف تخلق العولمة فرصا للنهوض العربي؟** رضوان زيادة ، الندوة الإقليمية : العولمة وانعكاساتها على العالم الإسلامي في المجالين الاقتصادي والثقافي ، التي عقدتها المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة ، في جامعة آل البيت - الأردن ، 3-4 مايو (أيار) 2006م .

- **العولمة والعولمة المضادة** ، عبد السلام المسدي ، شركة مطابع لوتس بالفجالة ، 1999م .

- **فخ العولمة** ، تأليف هانسن بيتر مارتن - هارالد شومان ، ترجمة عدنان عباس علي ، مراجعة وتقديم رمزي زكي ، عالم المعرفة - المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت ، أكتوبر 1998 .

- **فن التعبير الشفهي "المحادثة" باللغة العربية ودوره في المناشط اللغوية التي يحتاج إليها الإنسان العربي** ، عبد السلام المسدي ، الموسم الثقافي الثاني والعشرون لمجمع اللغة العربية الأردني ، منشورات المجمع 1425هـ-2004م .

- في اللغة والأدب وعلاقتهما بالقومية ، ساطع الحصري ، مركز دراسات الوحدة العربية : بيروت ، الطبعة الخامسة ، 1985م .
- قائمة الكتب المتخصصة في مجال الأدب ، وكالة الأهرام للتوزيع ، 1999م .
- القراءة الفيلولوجية للقرآن ، حوار أجراه كريستوف بورغمر مع كريستوف لوكسنبرج حول كتابه : القراءة السريانية الأرامية للقرآن – مساهمة في تفسير القرآن ، وترجم الحوار رشيد بوطيب ، مجلة فكر وفن ، العدد 81 .
- القضية اللغوية في تونس ، محمد هشام بوقمرة ، سلسلة الدراسات الأدبية ، رقم 6 – تونس 1985م .
- كتابة النص في عالم متغير من انهيار السلطة اللغوية إلى سقوط الأنساق الفكرية ، السيد ياسين ، ندوة اللغة العربية والإعلام وكتابة النص ، منتدى الفكر العربي ومجمع اللغة العربية الأردني ، 13 أيلول 2005 .
- الكشاف ، الزمخشري ، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض بمشاركة فتحي عبد الرحمن أحمد حجازي ، الجزء الثالث والجزء الخامس ، مكتبة العبيكان .
- لسان العرب ، ابن منظور ، دار صادر – بيروت .
- اللسانيات واللغة العربية (الكتاب الأول) ، عبد القادر الفاسي الفهري ، دار توبقال ، الدار البيضاء 1998 .
- لعبة وسائط الإعلام (السياسة الأمريكية في عصر التلفزيون) ، ستيفن اينزلابير وروي بير وشانتو إينجر ، ترجمة شحدة فارع ، مراجعة فاروق منصور ، الطبعة الأولى 1419هـ-1999م ، دار البشير – عمان .
- اللغة الأجنبية والهوية الثقافية للناشئة في عصر العولمة ، زبيدة عرقسوسي ، ندوة اللغات في عصر العولمة : رؤية مستقبلية ، كلية اللغات والترجمة ، جامعة الملك خالد ، المملكة العربية السعودية ، 1426هـ .
- اللغة أخطر من أن تترك للغويين وحدهم ، فاروق شوشة ، مجلة وجهات نظر ، العدد 81 ، السنة السابعة ، أكتوبر ، 2005م .
- لغة الإعلام بين متطلبات : الرسالة والوسيلة والجمهور ، تيسير أبو عرجة ، ندوة : اللغة العربية والإعلام وكتابة النص ، منتدى الفكر العربي ومجمع اللغة العربية الأردني ، عمان 13 أيلول 2005 .

- **اللغة بين القومية والعالمية** ، إبراهيم أنيس ، دار المعارف بمصر 1970 .

- **اللغة العربية الاتصالية** ، تأليف محمد زكي بن مت ومحمد شكري حاج حمزة وإدريس بن عبد الله وتحرير حسب الله بن أبي بكر وداود بن حميد وشريفة لجدة بنت سيّد أحمد ، كوالالمبور ، 2004م .

- **اللغة العربية الاتصالية للسنة الثانية** ، تأليف محمد زكي بن مت ومحمد شكري ابن حمزة وإدريس بن عبد الله وتحرير حسب الله بن أبي بكر وداود بن حميد وشريفة نجدة بنت سيد أحمد ، كوالالمبور ، 2004 .

- **اللغة العربية العالية للسنة الخامسة** ، تأليف محمد نصر الدين بن محمد هاشم وجعفر الدين بن فيلوس وعبد الرزاق بن أبو جيك ، وتحرير سوزانا بنت عثمان وأحمد حمكا بن عبد الرشيد وشهنول بن عبد الواحد وزيدا بنت أحمد ، كوالالمبور ، 2004 .

- **اللغة العربية العالية للسنة الخامسة** ، تأليف يحيى محمد رازي وعبد الله الحاج حسن وأكرم ذكي عبد الرشيد ، كوالالمبور ، 1996م .

- **اللغة العربية العالية لسنة الرابعة** ، تأليف بدري نجيب بن زبير وأحمد بن إسماعيل وشعيب بن محمد أمين ، وتحرير أحمد حمكا بن عبد الرشيد وشهنول بن عبد الواحد وزيدا بنت أحمد ، كوالالمبور ، 2004 .

- **اللغة العربية الاتصالية للسنة الرابعة** ، تأليف سيد عمر السقاف ويزيد كجيك ومحمد عبد الرحيم محمد عبد الرحمن ، وتحرير داود بن حميد ، كوالالمبور 1996 .

- **اللغة العربية في عصر العولمة** ، أحمد بن محمد الضبيب ، مكتبة العبيكان ، الطبعة الأولى 1422هـ- 2001م .

- **اللغة العربية وأبناؤها (أبحاث في قضية الخطأ وضعف الطلبة في اللغة العربية)** ، نهاد الموسى ، دار العلوم للطباعة والنشر - الرياض 1405هـ-1985م .

- **اللغة العربية وتحديات العصر الحديث** ، بسام بركة ، محور اللغة العربية ، حوار العرب ، إبريل (نيسان) 2005م .

- **اللغة العربية وتحديات عصر العولمة** ، حسين نصار ، العربي ، العدد 503 - أكتوبر 2000م .

- **اللغة والاقتصاد** ، تأليف فلوريان كولماس ، ترجمة أحمد عوض ، مراجعة عبد السلام رضوان ، عالم المعرفة (263) ، الكويت ، شعبان 1421هـ- نوفمبر (تشرين الثاني) 2000م .

- اللغة والإنترنت ، تأليف ديفيد كريستال ، ترجمة أحمد شفيق الخطيب ، المجلس الأعلى للثقافة ، مصر ، 2005 .

- **اللغة والتواصل الإعلاني : مثل من انتشار الأسماء الأجنبية في اللافتات التجارية في الأردن** ، عيسى برهومة ، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني ، العدد 69 ، السنة التاسعة والعشرون ، جمادى الآخرة – ذو القعدة 1426هـ – تموز – كانون الأول 2005م .

- **اللغة والعولمة : لغة عالمية أم لغات متعددة** ، وليد العناتي ، ندوة اللغات في عصر العولمة : رؤية مستقبلية ، كلية اللغات والترجمة ، جامعة الملك خالد ، إصدار 1426هـ .

- **اللغة والهوية في إسرائيل** ، تحرير محمد أمارة ، مدار ، المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية ، رام الله 2002م .

- مؤتمر **اللغة العربية في عالم متغير (ملخصات البحوث)** ، جامعة الشارقة ، 10-12 ربيع الأول 1426هـ ، 19-21 إبريل 2005م .

- **ما العمل؟ حديث إلى الأجيال العربية الطالعة** ، قسطنطين زريق ، بيروت 1998 ، عن : كتاب في جريدة ، الذي تصدره منظمة اليونسكو – رقم 87 – 2 تشرين الثاني 2005 بصحبة جريدة الدستور (عمان – الأردن) للتاريخ المذكور قبلا .

- **مجلة المجمع العلمي العربي** ، دمشق ، الجزء 11 ، المجلد 4 ، تشرين الثاني 1924م– ربيع الثاني 1343هـ .

- مراجعات لسانية ، الجزء الثاني ، (**سر بقاء اللغة العربية**) ، حمزة بن قبلان المزيني ، كتاب الرياض ، العدد 75 – فبراير (شباط) 2000م .

- **المصطلحات العلمية في اللغة العربية في القديم والحديث** ، مصطفى الشهابي ، المجمع العلمي العربي بدمشق 1384هـ – 1965م .

- **المعجم العربي نشأته وتطوره** ، حسين نصار ، مكتبة مصر ، الطبعة الرابعة 1988م–1408هـ .

- **المعطيات المباشرة للإشكالية الإسلامية المعاصرة** ، فهمي جدعان ، في : دراسات إسلامية ، منشورات جامعة اليرموك (مركز الدراسات الإسلامية) 1403هـ–1983م .

- **المقدمة** ، ابن خلدون ، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر ، بيروت 1961م .

- مقدمة لدراسة اللغة وهوية الأمة ، ناصر الدين الأسد ، في : النهوض العربي ومواكبة العصر ، مراجعة وتقديم صلاح جرار ، مؤسسة عبد الحميد شومان ، عمان - الأردن 2005 .

- ملخصات أبحاث : الترجمة وتفاعل الثقافات ، المجلس الأعلى للثقافة ، مصر ، 29 مايو إلى 1 يونيو 2004م .

- من قضايا اللغة العربية ، داود عبده ، وزارة الثقافة ، عمان - الأردن 2005 .

- من قضايا اللغة العربية المعاصرة ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، تونس 1990 .

- منهجية العلماء المسلمين في الترجمة في العصر العباسي ، سمير الدروبي ، مجلة ترجمان ، المجلد 8 ، العدد 1 ، إبريل 1999 .

- الموسم الثقافي الثالث والعشرون لمجمع اللغة العربية الأردني ، منشورات المجمع ، 1426هـ-2005م .

- الموسم الثقافي الثاني والعشرون لمجمع اللغة العربية الأردني ، منشورات المجمع ، 1425هـ-2004م .

- الموسم الثقافي السابع عشر لمجمع اللغة العربية الأردني ، منشورات المجمع ، 1420هـ-1999م .

- ندوة قضايا اللغة العربية في عصر الحوسبة والعولمة ، اتحاد المجامع اللغوية العربية بالتعاون مع مجمع اللغة العربية الأردني ، 9-12 رجب 1423هـ ، 16-19 أيلول 2002م .

- النص الأدبي المترجم : الصورة والظل ، رزان إبراهيم ، في : اللغة العربية وتحديات العصر ، وقائع ندوتي : الهوية اللغوية والعولمة ، واللغة العربية والهوية القومية ، تحرير خالد الجبر ، منشورات جامعة البترا ، 2005 .

- نظرية التراث ودراسات عربية وإسلامية أخرى ، فهمي جدعان ، دار الشروق (عمان) ، الطبعة الأولى 1985م .

- هل تقوم لغة عالمية واحدة؟ أحمد أبو زيد ، العربي ، العدد 542 ، يناير 2004 .

- هل الرأسمالية أخلاقية؟ ، أندره كونت - سبونفيل ، ترجمة بسام حجار ، مركز البابطين للترجمة (الكويت) ودار الساقي (بيروت) 2005 .

ب. الانجليزية:

-**Anthropolgical Linguistics: An Introduction**, by William A. Foley, Blackwell Publishers, 1997.

- **Arabic into Medieval Latin**, by J. D. Latham, Journal of Semitic Studies, Vol. XVII, Manchester Univ. Press 1972.

- **Arabic Loan-Words in Malay (A Comparative Study)**, by Muhammad Abdul Jabbar, Kuala Lumpur, 1399 A.H -1979 A.D.

- **Arabic: Significance in Arab-Muslim Society**, by Anwar Chejne, The Middle East Journal, Vol. 19, No. 4.

- **Awareness of Language: An Introduction** (Revised Edition), by Eric Hawkins, Cambridge Univ. Press, 1987.

- **Bilingualism in Malaysian Coporate Communication**, by Shameem Rafik-Galea, Mohd. Salleh hj. Hassan, 2003.

- **Bridging the Learning of Science and English**: Considerations in the Development of Interdisciplinary Materials for Elementary Students, by Sabariah Md Rashid and Chan Mei Yuit, in ELT Teaching Materials: Theory and Practice, edited by Shameem Rafik-Galea, Sasbadi Sdn. Bhd., Malaysia 2004.

- **Chambers Twentieth Century Dictionary**, edited by A M Macdonald, W&R Chambers, London 1972.

- **Colonization, Globalization, and the Future of Languages in the Twenty - First Century**, by Slikoko S. Mufwene, Univ. of Chicago.

- **Communicating at the Workplace: Insights into Malaysian Electronic**

Business Discourse, by Habil Hadina and Shameem Rafik-Galea, in Asian Business Discourse (s), edited by Francesca Bargiela- Chiappini and Maurizio Gotti, Peter Lang, Bern, Switzerland 2005.

- **Debabelization** (with a Survey of Contemporary Opinion on the Problem of a Universal Language) by C.K. Ogden, London 1931.

- **Diverse Voices 2- Selected Readings in Language,** Chief Editors: Rosli Talif, Shameem Rafik-Galea, Chan Swee Heng, Faculty of Modem Languages and Communication, Univ. Putra Malaysia 2002.

- **ELT Teaching Materials: Theory and Practice**, edited by Shameem Rafik-Galea, Sasbadi Sdn. Bhd., Petaling Jaya, Malaysia 2004.

- **Ethical Dimension of Language**, by Arlene Bastion, in: Diverse Voices 2- Selected Readings in Language, edited by Rosli Talif, Shameem Rafik-Galea, Chan Swee Heng, Faculty of Modern Languages and Communication, University Putra Malaysia, 2002.

- **European Loan-Words in Contemporary Arabic Writing: A Case Study in Modernisation,** by Charles Issawi, in Middle Eastern Studies, Vol. 3, No. 2, January 1967.

- **Explorations in the Functions of Language**, by M. A. K. Halliday. Edward Arnold (Publishers) Ltd, London 1981.

- **Handbook of Basic English**, by Tom Burns Haber. New York-London 1945.

- **Language,** by Leonard Bloomfield, Holt. New York, 1933.

- **Language: An Introduction to the Study of Speech,** by Edward Sapir, Harcourt... New York, First Edition 1921,Then 1949.

- **Language Spread (Studies in Diffusion and Social Change)**, edited by Robert L. Cooper, Indiana Univ. Press Bloomington and Center for Applied Linguistics -Washington D.C. 1982.

- **Languages in a Globalizing World**, edited by Jacques Maurais and Michael A. Morris, Cambridge Univ. Press 2003.

- **Lectures on Language Problems**, by Bjorn Jernudd, Bahri Publications 1990.

- **Man's Many Voices: Language in its Cultural Context**, by Robins Burling, Holt. New York 1970.

- **Out of Place (A Memoir)**, by Edward W. SAID, Vintage Books, New York, 2000.

- **Pragmalinguistics: Theory and Practice**, edited by Jacob L. Mey, Mouton Publishers, The Hague -Paris -New York 1979.

- **Reflections on Exile and Other Literary and Cultural Essays**, by Edward W. SAID, Granta Books, London, 2001.

- **Remarks on Diglossia in Arabic: Well-defined vs. ill-defined**, by Alan kaye, in Linguistics: An International Review, 81, Mouton-The Hague -Paris,1972.

- **Semiotic Perspectives**, by Sa'ndor Hervey, Gorge Allen & Unwin (Publishers) Ltd. London, 1982.

- **The Arabic Language and National Identity**, by Yasir Suleiman, Edinburgh Univ. Press, 2003.

- **The Arabic Language: It's Role in History**, by Anwar G. Chejne, Univ. of Minnesota Press- Minneapolis, 1969.

- **The Historical Background to the Naturalisation of Arabic Loan-Words in Hausa**, by M. Hiskett, in African Languages Studies VI. School of Oriental and African Studies, Univ. of London 1965.

- **The Sound Pattern of English**, by N. Chomsky and M. Halle. New York. Harper and Row. 1968.

- **The World's Major Languages,** by Allan Kaye, Routledge, New York 2000.

- **Varieties of English**, by Dennis Freeborn, Peter French, David Langford, Macmillan Education Ltd. Houndmills, Basingstoke, Hampshire and London, 1987.

ج. مواقع على الانترنت

- **Basic Assumptions in Teaching English as an International Language**, by Mohammad Reza Talebinezhad and Mohammad Aliakbari, The Internet TESL Journal, Vol. VII, No. 7, July 2001, http://iteslj.org

- **English in Action: How the Language Changes People**, by Ted Antony, 2002

(http://wire.up.org/AP Packages/english/english2.html)

- **English and American Literature and Language-** http: //www.registrar.fas.harvard.edu/courses.

- **English -The Universal Language on the Internet -Human** languages of **the Free Information site IT and Communication,** by Jukka-Yucca'Korpela, 2003-09-02

- **International Languages and International Human Rights,** by Robert Phillipson.

http: //ucd.org/info/angle/ed37-angla.html/2003-03-26

- **Language Based Issues of Globalization and the Internet** -by Lauren Labrecque, Google -14/03/2006.

- **Language Choice Online: Globalization and Identity in Egypt**, by Mark Warschauer, Ghada R. El Said, Ayman Zohry -JCMC 7 (4) July 2002.

- **Language Death**, David Crystal - Cambridge Univ. Press 2000, A book review by Danny Yee - @ 2000 http: //dannyreviews.com/

- **Languages on the Brink** @ 2003 Riverdeep Interactive Learning Limited, January,

- **Lost Tongues and the Politics of Language Endangerment** -by Salikoko S. Mufwene From: Univ. of Chicago (2001).

- **President's Remarks at U.S. University Presidents' Summit..** www.whitehouse.gov/news/releases/2006/01/2006/05-1.html

- **Taking Notes of Language Extinction-** by Margit Waas-waasm@nie.edu.sg.

- **What's happening to our Languages?** Topics online magazine @1997-2002: topics-mag@yahoo.com